مكة المكرمة

في عيون رحالة نصارى

تأليف

أغسطس رالي

نقله إلى العربية

أ.د حسن سعيد غزالة

راجعه وعلق عليه

أ.د محمد محمود السرياني د. معراج نواب مرزا

دارة الملك عبد العزيز

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
رالي، اغسطس
مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى./ أغسطس رالي؛ حسن سعيد غزالة؛ معراج نواب مرزا؛ محمد محمود السرياني. الرياض، ١٤٣٠هـ
٣١٦ ص؛ ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٤ - ٣٣٦ - ٥٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١ - مكة المكرمة - وصف ورحلات ٢ - الرحالة الغربيون أ. غزالة، حسن سعيد (مترجم) ب - مرزا، معراج نواب (محقق) ج. السرياني.
ديوي ٩١٥,٣١٢١٠٤ ٥٠٣/ ١٤٢٩
رقم الإيداع: ٥٠٣/ ١٤٢٩
ردمك: ٤ - ٣٣٦ - ٥٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

هذا الكتاب ترجمة لكتاب:
Christians at Mecca
تأليف:
Augustus Ralli

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على صفوة خلقه أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد أولت دارة الملك عبدالعزيز منذ إنشائها - وما زالت - مكة المكرمة عناية فائقة واهتمامًا كبيرًا، ذلك لأنها البلدة التي حرمها الله، ورفع قدرها، وأعلى شرفها، وجعلها قبلة المسلمين، ومهبط الوحي الأمين، فيها المسجد الحرام، والمشاعر المقدسة، وإليها تهفو قلوب المسلمين من كل حدب وصوب، وتتجه إليها الملايين في كل عام للحج أو العمرة أو الزيارة. لها تاريخ عريق، وامتداد مشرق بالنور المبين، حظيت باهتمام حكومة المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها على يد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله، وأصبحت هي والمدينة المنورة الجوهرتين اللتين يسكن القلب فيهما، ولا ريب في أن شواهد التاريخ ستذكر بمداد من نور تلك المآثر االكريمة التي بذلت بسخاء لخدمة هاتين المدينتين المقدستين.

وإن العرض المتأني للمكتبة التاريخية ليكشف لنا أن مكة المكرمة والمدينة المنورة قد لقيتا اهتمامًا كبيرًا من الكتاب والمؤرخين، وذلك عائد إلى مكانتهما الدينية وأهميتهما التاريخية. ومما لا شك فيه أن الاهتمام بهما لم يقف عند أقلام الكتاب والباحثين من المسلمين، بل امتد - أيضًا - إلى الكتاب

الأجانب من غير المسلمين، الذين رحلوا إليهما، وكتبوا عنهما، وسجلوا آراءهم عما رأوه فيهما. وتعد الكتب التي تضمنت رحلات أولئك الرّحّالة من النصارى مجالًا خصبًا للدراسة والتحقيق والتمحيص؛ ذلك لأنها تحتوي على معلومات وتصورات تختلط فيها الآراء وتختلف، وما كان الاختلاف فيها إلا أنها صادرة من وجهة نظر غربية يحكمها التغاير في المعتقد، ولذلك كان حتمًا على الباحثين أن يسلطوا الضوء على تلك الكتابات، وأن يصححوا ما ورد فيها من وجهات نظر غير دقيقة، وأن يعدوا ذلك إسهامًا منهم في خدمة الحق وقول الصدق في تاريخ الحرمين الشريفين ومكانتهما السامية.

وإن دارة الملك عبدالعزيز لتسعد وهي تقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المترجم الذي يحمل عنوان: مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى، كتبه أغسطس رالي، وقدم فيه خلاصة رحلات ستة عشر رحالة من الأجانب الذين قصدوا مكة المكرمة والمدينة المنورة، وسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم وآراءهم التي لا تخلو من زلل لا يخفى على فطنة القارئ، مع اجتهاد المعلقين على الكتاب في التوضيح والبيان.

دارة الملك عبدالعزيز

المحتويات

تقديم ٧

مقدمة التحقيق ١١

بين أوربا والجزيرة العربية ١٥

عالمان متباعدان ١٧

عصر النهضة والكشوف الجغرافية وارتياد المجهول ٢٠

أهداف الرحالة الغربيين ٢٢

مبدأ المعايشة في رحلات الحج الأوربية ٣٤

تقويم رحلات الحج الأوربية إلى الديار المقدسة ٣٦

١ - تقويم الرحلات داخل إطار الحركة الاستعمارية للشرق ٣٧

٢ - تقويم الرحلات داخل حركة الاستشراق ٣٧

٣ - التقويم الإسلامي لدخول الرحالة الغربيين إلى الديار المقدسة ٣٩

٤ - تقويم كتابات هؤلاء الرحالة عن المدينتين المقدستين ٤١

مؤلف الكتاب ٥٤

مراجع الدراسة ٥٥

ترجمة الكتاب ٥٩

مكة المكرمة ٦٠

المسجد الحرام ٦٤

الحج ٦٩

المدينة المنورة ٧٩

لودوفيكو فارتيما (١٥٠٣م) ٨٣
فينسنت لو بلانك (١٥٦٨م) ٩٠
يوهان وايلد (١٦٠٧م) ٩٤
جوزيف بيتس (١٦٨٠م) ٩٩
باديا ليبليخ (١٨٠٧م) (علي باي العباسي) ١٠٥
أولريخ ياسبر سيتْزِن (١٨٠٩ - ١٨١٠م) حاج موسى ١١٩
جون لودفيك بوركهارت (١٨١٤ - ١٨١٥م) (شيخ حاج إبراهيم) ١٢٦
جيوفاني فيناتي (١٨١٤م) (حاج محمد) ١٥٠
ليون روشيه (١٨٤١ - ١٨٤٢م) (حاج عمر) ١٦٥
جورج أوغسطس والين (١٨٤٥م) (ولي الدين) ١٩١
السير ريتشارد بيرتون (١٨٥٣م) (شيخ حاج عبدالله) ١٩٥
إينريك فريهير فون مالتزان (١٨٦٠م) (سيدي عبدالرحمن بن محمد السكيكدي) ٢٢٠
هيرمان بيكنيل (١٨٦٢م) (حاج عبدالواحد) ٢٢٧
جون فْرِايار كين (١٨٧٧ - ١٨٧٨م) (حاج محمد أمين) ٢٣١
كريستيان سنوك هورخرونيه (١٨٨٥م) (عبدالغفار) ٢٤٥
جيرفيه كورتيلمون (١٨٩٤م) (عبدالله) ٢٦٢
متفرقات ٢٧٦
سكة حديد الحجاز (خاتمة) ٢٨٤
الكشاف العام ٢٨٩

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد المرسل رحمة للعالمين وبعد.

تعد مكة المكرمة أول بلد مقدس في الإسلام، ففيها أول الحرمين وثاني القبلتين، وهي مهبط الوحي والتنزيل ومحط أنظار المسلمين، يتوجهون شطرها ويحجون إليها من كل حدبٍ وصوب. فلا عجب أن تهفو إليها قلوب المسلمين والمؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، وتخشع لها نفوسهم، فيتمنون على الله مخلصين أن يمنحهم التوفيق من عنده لزيارتها، ويكتب لهم حج البيت فيها قبل أن يتوفاهم الله إليه، ويفارقوا هذه الحياة الدنيا.

وكيف لا تكون لهذا البلد الأمين مثل هذه القدسية وهذا التبجيل عند المسلمين، وهو عنوان مجدهم وينبوع هدايتهم وعقيدتهم، وكيف لا ترنو إليه الأبصار، وتهفو إليه الأفئدة، وهو الذي تمتزج ذكرياته الحافلة بتاريخهم العريق، وتشتبك أحاسيسه بمجدهم التليد.

فقد كان لظهور الإسلام الذي تفجرت ينابيعه من بطاح مكة المكرمة، ووهادها القاحلة، وللمعجزة الخالدة، التي حققها نبينا محمد ﷺ والمهتدون بهديه في نشر الإسلام بمثل تلك السرعة الخاطفة في الخافقين، صدىً ما زال يرن في الغرب ويدوّي في أرجائه. فراح علماؤه ومستشرقوه يبحثون في كل ما له

علاقة بهذه الدعوة التي اهتدى المسلمون بهديها واستضاؤوا بنورها، فأخذ العالم يدرس أحوال مكة المكرمة التي انبثق منها ذلك النور، ويمحص المؤرخون جميع ما يمت إليها بصلة. وقد بلغ من اهتمام الغربيين بمكة المكرمة أن دخل اسمها في لغتهم وأصبح كلمةً خاصة تدرج في المعجمات لتدل على الجهة التي يتوجه إليها الناس أو يقصدونها أو يجتمعون عندها بصفة دائمة.

ولم يكتفوا بذلك، فقد شد إليها الرحالون الغربيون رحالهم أيضًا، وقصدها السياح والمسافرون منهم فجازفوا بأنفسهم وأرواحهم ليدخلوا فيها ويحجوا إليها متنكرين. وقد حالف التوفيق عددًا منهم، وأخفق كثيرون غير هؤلاء، فتكونت مما كتبوه ودوَّنوه عن تلك الدراسات ثروة علمية يصعب على الباحث أن يحيط بها كلها، خصوصًا وأن ما كتب لم يكن في لغة واحدة من اللغات الغربية الحية وإنما كتب بلغات عدة أخصها الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

ولا يخفى أن الدوافع التي تدفع الغربيين إلى الاهتمام بمكة المكرمة وما يتصل بها من شؤون، أو الكتابة عنها، هي دوافع معروفة، أهمها: الأغراض التنصيرية، أو البحث العلمي، أو المجازفة والتطويح، أو التجسس والأغراض السياسية في الأغلب.

على أننا سنحاول في هذا الكتاب المترجم (مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى) أن نورد نماذج من أهم ما كتب عن مكة المكرمة. ومع أن الكتاب المترجم هو باللغة الإنجليزية، فإن القسم الأكبر منه يعد مترجمًا أيضًا عن اللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية والهولندية فضلًا عن استناد معظم هذه المؤلفات إلى مصادر عربية.

في هذا الكتاب معلومات مهمة عن المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة تشتمل على مشاهدات وملاحظات وانطباعات عدد من

الرحالة الذين وصل عددهم إلى (١٦) شخصًا، في إثر قيامهم برحلات متعددة منذ القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين.

وقد حدا بنا إلى نقل هذا المؤلف إلى لغة الضاد أمران: الأول أنه من حق القارئ العربي أن يعرف ما قاله غيره عن بلاده، والأمر الثاني أن هذه الكتابات لا تمثل موضوعات مهمة في تاريخ المدينتين المقدستين فحسب بل إن في أقوال هؤلاء كثيرًا من الوقائع والحوادث التي لم يكتبها أحد غيرهم، مع الأخذ في الحسبان أن في أقوال بعضهم كثيرًا من التجني ومجانبة الواقع الذي يستدعيه التعصب أو الجهل في بعض الأحيان. وإنه لمن الفائدة أن نأتي بأقوالهم كما أوردوها لتعطي فكرة قريبة من الواقع إن خيرًا أو شرًا عما هو مرتسم عن مكة والمدينة في أذهان الغربيين من مؤرخيهم وسُيَّاحهم وسياسييّهم. فهذه الرحلات وثائق مهمة ترسم صورة للشرق القديم في عيون رحالة غربيين لهم ظروفهم الخاصة. ولا نملك أن نجردهم من عواطفهم، سواء أكان منبع هذه العواطف الحب أم الإعجاب أم الكراهية. وقد لا نكون منصفين عندما نضع جميع هؤلاء الرحالة في زمرة واحدة. والخلاصة العامة أن هؤلاء قدموا معلومات كانت الأولى من نوعها في أوربا في حينها.

هناك بعض الملحوظات على النص الكامل للكتاب الذي نقدم ترجمته الكاملة للقارئ العربي للمرة الأولى وهي:

١ - الصلاة على النبي ﷺ والترضي على الصحابة ووصف مكة بالمكرمة والمدينة بالمنورة، كل ذلك مضاف ولا وجود له في النص الإنجليزي الذي ترجمنا عنه، كما أننا قد استبدلنا بكلمة الوهابية السلفية.

٢ - هناك أشياء ذكرت في هذا الكتاب لا يرضى عنها القارئ المسلم. ولكن يجب أن نبين أن عملًا كهذا يحتم ذكر أشياء لسنا مسؤولين عن كتابتها. فإنّ هناك من الرحالة من لم تعجبه شعائر الحج، وهناك من

لقي معاملة فظة من السكان. وهناك الحاقد والمبغض، وعزاؤنا أن المسلمين يملكون من الثقة بالنفس والإدراك ما يمنعهم من أن يتأثروا بتلك الهفوات. ومن الأمانة القول: إنَّ هناك بعض العبارات النابية أو غير اللائقة في موطنين أو ثلاثة عزفنا عن ترجمتها الحرفية، مع الإبقاء على جوهر المعنى المراد.

٣ - في التعليقات الموجودة في الحواشي إضافات زائدة على النص، لتوضيح فكرة، أو تبيان موقع، أو رد شبهة، أو إبداء وجهة نظر مخالفة. وقد راعينا أن تكون التعليقات مختصرة، وتظهر وجهًا آخر للحقيقة المطروحة. ومن الجدير بالذكر أننا رجعنا إلى المؤلفات الأصلية لهؤلاء الرحالة لمزيد من الدقة، سواء في الترجمة أم التعليق؛ لأن مؤلف الكتاب كان في كثير من المواطن يقدم ملخصات سريعة تخفي وراءها كثيرًا من الحقائق.

٤ - فيما يأتي البيانات الكاملة للطبعة التي ترجمنا عنها:

Christians At Mecca by Augustus Ralli, London, William Heinemann, 1909.

٥ - كان لا بد من عمل دراسة ضافية حول كثير من الحقائق التي ترتبط بموضوعات الكتاب، منها العلاقات العربية - الأوربية، وأثر الاستشراق في هذه الرحلات، وأهداف هذه الرحلات وغاياتها، والوسائل التي اتبعها هؤلاء للوصول إلى الديار المقدسة، ونظرة المسلمين إليها، وأخيرًا تقويم الموضوعات المطروحة في هذه الرحلات. وقد عولجت هذه الموضوعات جميعها بصفتها مقدمة تلقي الضوء، وتنير الطريق بين يدي هذا الموضوع. كما قدمنا تعريفًا موجزًا للمؤلف وآثاره العلمية.

بين أوربا والجزيرة العربية

المعارف القديمة:

لقد كتب الإغريق عن شبه الجزيرة العربية فيما مضى. إذ استقصى هيرودوس مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد من مصر معلومات طريفة عن شبه الجزيرة العربية، وأغنامها الغريبة، وطيوبها الشهيرة، كالبخور والصبر وخيار شنبر، والقرفة والكافور واللادن. وتحدث ثيوفراست تلميذ أرسطو عن السبئيين من سكان جنوب شبه الجزيرة العربية واصفًا إياهم بمحاربين، أو زُرَّاع أو تجار يسافرون على ظهور السفن، أو على زوارق من جلد، ولكن أكثر نشاطاتهم كسبًا كان نقل البخور واللبان الذي تستخرج منه أقوى العطور إلى البلدان المجاورة، وفي مستهل القرن الأول للميلاد رسم المؤرخ اليوناني ديودور الصقلي صورة أكثر حيوية لبلاد العرب، بلاد الطيوب وسكانها من السبئيين المتفوقين على جميع من جاورهم بثرواتهم الطائلة التي يجنونها من التجارة.

لكنَّ السبئيين ليسوا الشعب الوحيد الذي اشتهر في جنوب الجزيرة العربية، فقد تحدث الجغرافي اليوناني سترابون في حوالي مستهل القرن الأول الميلادي عن الشعوب الأربعة المهمة، ناقلًا معلومات كان قد أوردها إيراتوستين الفلكي الإسكندري الذي عاش قبل ذلك بثلاثة قرون. وهذه الشعوب الأربعة هم المعينيون، ويجاورهم السبئيون، ثم القتبانيون ثم الحضرموتيون. وكانت كل مدينة من مدن الممالك خاضعة لزعيم، مزدهرة كل الازدهار، تزينها المعابد والقصور.

ويذكر سترابون أن الإمبراطور الروماني أوغسطوس كان قد وطّد العزم سنة ٢٤ قبل الميلاد على أن يستولي على تجارة القوافل هذه، التي تكسب

سكان الجزيرة الجنوبي من شبه الجزيرة العربية تلك الثروات الأسطورية. فأوعز إلى القائد إيليوس غالوس بقيادة حملة لهذا الغرض، لكن الحملة لم تحقق أهدافها، وأخفقت في السيطرة على التجارة العربية.

لقد كانت شبه الجزيرة العربية - حسب رواية إيراتوستين - تتألف من جزءين كبيرين يختلف كل منهما عن الآخر. ففي الجهات الجنوبية توجد العربية السعيدة، أما في الجهة الشمالية فتقع العربية القفراء، وهكذا نجد أن الناس في مستهل القرن الأول الميلادي كانت لديهم فكرة موجزة عن طبيعة البلاد وسكانها وحضارتهم، غير أنه لم يكن لديهم أية فكرة واضحة عن شكل هذه البلاد، إذ لم يكونوا قد تعلموا آنذاك رسم الخرائط ولم يتمكن الملاحون الإغريق حتى القرن الثاني الميلادي من إعطاء فكرة واضحة عن شكل السواحل الحقيقية للجزيرة العربية.

ونجد في المؤلفات التي وضعت في مستهل القرن الثاني الميلادي عددًا متزايدًا من المعلومات عن داخل البلاد. فقد أورد المؤرخ الروماني (بلين) في القرن الثاني الميلادي لوائح بأسماء القبائل والمدن والقرى في القسم الأوسط لشبه جزيرة العرب، وبرهن عن معرفة أدق بالسكان الحضر منهم والبدو.

وأخيرًا نجد في كتاب بطليموس «الجغرافيا» أطلس حقيقيًا يحتوي على تعليقات وشروح، وتحديد دقيق لكثير من المواقع الجغرافية، وموقعها على خطوط الطول والعرض التي اقترحها آنذاك.

بعد انهيار الحضارة الرومانية ساد أوربا جهل مطبق خلال القرنين الرابع والخامس، ولم يكن لأوربا شيء من المعرفة عن الفرق القديمة بشؤون الجزيرة العربية، اللهم إلا ما حفظ في مكتبات الأديرة والكنائس من بقايا المعرفة الإغريقية القديمة. وما ذكره الكتاب المقدس عن بعض المواقع

العربية، يؤيد ذلك ما قالته جاكلين بيرين صاحبة كتاب اكتشاف جزيرة العرب من أنه ابتداءً من القرن الخامس الميلادي وحتى بداية عصر النهضة لم يكن لأوربا فكرة عن شبه الجزيرة العربية (بيرين ١٩٦٣م: ١٩).

عالمان متباعدان:

كانت المعرفة الأوربية محدودة جدًا بمناطق جنوب البحر المتوسط وشرقه، والذي نشأت حوله أولى حضارات العالم. كان المعروف آنئذ أن أغنياء الإغريق الرومان كانوا يستهلكون يوميًا أفاويه الهند، والكهنة يحرقون بخور بلاد العرب، والجيوش الرومانية تحارب الفرس. والصورة الأوربية باهتة عن الشرق وحضاراته. ومنذ ظهور الإسلام أصبح على جانبي المتوسط حضارتان متباعدتان، بل عالمان متعاديان.

تقدمت الجيوش الإسلامية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق وفارس، وتقدمت شرقًا إلى مشارف الصين. وفي الجناح الغربي فتحت جيوش الإسلام مصر وشمال إفريقية، واتجهت من هناك شطر إسبانيا وصعدت حتى نهري الرون واللوار، وهناك تمكن شارل مارتل من إيقاف زحف الجيوش الإسلامية في بواتييه سنة ١١٤هـ (عام ٧٣٢م) واضطرها إلى التراجع، وكانت تلك نقطة الحدود التي لم تتخطها فيما بعد.

لقد وضعت موجة الفتح المتدفقة فاصلًا ماديًا بين أوربا وبلاد العرب، وقد أنشأ العرب خلال القرون التي تلت الفتوحات في دولتهم التي كانت تضم إسبانيا حضارة باهرة فاتنة ليس بأبهتها، بل بازدهار العلم والفكر أيضًا، وهذا حدا بالأوربيين إلى ارتياد جامعاتهم والنهل من معارفهم، ومع هذا لم تتسع معارف أوربيين عن جزيرة العرب بقدر اتساعها عن المناطق المحيطة بها، كبلاد الشام ومصر والمغرب.

بلغت الحضارة الإسلامية أوجها بين القرنين الثاني والخامس الهجريين/ الثامن والحادي عشر الميلاديين، وكانت هذه المدة استراحة فاصلة في العلاقات الإسلامية الأوربية، ومدة فاصلة بين تدفق الموجتين المتعاكستين من الصراع، والموجة الدافعة بالإسلام إلى غزو الغرب، ونشر الإسلام في ربوعه، والموجة الغربية المعاكسة للقضاء على الإسلام، واستعادة قبر المسيح عليه السلام والأماكن المقدسة، فيما عرف باسم الحملات الصليبية.

لا يهمنا من موضوع الصراع الصليبي سوى معرفة مدى تأثيره في المعرفة الأوربية بالجزيرة العربية. فهل أتاح الغزو الصليبي اتصالًا مباشرًا بشبه الجزيرة العربية، المجهول الغامض لدى الفرد الأوربي؟ لقد أقام الصليبيون مملكة بيت المقدس، واستولوا على المناطق الممتدة من أنطاكية شمالًا حتى الشوبك والعقبة جنوبًا، وخلال القرن الثاني عشر الميلادي سنة ٥٧٧هـ (عام ١١٨١م) حاول الأوربيون الوصول إلى قلب الجزيرة العربية على يد رينولد دي شاتيون أمير الكرك الصليبي الذي أثاره ما كان يسمعه عن الكنوز المكدسة حول قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة، فقام بتجاوز حدوده، ودخل الجزيرة العربية غير مكترث بالمعاهدات التي كانت تربط مولاه ملك بيت المقدس الصليبي بصلاح الدين الأيوبي أمير الشام ومصر آنذاك.

تقدم رينولد، سيد الكرك الذي وصفه أحد المؤرخين الفرنسيين (رين غروسه) «بالفارس قاطع الطريق، الذي تنم ملامحه على التوحش، والذي يمثل الطبقة الإقطاعية الدموية السلاّبة في الغرب، والذي تحول في الشرق إلى بدوي فرنسي، لا يفهم الحرب إلا في سبيل الغزو... » إلى القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية المجاور لتخوم إمارته، قاصدًا المدينة المنورة، ولم يتمكن من بلوغ المدينة، فاعترض قافلة مسلمة متجهة من دمشق إلى مكة، وسلبها كل ما كانت تحمله. ولم يكتف بذلك، بل احتل بعض المواقع على خليج العقبة، ونقل إليها على ظهور الجمال سفنًا مفككة، أعاد تركيبها فيه،

وأبحر في البحر الأحمر جنوبًا، ووصل إلى أحد شواطئ الحجاز، واستعد للزحف على المدينة المنورة.

غير أن صلاح الدين الأيوبي نقل بالطريقة نفسها بعض السفن المفككة من مصر إلى البحر الأحمر، وقام قادته بهجوم معاكس على سفن رينولد وحطموها، ثم تولت الجيوش البرية مهاجمة الفرنجة المتوجهين إلى المدينة، وقُضي على معظمهم، وأعدم في مكة والمدينة والقاهرة ودمشق الـ (١٧٠) جنديًا الذين نجوا من الموت في المعركة. وهكذا ظلت شبه الجزيرة العربية مصونة الحمى، بعيدة عن الأيدي الأوربية.

جاء الفتح العثماني للبلاد العربية في مطلع القرن السادس عشر، وبسط الخلفاء العثمانيون سلطانهم على معظم البلدان الإسلامية بما فيها الجزيرة العربية، غير أن سلطانهم كان اسميًا. وبما أن الأتراك قد اعتنقوا الإسلام فقد ظلت إمبراطوريتهم بالنسبة إلى الأوربيين عالمًا مغلقًا معاديًا، شأنه شأن الدولة الإسلامية، ووقفت أوربا والإسلام وجهًا لوجه بصفتهما عالمين كل منهما غريب عن الآخر، يتعذر تداخلهما ماديًا وروحيًا. وأسدل ما بين أوربا الناشئة وشبه جزيرة العرب ستار كثيف من الجهل الشديد.

غير أن الاهتمام بالتبشير بالإنجيل في بلاد الحبشة المسيحية المقابلة لشبه الجزيرة العربية كان قد حدا بالبابا يوحنا الثالث إلى أن يرسل إليها الراهب الدومينيكي (غليوم آدم) الذي يرجح أنه كان فرنسيًا، فتمكن من مسايرة حدود شبه الجزيرة العربية. فقد توجه هذا الراهب إلى مضيق هرمز في مدخل الخليج العربي ومنه إلى عدن حيث مكث سنتي: ٧١٣ - ٧١٤هـ (١٣١٣ و١٣١٤م)، ثم أبحر نحو جنوب إفريقية قبل عودته إلى فرنسا، وهذه الحالة النادرة تؤلف الشذوذ المثبت للقاعدة، والمبين للجهل المطبق الذي كان يتخبط فيه الأوربيون فيما يختص بشبه الجزيرة العربية.

لقد كان كل ما يعرفه الأوربيون أن النبي محمدًا ﷺ ولد في شبه الجزيرة العربية، وأن اسم المدينتين المقدستين فيها مكة والمدينة، وكان يسود اعتقاد خاطئ بأن جثمان النبي محمد ﷺ معلق في الهواء في معبد مكة. ولم تكن أي سفينة أوربية تزور سواحل شبه الجزيرة العربية، ولم يكن يدخلها أي مسيحي إلا إذا اعتنق الإسلام، وتخلَّق بأخلاق العرب وساكَنَهم، وهكذا بدت شبه الجزيرة العربية عالمًا مفقودًا بالنسبة إلى الأوربيين، عالمًا يستثير الشوق أكثر من قارة مجهولة، ليس لأن فيها بقاعًا يجب استكشافها ولا علم لأوربا بشكلها وحقائقها، بل لأنها كانت تمثل إطارًا لحضارة مجهولة للأوربيين، ولَّدت الرغبة لديهم في اكتشافها من جديد.

عصر النهضة والكشوف الجغرافية وارتياد المجهول:

اضطرمت في أوربا نار حب الاطلاع والمعرفة والاكتشاف في أواخر القرن الخامس عشر، فأخذت تتقوى وتوحد صفوفها، وتفكر وتتعلم، وتجوب البلاد، وتكشف الأمصار، حتى كان كشف أمريكا عملًا من أعمال إسبانيا، والدوران حول إفريقية وكشف طريق الهند عملًا من أعمال البرتغال.

لقد كان لهذه الكشوف عدة دوافع، منها معرفة الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة، وكذلك لتطويق العالم الإسلامي استمرارًا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد. كانت إستراتيجية البرتغال - على سبيل المثال - هي البحث عن طريق تجعل البضائع تصل مباشرة من الهند والصين وإندونيسيا دون المرور بالخليج العربي، والبحر الأحمر، ثم عبر الدول الإسلامية المحيطة بتلك الطرق البحرية التي استمدت قوتها من هذه التجارة. فقد كان ذلك مصدر القوة الاقتصادية والسياسية للبلاد الإسلامية في تلك الحقبة.

في القرن الخامس عشر ما زالت البرتغال وإسبانيا تحاربان المسلمين في الأندلس، وأصبحت البرتغال قائدة المسيحية ضد الإسلام، وكانت محاربة

المسلمين عند المتدينين والوطنيين من شعب إيبيريا واجبًا مطلقًا، ومركبًا ذا قوة متعادلة بين الواجب الديني والوطني.

يقول بانكر (Pannikar): «الإسلام هو العدو الوحيد، ويجب محاربته في كل مكان، ولا يمكن فهم الكثير من نشاطات البرتغاليين في آسيا إلا من خلال هذا المفهوم.... لم يكن التوسع الأوربي في المياه الآسيوية بمنزلة تقدم حضاري كما صوره بعض المؤرخين، ولا بمنزلة لعبة يحركها التجار الأذكياء من وراء الستارة، وإنما هي محاولة للحد من السيطرة البحرية للدول الإسلامية الواسعة الانتشار في الشرق الأوسط». لقد دخل الأسطول البرتغالي في عدة معارك مع الأسطول المملوكي الذي يمثل قوة المماليك في مصر والشام، وذلك في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي (١٥٠٠م) ثم في سنة ٩١٥هـ (عام ١٥٠٩م)، ولقد أحرز البرتغاليون النصر في هذه المعارك، ثم حاصروا عدن وجزيرة سقطرى ومضيق هرمز، ثم احتلوا غوا على ساحل الهند، ووصلوا إلى ملقا في جزر الهند الشرقية.

لقد استشهد هذا المؤرخ - بانكر - الذي كتب عن نشاط الأوربيين في آسيا مدة (٤٥٠) عامًا، بقول البوكيرك أحد القادة البرتغاليين الذي تلا وصول فاسكودي جاما إلى الهند أمام جيشه في ملقا: إنه بإبعاد المور (المسلمين) عن تجارة البهارات يأمل البرتغاليون اختراق قوة المسلمين. إن الخدمة التي سنقدمها لربنا بطرد المور هي إطفاء نار دين محمد، ولن تنتشر تلك النار بعد ذلك أبدًا، أنا واثق جدًا أننا إذا استولينا على التجارة من هؤلاء المور ستتحطم القاهرة ومكة والبندقية (كانت البندقية من أعداء البرتغال)، ولن يحصلوا على البهارات إلا إذا ذهب تجارهم واشتروها من البرتغال (Pannkar, p. 40).

لقد أيقظت الكشوف الجغرافية العقول الأوربية، فأخذت تتساءل عن كل شيء في هذا العالم، عن الشعوب والعادات، ولم يكتف رحالات عصر

النهضة بالاطلاع على ما وجد في الكتب، بل حاولوا التحقق عن طريق الرؤية والمشاهدة. وهذا ما حدا بكثير منهم إلى دخول الشرق، واكتشاف أسراره الغامضة بالنسبة إليهم. ومن هنا بدأت الحكومات بتمويل الرحلات العلمية إلى مختلف مناطق العالم، وخاصة دول الشرق الإسلامي.

لقد تزامنت أول رحلة إلى مكة سنة ٩٠٩ - ٩١٥هـ (عام ١٥٠٣ - ١٥٠٩م) مع رحلة فاسكو دي جاما للدوران حول إفريقية، ومحاولة الوصول إلى الهند، وبينما كان أول رحالة أوربي (فارتيما) يبحر من البندقية قاصدًا بلاد العرب كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية، وتقصف المدن الساحلية على طول الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

أهداف الرحالة الغربيين:

لقد ذكر المؤلف (١٦) شخصية أوربية دخلت مكة المكرمة، بين سنتي ٩٠٩هـ (١٥٠٣م) و١٣١٢هـ (١٨٩٤م) (انظر الجدول رقم ١) وكانت رحلتان منهما قد تمتا خلال القرن السادس عشر، أولهما رحلة لودوفيكو فارتيما في بداية القرن عام ١٥٠٣م، والثانية في بداية النصف الثاني منه وهي رحلة فينسنت لو بلانك سنة ٩٧٦هـ (١٥٦٨م). وقد شهد القرن السابع عشر رحلتين أخريين، قام بالأولى منهما يوهان وايلد سنة ١٠١٦هـ (عام ١٦٠٧م)، بينما الرحلة الأخرى كانت في الربع الأخير منه، وهي رحلة جوزيف بيتس سنة ١٠٩١هـ (عام ١٦٨٠م).

ونستطيع القول: إنه حتى حلول القرن الثامن عشر لم تكن أوربا قد وجهت اهتمامًا إلى غرب الجزيرة العربية، ولم تكن لديها معلومات متوافرة حول منطقة الحجاز إلا من خلال كتب الجغرافيين المسلمين التي ترجمت إلى اللغات الأوربية وبعض كتب الرحالة الأوربين، وما عدا ذلك فالمعلومات يسيرة أو معدومة باستثناء سواحل البحر الأحمر التي كانت معروفة للأساطيل

الأوربية، وخاصة الإنجليزية بحكم ارتيادها موانئ البحر الأحمر في طريقها إلى الهند.

إلا أنه بحلول القرن التاسع عشر انصب اهتمام أوربا بهذه المنطقة، ووجهت الرحلات المتعددة لاستكشاف المدن المقدسة في الحجاز، حتى إنه خلال هذا القرن تمت اثنتا عشرة رحلة قام بها أوربيون من مختلف مناطق القارة إلى الديار المقدسة تحت أسماء إسلامية.

الجدول رقم (١) الرحالة الذين زاروا مكة المكرمة بين عامي ١٥٠٣ و١٨٩٤م

الرقم	الاسم بالعربية	الاسم باللاتينية	سنة الزيارة
١	لودوفيكو فارتيما (الحاج يونس)	Ludovico Bartema	١٥٠٣م
٢	فينسنت لو بلانك	Vincent Le Blanc	١٥٦٨م
٣	يوهان وايلد	Johann Wild	١٦٠٧م
٤	جوزيف بيتس	Joseph Pitts	١٦٨٠م
٥	باديا ليبلخ (علي باي العباسي)	Badia Y. Leblich	١٨٠٧م
٦	أوليريخ ياسبر سيتزن (الحاج موسى)	Ulrich Jasper Seetzen	١٨٠٩-١٨١٠م
٧	يوهان لودفيج بوركهارت (الحاج إبراهيم)	John Ludwig Burckardt	١٨١٤-١٨١٥م
٨	جيوفاني فيناتي (الحاج محمد)	Giovanni Finati	١٨١٤م
٩	ليون روشيه (الحاج عمر)	Leon Roches	١٨٤١-١٨٤٢م
١٠	جورج أُوغسطس والين (ولي الدين)	George Augustus Wallin	١٨٤٥م
١١	ريتشارد بيرتون (الحاج عبدالله)	Sir Richard Burton	١٨٥٣م

الرقم	الاسم بالعربية	الاسم باللاتينية	سنة الزيارة
١٢	إينريك فون مالتزان (عبدالرحمن بن محمد السكيكوي)	Heinrich Freiher Von Maltzan	١٨٦٠م
١٣	هرمان بيكنل (الحاج عبدالواحد)	Herman Bicknell	١٨٦٢م
١٤	جون فرايركين (الحاج محمد أمين)	John Fryer Keane	١٨٧٧- ١٨٧٨م
١٥	كرستيان سنوك هورخرونيه (عبدالغفار)	Christian Snouk Hurgronje	١٨٨٥م
١٦	جيرفاس - كورتيلمون (الحاج عبدالله)	Gervas - Courtellemont	١٨٩٤م

ونستطيع القول: إن هذا الاهتمام المتزايد بشبه الجزيرة العربية عمومًا يرجع إلى عدة أمور، أهمها:

١ - حملة نابليون على مصر التي برهنت للغرب ما لهذه المنطقة من أهمية سياسية، حيث تم بعد مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر فتح البحر الأحمر للملاحة الأوربية.

٢ - ظهور الحركة الإصلاحية التي كان لها الفضل في لفت أنظار العالم إلى الجزيرة العربية، بما خلَّفته من تغييرات على المستويين الديني والسياسي، إضافة إلى الأحداث العسكرية التي كانت لها أصداء واسعة. وقد نبه ذلك المستشرقين إلى الكشف عن أحوالها.

٣ - الحملة المصرية التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر، في أن أصبحت الجزيرة العربية في دائرة الضوء للأوربيين وميدانًا لتنافسهم سياسيًا.

الرحلات الأوربية هي امتداد لحركة الاستشراق والمستشرقين. والاستشراق بحد ذاته هو من تراث الإمبراطوريات الغربية التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى، وحتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة، ونادرًا ما حادت عن أهدافها السياسية بالإضافة إلى الأهداف العلمية. يقول أحد العلماء البريطانيين: «إن التعاون الوثيق بين الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ووزارة الحرب البريطانية مكَّن من القيام بعدد من الرحلات السرية بهدفٍ مزدوج جغرافي - أكاديمي. وهذا الهدف المعلن المقنع للآخرين كان المسوغ لأنْ يباشر الضباط ذوو المهام الخاصة رحلاتهم. وهذه هي الوسيلة التي استخدمتها جميع الدول الكبرى لتحقيق أهدافها». (الفارس، ٢٠٠٠م: ٦).

لم يكن من الشائع أن يتحدث الرحالة عن الأسباب الحقيقية التي تدفعهم إلى ركوب مثل هذه المغامرات، ولذلك كان لا بد من غطاء لمثل هذه الرحلات التي تهدف في الأغلب إلى جمع المعلومات، ودراسة عادات الشعوب وأحوالهم المعيشية والسياسية، فيستفيد من هذه الدراسات مختصون ينتمون إلى مجتمعات متطورة تملك القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية. فالرحالة الغربي يُرسَل لجمع المعلومات والأخبار، وليُدوِّن المشاهدات لمصلحة بلاده، أو الجهة التي أوفدته «إن مفهوم الرحلة بصفتها وسيلة لجمع المعلومات وتسجيلها أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية من القوة السياسية، فالرحالة يبدأ رحلته وتكون وراءه أمة ذات سلطان، تدعمه بنفوذها العسكري والاقتصادي والروحي». (القباني، ١٩٨٨م: ١٣-٢٠).

إن الدراسة المتعمقة للظروف والملابسات التي تتم بها الرحلات يمكن أن تساعدنا على فهم بعض الأهداف الخاصة التي كان يطمح هؤلاء

الرحالة إلى الوصول إليها وتحقيقها لخدمة مصالح الدول المختلفة التي قدم منها هؤلاء الرحالة، أو التي عملوا لحسابها. وفي استعراض الرحلات التي تمت إلى الديار المقدسة يمكن رؤية المصالح التي كانت يطمح إليها عدد من الدول الأوربية، ابتداءً من إسبانيا والبرتغال غربًا مرورًا ببريطانيا وفرنسا وألمانيا وانتهاء بروسيا شرقًا.

أما الأهداف المعلنة لهذه الرحلات فهي كثيرة ومتعددة، إذ يقول هؤلاء الرحالة: إنهم جاؤوا للاستكشاف والسياحة، ولتعلم اللغة العربية، وجمع المخطوطات الإسلامية، والبحث عن الآثار، وزيارة الأماكن المقدسة، وشراء الخيول العربية الأصلية، والبعد عن الحياة الأوربية الصاخبة، والاستمتاع بدفء بلاد الشرق وسحرها.

لقد جاء هؤلاء من معظم العواصم الأوربية، وتحت كل الذرائع، غير أن هناك خيطًا واحدًا يجمع معظم هؤلاء جميعًا، هو خدمة مصالح بلادهم السياسية، ودراسة أفضل السبل التي تُمكِّن دول هؤلاء الرحالة من إيجاد مواطئ أقدام لها في الجزيرة العربية.

قال فارتيما (وهو أول رحالة أوربي تطأ قدماه مكة المكرمة): «لو أنني سُئلت عن السبب في رحلتي هذه، لما قلت أكثر من أنها الرغبة الجامحة في المعرفة، وهي الرغبة نفسها التي دفعت كثيرين غيري لمشاهدة العالم وعجائب الخالق. ولأن كثيرًا من أجزاء العالم قد زارها غيري، كان عزمي أن أزور وأصف البلاد التي لا نعرف عنها بما فيه الكفاية». بهذا الهدف المعلن بدأ كتاب رحلات لودوفيكو فارتيما الذي قدم نفسه للناس في الحجاز واليمن وعدن بأنه الحاج يونس المصري، وفي الهند الحاج يونس العجمي.

إن معرفة الظروف التاريخية التي تمت خلالها هذه الرحلة أمر ضروري. فقد كان لأوربا في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر

أهداف خاصة لإعادة تقويم معارفها عن العالم الإسلامي، وكذلك إعادة ترتيب أوراقها لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أسباب عملية ملحة، تلح على الأوربيين لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة في العالم الإسلامي خاصة. ولقد تزعَّم تلك الحركة الإسبان والبرتغاليون. وكان فارتيما يعمل لحساب ملك البرتغال الذي موَّل رحلته، والذي قدَّم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسية، وضمه إلى جيوشه المحاربة أحيانًا. لذلك فبعض المصادر تشير إليه بأنه رحالة برتغالي تمامًا، مثل كولمبس الذي تعارف الناس أنه رحالة إسباني، مع أنه من أصول إيطالية، والواقع أن فارتيما لم يكن فيه من إيطاليا سوى أنها موضع مولده، ومصدر لغته، أما فيما عدا ذلك فهو برتغالي يعمل لمصلحة الحكومة البرتغالية. (رحلات فارتيما الحاج يونس المصري، ١٩٩٤م: ١٠).

وإذا كانت رحلة فاسكودي جاما قد انتهت باكتشاف الطريق إلى الهند الذي كان يحتكره المسلمون، فإن مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيدًا، فقد كان مكلفًا بوصف عادات الشعوب، وكتابة تقارير عن جيوشها، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، خصوصًا ذات القيمة التجارية العالمية، وباختصار كانت مهمة فارتيما التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعات التي مر بها، خاصة الإسلامية منها. (رحلات فارتيما الحاج يونس المصري، ١٩٩٤م: ٩).

أما شخصية باديا ليبلخ (علي باي العباسي) فهي شخصية محاطة بالألغاز. ومما يعيننا على رسم المعالم العامة لأهدافه وغاياته التعرف إلى سلوكه قبل الترحال وبعده، فعلي باي تعلم العربية والعلوم في الأندلس، وعندما كان في لندن عام ١٨٠٢ م ناقش أعضاء الجمعية الإفريقية في إمكانية اكتشاف القارة. وفجأة يبدأ الترحال تحت اسم مستعار وهو يملك ثروة طائلة. فيبدو تارة أنه كان يعمل لحساب إسبانيا، وعلى الأرجح انه كان يعمل لحساب

نابليون الذي بدأ يهتم بالعالم الإسلامي استعدادًا لغزوه، خصوصًا أن نابليون كان يخطط لاحتلال الشاطئ الجزائري بهدف إقامة مستعمرات في شمال إفريقية لزراعتها بالحبوب لإمداد جيوشه بالتموين منها. وعندما دخلت فرنسا الحرب مع روسيا سنة ١٢٢٠هـ (عام ١٨٠٥م) ازدادت قناعة نابليون بفكرة غزو الجزيرة العربية. والخلاصة أن على باي العباسي كان عضوًا فاعلًا في خطة دولية، كانت تحاك للمنطقة في ذلك الوقت. ومما يؤكد ارتباط هذا الرحالة بمثل تلك الخطط أنه عندما عاد إلى أوربا استقبله الإمبراطور نابليون. والتقاه أكثر من مرة، وعمل مع أخيه جوزيف بونابرت، ووضع نفسه في خدمته. وعرف في فرنسا باسم الجنرال «باديا» وقد حاول العودة إلى مكة ثانية سنة ١٢٣٤هـ (عام ١٨١٨م) لكنه مات جنوب دمشق، وعندما جهز للدفن وجرد من ثيابه وجد متوشحًا بالصليب. وتشير بعض المصادر الفرنسية إلى أنه قتل مسمومًا بيد المخابرات البريطانية، لأن الرحالة الجواسيس كانوا يتحاربون، ويكيد بعضهم لبعض في بعض العواصم الشرقية. (الفارس، ٢٠٠٠م: ١٨ - ١٩) وكذلك (بدول ١٩٨٩م: ٣٢ - ٣٤).

في الوقت الذي غادر علي باي العباسي القاهرة إلى الحجاز في شوال سنة ١٢٢١هـ (ديسمبر عام ١٨٠٦م) كان رحالة آخر يحاول الانطلاق من العاصمة المصرية إلى الحجاز في هدف مشابه، إنهم هذه المرة الروس، مع أن اسم موفدهم يوحي بأنه ألماني الأصل، كان ذلك هو أوليريخ ياسبر ستيزن الذي كان في التاسعة والثلاثين ويحمل من الكفاءات المعلمة أكثر من أي رحالة أوربي فقد درس الطب وعلم النبات والهندسة المدنية وهندسة المناجم، بالإضافة إلى اللغة العربية، وقد أطلق سيتزن على نفسه لقب مستشرق، لكن مهمته الحقيقة كانت إرسال التقارير إلى القيصر الروسي عن الوضع العسكري في آسيا الوسطى التي وقفت في وجه التوسع الروسي، ومن أجل أن يعطي تلك الرحلة المصداقية المطلوبة جاء إلى مكة المكرمة مدعيًا تأدية فريضة

الحج، وقد استطاع التسلل إلى مكة المكرمة، ثم إلى المدينة المنورة في سنة ١٢٢٤هـ (عام ١٨٠٩م) حيث اعتقل وطرد إلا أنه عاد إلى مكة المكرمة ليجمع معلومات عن القيادات الفكرية في المجامع الإسلامية، ثم غادر إلى اليمن حيث مات بالسم للاشتباه بأنه جاسوس.

ذهب لودفيغ بوركهارت السويسري الجنسية إلى الجزيرة العربية، وسافر لحساب الجمعية الجغرافية الإفريقية، وهي الجمعية التي تسعى إلى اكتشاف قلب إفريقية، كانت تمولها إدارة المستعمرات البريطانية لغرض التعرف إلى المناطق قبل محاولة احتلالها واستعمارها. غير أن بوركهارت لم يصل إلى إفريقية الغربية، بل بقي في الشرق العربي ينتقل في أرجائها بصفته مسلمًا.

لقد خدم هذا السويسري القادم من بلاد الساعات وضبط الثواني التاج البريطاني بكتاباته التي تميزت بالدقة المثيرة. فعندما وفد البريطانيون غازين ومستعمرين وجدنا بين أيدي مخابراتهم مذكرات بوركهارت وأوراقه عن المنطقة وسكانها.

تدخل قصة ليون روش أحد مشاهير الرحالة إلى الجزيرة العربية، هاجر إلى الجزائر في شبابه، وعمل ضابطًا في الحرس الوطني، وبعد ذلك أصبح مترجمًا في الحملة الفرنسية ضد الزعيم الوطني عبدالقادر الجزائري، وقد نمت لدى روش موجه إعجاب شديد بالزعيم الوطني. وما لبث أن اعتنق الإسلام من أجل أن «يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية، ثم التحق بمعسكر عبدالقادر الجزائري مدةً، وعندما بدأ عبدالقادر الجزائري الاستعداد لحملة على الفرنسيين تردد روش وامتنع، وترك معسكر الأمير، ثم ذهب إلى باريس، وانضم إلى موظفي الدولة، وعادت إليه أحلامه بالجمع بين الجزائر وفرنسا، وهكذا وضع مشروع فتوى في هذا الشأن وذهب إلى جامعة برقة في ليبيا

لكي يطلب إلى العلماء المسلمين التصديق عليها فأحالوه إلى علماء الأزهر الذين قالوا له إن مجلس العلماء في مكة المكرمة وحده هو الذي يستطيع التصديق عليها، لذا سافر إلى مكة بتكليف من حاكم الجزائر الذي رأى أن في هذه الفتوى ما يجعل الاستقرار في الجزائر للسلطات الفرنسية أمرًا ممكنًا. ثم رأى روش أن الطريق الوحيد إلى الهرب هو الانتماء إلى سلك الرهبنة، فذهب إلى روما وانضم إلى اليسوعيين، إلا أن الفرنسيين لم يقبلوا استقالته، وأقنعوا بابا روما بعدم قبوله. وهكذا عاد إلى الجزائر وأنهى حياته سفيرًا لفرنسا في اليابان.

كانت نجد قد ردَّت جيوش محمد علي واستقلت بعد معركة الإمام تركي بن عبدالله آل سعود الشهيرة مع المصريين، وكان لا بد من مراقبة أحوال نجد. لقد كان الفنلندي جورج أُوغسطس والين المولود في خليج بوثينيا قد درس العربية في مدرسة سان بطرس لمدة عامين، ثم تخرج طبيبًا من معاهد المدينة. وقد وصل إلى القاهرة في سنة ١٢٦٢هـ (عام ١٨٤٥م)، حيث عاش بصفته مسلمًا لمدة عام، ثم ذهب إلى الأزهر لتلقي العلوم. هناك تقرب منه أحد موظفي وزارة الخارجية المصرية وعرض عليه أن يمول رحلته إلى الجزيرة العربية لقاء تزويد الحكومة المصرية بالتقارير عن الأوضاع السياسية في نجد. أما الغطاء الذي اتفق أن يسافر تحته فهو تجارة الخيول. وهكذا غادر القاهرة، وعبر سيناء، ثم اتجه شرقًا عبر الصحراء السورية ومنها إلى الجوف بوابة النفود، ثم تقدم إلى حائل. قرر بعدها الذهاب إلى الرياض، لكن أمواله نفدت. فانضم إلى قافلة من إيران ذاهبة إلى مكة المكرمة، ثم عاد إلى القاهرة، ليقرر السفر بعدها مرة ثانية إلى الجزيرة غير أنه أن لم يوفق في الوصول إلى الرياض، فعاد إلى فنلندا في عام ١٨٥٠م، حيث عين أستاذًا للغات الشرقية في جامعة هلسنكي فأمضى عامين في عمله ثم راح يستعد مرة ثالثة للسفر

إلى الرياض، لكنه توفي قبل أن ينهي الاستعدادات لذلك (عطا الله، ١٩٩٤م: ٧٢).

لم يكن من الصعب في بريطانيا سيدة العالم في القرن التاسع عشر العثور على من يمول رحلة حسنة التخطيط. وفي العام ١٨٥٢م عرض بيرتون خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية «بهدف إزالة ذلك العائق المعيب أمام المغامرة الحديثة، تلك البقعة البيضاء الضخمة التي لا تزال على خرائطنا تغطي الأجزاء الشرقية والوسطى من شبه الجزيرة العربية» كانت الخطة الأساسية تفضي بالإبحار إلى مسقط، ومنها عبور الربع الخالي حتى الوصول إلى مكة والمدينة. وقررت الجمعية تمويل الرحلة، لكن شركة الهند الشرقية رفضت السماح له بالقيام بها بحجة أنها بالغة الخطورة، فقرر التوجه إلى المدينتين المقدستين مباشرة، ثم يعود بعدها إلى الهند.

ويكفي أن نذكر أنه كان في أثناء وجوده في مكة المكرمة والمدينة المنورة يتسلل بين صفوف الحجاج الأفغان للتجسس عليهم، والاطلاع على حقيقة مشاعرهم نحو الجيش البريطاني الذي كان يحتل الهند وما حولها. كان قد اقترب منه رجل هندي في مكة بعد أن ظن أنه أفغاني حقًا وأسرَّ إليه بدافع من التعاضد الوطني خبر الإعداد لانتفاضة شعبية ضد الإنجليز في الأقاليم الهندية، فما كان من بيرتون إلا أن أسرع وأرسل برقية إلى القيادة البريطانية ينبهها إلى ما يعده الوطنيون الهنود ضدها. (القباني، ١٩٨٨م: ١٤٢).

وسط ذلك لم ينس بيرتون أن يحلم بأن يمتد الحكم البريطاني إلى الجزيرة العربية ولذلك قدم اقتراحات كثيرة حول اكتساب البدو وحفزهم إلى خدمة الإمبراطورية حيث يمكن أن يُكوِّنوا فرقة ممتازة من المشاة. وباختصار كان بيرتون إمبرياليًا بلا حدود، يسعى إلى خدمة إمبراطوريته، ورفعة شأنها، وزيادة مستعمراتها.

لقد وصف بعضهم بيرتون بأنه: «الذي تنازعته مشاعر وأهداف كثيرة من الإمبريالية إلى الوصولية إلى الشغف بما رأى، غير أنه يضع دائمًا مصالح التاج البريطاني فوق كل اعتبار».

كان هناك ظاهرة مهمة في الوسط الإندونيسي في أثناء حكم الاستعمار الهولندي لها. هذه الظاهرة تتمثل في أنه في إثر موسم حج كل عام، وبعد عودة الحجاج الإندونيسيين إلى جزر الهند الشرقية تزداد المقاومة الوطنية للحكم الهولندي، ويزداد المتمردون على السلطة الهولندية، وتكثر الثورات في جميع الجزر الإندونيسية، وقد أدرك المستعمر الهولندي أن هناك سرًا ما موجودًا في مكة يساعد على الثورة في إندونيسيا، لذا رأت الحكومة الهولندية أن تتعرف إلى واقع الحياة في مكة وتأثيراتها في الجزر الإندونيسية. وقد وجدت في إحدى موظفيها ومدرسيها، وهو سنوك هورخرونيه الضالة المنشودة لتحقيق هذا الهدف، لذا أرسلت إلى مكة سنة ١٣٠٣هـ (عام ١٨٨٥م) الدكتور سنوك، وكانت الأهداف المعلنة لرحلته إلى مكة التعرف إلى حياة المسلمين، وحقيقة الدين الإسلامي.

لقد كان هذا الهدف هو المعلن. أما الأهداف الخاصة فكانت دراسة أثر الحج في حركات التمرد الإندونيسية. لقد كانت الرحلة مخططة من قبل الحكومة الهولندية وكانت بترتيب وتمويل من معهد تدريب الموظفين الهولنديين الذين يُرسَلون للعمل في إندونيسيا. وقد رتبت لهذه الرحلة القنصلية الهولندية في جدة، وقد سافر سنوك بصحبة القنصل الهولندي، وسكن في القنصلية الهولندية في جدة قبل ذهابه إلى مكة. (مرزا والسرياني، ٢٠٠٤م: ٢).

تكمن الأسباب الحقيقية لرحلة كورتلمون إلى مكة في أنه سافر من أجل جمع معلومات عن الظروف التي يعيش فيها الحجاج المغاربة القادمون

من منطقة السيطرة الفرنسية ودراسة الأثر الروحي الذي يحدثه الحج في نفوس الحجاج بعد عودتهم إلى بلدانهم. ويبدو أن أهداف كورتلمون لا تختلف كثيرًا عن أهداف سابقه ليون روشيه، فكلاهما كان مكلفًا بمهمة جمع أكبر قدر ممكن من الوثائق عن الحج والحجاج الجزائريين (جيل - جرفيه كورتلمون، ٢٠٠٢م: ٦ - ٧). لقد منح على عمله هذا وسام درجة فارس جوقة الشرف. ومما قيل في حفلة التكريم: «لقد كلف بمهمة رسمية في الجزيرة العربية، وقد أنجزها في ظروف صعبة ومحفوفة بالمخاطر بشجاعة ومهارة، وقد حمل من رحلته إلى مكة المكرمة وثائق ومعلومات ثمينة». (جيل - جرفيه كورنلمون: ٢٠٠٢م: ٢٥).

يقول كورتلمون: عرضت مشروع سفري إلى مكة على السيد كومبون حاكم الجزائر فأبدى اهتمامًا كبيرًا بالمشروع، خصوصًا أن الحج كان يمثل أحد اهتماماته، والفرص التي أتيحت للحصول على معلومات تتسم بالصدق والموضوعية عنه نادرة. إذ لم يتمكن أي فرنسي بعد ليون روش من الدخول إلى المدينة المقدسة؛ أي منذ سبع وخمسين سنة. علمًا بأن هناك قضايا كبيرة تتعلق بالنظافة الصحية، وقضايا تجارية، وقضايا أخرى كثيرة تهم الإدارة الجزائرية.

كانت الحكومات سواء المدنية أم العسكرية منذ سنة ١٢٤٦هـ (عام ١٨٣٠م) مشغولة بإجراءات المراقبة والحماية والتنظيم المتعلقة بالحج. فما دام منع الناس من أداء الحج أمرًا غير ممكن، فإنها ترى أن تنظيمه يجب أن يطور نحو الأحسن.

استقبل السيد كومبون مشروعي بترحيب كبير محذرًا إياي في الوقت نفسه من المخاطر والمفاجآت. وقد سلَّم لي جواز سفر باسم عربي، وقد رغب الحاكم العام في تكليفي بمهمة خاصة لدى الشريف

الأكبر، والسلطات الدينية في مكة المكرمة ولكن على مسؤوليتي الكاملة.

ومن المؤكد أن المهمة المتواضعة التي كلفت بها لا يمكن أن توازن بتلك التي كلف بها سابقي ليون روش، وأنجزها خير إنجاز بكل حكمة وتعقل، لكن لا يهم، فأنا لا أرى شيئًا أكثر تشريفًا للرجل الفرنسي من أن تكلفه حكومته للقيام بمهمة خارجية مهما كانت متواضعة. فتولّد لديَّ إحساس عجيب بأن هذا الأمر يجب أن يكون مصدر تشجيع حتى للذين هم أقل شجاعة. وإذا لم أتحدث طويلًا عن هذا الجانب من رحلتي فليعلم القراء أنني مجبر على التحفظ على الموضوع، وأنه قد لا يكون من اللائق أن أبوح به لأحد.

ومع ذلك يمكنني القول: إنني كنت في هذه النقطة بالذات مقتنعًا تمام الاقتناع بأني قمت بهذه المهمة خير قيام. وعند عودتي، وبعد أن رُشِّحت بوسام فارس جوقة الشرف، برهنت لي حكومة الجمهورية بأنني قدمت شيئًا مهمًا. وقد أنساني هذا التشريف ما عانيته من الأخطار. (جيل - جرفيه - كورتلمون، ٢٠٠٢م: ٤٠ - ٤٥).

الخلاصة بعد هذا العرض أن الأهداف المعلنة لهؤلاء الرحالة تخفي وراءها أهدافًا خاصة متعلقة بالسيطرة والاستعمار والنفاذ إلى قلب العالم الإسلامي مكة والمدينة.

مبدأ المعايشة في رحلات الحج الأوربية:

كان من المتعذر على الأوربي في السابق السفر بشخصيته الأوربية الواضحة إلى الجزيرة العربية، وخاصة إلى الديار المقدسة، ولاسيما وهؤلاء يرتحلون في بيئة لا يرتاح أهلها لدوافع الغربيين ونواياهم، فكيف إذا كانت الأماكن التي ينوون دخولها محرمة شرعا عليهم؟ لذا لجأ هؤلاء إلى تأهيل

أنفسهم للتلاؤم مع معطيات الشرق وعاداته وسلوكياته، خاصة الإسلامية منها، وأهم جوانب هذا التأهيل ما يأتي:

- **التأهيل اللغوي**: إن القسم الأكبر من هؤلاء الرحالة كانوا يعرفون اللغة العربية، لا بل كان بعضهم يجيدها كتابة وقراءة وتحدثًا. لقد كان التأهيل في مجال اللغة يتم في المعاهد الاستشراقية في البلاد التي يفد منها هؤلاء، كما أن المدن المطلة على سواحل البحر المتوسط كانت المنافذ المهمة التي يفد منها الرحالة إلى الجزيرة العربية، كمدينة الإسكندرية والقاهرة وبيروت ودمشق وحلب والقدس حيث يتعلمون اللغة العربية وشعائر الدين الإسلامي، ويذهب بعضهم للعيش في مضارب القبائل البدوية المحيطة بتلك المدن لتعلم اللهجات البدوية.

فباديا مثلًا قد تعلم العربية في إسبانيا قبل أن يرحل إلى المغرب ثم إلى الديار المقدسة، وهورخرونيه أقام في جدة ستة أشهر فتعلم اللهجة المحلية قبل دخوله إلى مكة المكرمة. وبيرتون تعلم العربية في الهند، وبوركهارت عاش مدة في دمشق وحلب قبل القيام برحلاته إلى الجزيرة العربية، والغرض من ذلك هو الحصول على التأهيل اللغوي إضافة إلى التأهيل الديني.

- **التأهيل السلوكي**: لقد ارتدى كل هؤلاء الرحالة الملابس الشرقية، وانتظموا داخل إطار مجموعة من القيم والمبادئ، من خلال معرفة دقيقة بالعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية، مع اهتمام شديد بتفصيلات الحياة الاجتماعية ودقائقها. ومعايشة تامة لأساليب الحياة الشرقية، والاختلاط بالناس والاندماج في طريقة حياتهم، وتقليد تام لسلوكهم، حتى أصبح من الصعب التعرف إلى هويات هؤلاء الغريبين. ومما ساعد على ذلك القدرات اللغوية لهؤلاء، والفهم الدقيق

لمجموعة النظم والمبادئ المنظمة لسلوك الناس داخل المجتمع الشرقي.

لقد تعلم هؤلاء الشعائر الإسلامية والفقه والعقائد والمواريث وتاريخ القبائل وأنسابها، وظهروا كمسلمين في سلوكهم وعاداتهم، وارتدوا الزي الإسلامي، وتفننوا في أساليب التنكر وانتحال الأسماء الإسلامية.

ففارتيما تنكر بزي الحاج يونس المصري، وبوركهارت تلقب بالحاج عبدالله، وباديا كنى نفسه بعلي باي العباسي، وبيرتون تزيا بزي حاج مسلم أفغاني، حتى إنه دهن جلده بعصير الجوز وعرَّض نفسه للشمس طويلًا ليبدو أسمر اللون، شاحب البشرة مثل الأفغان تمامًا. وبوركهارت كان يتمرن على قطع مسافات طويلة سيرًا على الأقدام تحت حرارة الشمس وهو مكشوف الرأس، ويفترش الأرض، ولا يأكل إلا الخضار، ولا يشرب إلا الماء. وقد كان ذلك في لندن عندما كان يعد نفسه لهذه المهمة بعد أن درس في جامعة كمبردج اللغة العربية والكيمياء والطب. (بوركهارت، ١٩٩٢م: ٦).

تقويم رحلات الحج الأوربية إلى الديار المقدسة

من المفيد أن ننظر إلى هذه الرحلات التي قام بها هؤلاء الغربيون إلى الديار المقدسة الإسلامية من خلال:

- فلسفة الاستعمار.
- الاستشراق.
- الوجهة الإسلامية.

١ - تقويم الرحلات داخل إطار الحركة الاستعمارية للشرق:

لقد نُظِّمت معظم هذه الرحلات في ظل حماية الدول المستعمرة ورعايتها على نحو ما أشرنا سابقًا، ومن هذا المنطلق فقد كان هدف كل الرحلات المتجهة إلى الشرق تقديم المعلومات الجغرافية عن الأماكن التي لم تكتشف غربيًا. وهذا يجعلنا ننظر إلى هذه الرحلات على أنها تمت داخل إطار السياسة الاستعمارية وبتمويل من جهات استعمارية، وتحت حماية استعمارية.

لقد أوضحنا أن عمليات التجسس كانت جزءًا لا يتجزأ من معظم هذه الرحلات الاستكشافية. ولا شك أيضًا أن التنكر كان الطابع المميز لجميع هذه الرحلات، وقد قدمت هذه الرحلات معلومات وافية عن الأوضاع السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، والفكرية لديار الإسلام. والخلاصة أن هذه الرحلات المتعددة تندرج داخل دائرة العمل الاستعماري، حيث توظف الجهود الاستكشافية لخدمة المصالح الغربية في المشرق.

٢ - تقويم الرحلات داخل حركة الاستشراق:

المستشرق هو عالم غربي متخصص في البلدان الشرقية من خلال عملية تأهيل علمي أكاديمي نظامي في الدراسات الشرقية[1]. وفي هذا الإطار هل يعد هؤلاء الرحالة مستشرقين؟ وإذا كانوا كذلك فما طبيعة استشراقهم؟

في محاولة الإجابة عن هذا التساؤل يمكن أن نقسم الرحالة إلى فئتين؛ الأولى: لم ينتظم أفرادها في دراسة علمية أكاديمية نظامية أمثال فارتيما وبيتس

---

(١) يقول «إدوارد سعيد»: أن يكون المرء مستشرقًا، أصبح يعني التدريب الجامعي في الدراسات الشرقية، وبحلول عام ١٨٥٠م كان قد أصبح لكل جامعة رئيسة في أوربا منهج متكامل في أحد فروع الدراسات الشرقية. (إدوارد سعيد، ١٩٨٤م: ٢٠١).

وكين وروشيه وبيرتون الذين نشؤوا نشأة عسكرية بصفتهم جنودًا وضباطًا في جيوش بلادهم، وقدموا إلى الشرق، أو أرسلوا إلى البلدان الشرقية في مهمات عسكرية اقتضتها سياسة بلادهم الاستعمارية. وعملهم الاستشراقي جزء لا يتجزأ من العملية الاستعمارية. وقد جمع كثير منهم بين العمل السياسي والعسكري والعمل الاستشراقي. وعادة ما يبدأ هذا العمل الاستشراقي قبل القيام بالعملية الاستعمارية، فيدرسون البلد المستعمر، وينفذون الجانب الثقافي والعلمي والفكري والاجتماعي من السياسة الاستعمارية الموضوعة لهذا البلد.

والفئة الثانية، هم أولئك النفر من الرحالة الذين أُلحقوا بإحدى الكليات الشرقية في البلاد المستعمرة، حيث أضافوا بعدًا علميًا أكاديميًا من خلال الحصول على درجات علمية في إحدى مجالات الدراسات الشرقية.

وقد تعلم هؤلاء اللغة العربية في بلادهم أمثال باديا، وبوركهارت وهورخرونيه وسيتزن وغيرهم، كما خَبِر معظم هؤلاء الحياة في البلاد العربية قبل دخولهم إلى الديار المقدسة من خلال العيش في بعض المدن العربية قبل السفر إلى الجزيرة العربية.

واستنادًا إلى التقسيم السابق نجد أن كتابات الفئة الأولى تندرج في أدب الرحلات التي تنطوي على وصف وملاحظات ومشاهدات وانطباعات شخصية يعوزها في كثير من الأحيان النظرة الأكاديمية المتأنية على خلاف الفئة الثانية التي دونت ملاحظاتها بصورة أكثر عمقًا ووعيًا، فقد شاركوا في حياة الناس الذين عاشوا معهم، واستطاعوا أن ينفذوا إلى أدق التفصيلات عن الحياة في المجتمع الإسلامي، وأن يدونوا بفطنة وكياسة وعمق جميع ما رأوه وما سمعوه، وما عاشوه في بلاد الشرق، وخاصة في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة.

٣ - التقويم الإسلامي لدخول الرحالة الغربيين إلى الديار المقدسة:

هناك ثلاثة أساليب اتبعها هؤلاء الرحالة كي يتسنى لهم الدخول إلى الديار المقدسة، وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة. أما الأول: فهو التنكر بالملبس الإسلامي، لإتمام مهمة الحج. والثاني: هو إعلان الإسلام الظاهري. أما الثالث: فهو إعلان الإسلام الفعلي، وأداء فرائض الحج كمسلم يؤدي إحدى الفرائض الدينية.

ففي الحالة الأولى، وهي حالة التنكر، فالموقف الإسلامي يعدها عملية خداع قام بها هؤلاء لكي يتسللوا إلى الأراضي المقدسة ويعايشوا المسلمين في أداء فريضة الحج، ويمارسوا نسك هذه الفريضة، حتى يصفوها وصفًا قائمًا على أساس من الفهم. وهذا حال فارتيما ولو بلانك وفيناتي وغيرهم.

والموقف الإسلامي من هذا الخداع موقف واقعي، يتعامل مع الحادثة في إطارها الشرعي والقانوني، حيث يوجد أمر بعدم السماح لغير المسلمين بدخول الأراضي المقدسة، وهناك علامات للمنطقة المحرم دخولها. كذلك هناك عقوبات لمن لا يلتزم هذه الأوامر الصادرة عن السلطات الإسلامية. ويمكن القول: إنه لو قبض على أحد هؤلاء لتمارى بعملية الخداع بإعلان أنه مسلم، وربما نطق بالشهادة أمام المحققين معه ليخلص نفسه من هذه الأزمة، وبإعلان الشهادة لا يستطيع أحد أن يتعامل معه على أنه ليس مسلمًا.

وفي حالة إعلان الإسلام الظاهري من أجل إتمام الحج، فالموقف الإسلامي يصبح أكثر صعوبة، إذ ليس في استطاعة أحد أن يكشف صحة إسلام هؤلاء، فالدخول الظاهري في الإسلام يتم من خلال إعلان الشهادة، والالتزام الظاهري لأداء الفرائض والواجبات الإسلامية، خصوصًا الصلاة والصوم والحج، وكلها يمكن أن تؤدى بشكل ظاهري، وبدرجة من الإتقان لا يمكن معها كشف عدم إسلام صاحبها.

ومن الجدير بالذكر أن القسم الأكبر من هؤلاء الرحالة أتقن الظهور في هيئة مسلم، ولم يشكَّ أحد في هويتهم الدينية. ولو حدث مثل هذا الشك فهناك سلاح النطق بالشهادتين لإبعاد الشكوك، يضاف إلى ذلك أن معرفة هؤلاء الجيدة بالإسلام، والسلوك الإسلامي، والعادات والتقاليد الإسلامية تمكنهم من إقناع أي شاكٍّ في هويتهم الدينية. فالتظاهر بالإسلام هو السلاح الجاهز للخروج من أية أزمة من هذا النوع.

أما الحالة الثالثة، فهي كون إعلان الإسلام كان حقيقيًا لا شكليًا كما قدم باديا نفسه للوسط الإسلامي بأنه مسلم حقيقي اعتنق الإسلام عن إيمان وعقيدة، أو كما فعل سنوك هورخرونيه حينما أعلن إسلامه الحقيقي في جدة قبل أن يدخل إلى مكة المكرمة، وذلك أمام القاضي الشرعي والشهود. ودخل مكة بصفته أحد المسلمين الذين يريدون التزود من مركز الإسلام الروحي في مكة المكرمة. وتجابهنا هنا مشكلة الرِّدة عن الإسلام بعد تمام رحلة الحج والعودة إلى الغرب، ونشر أخبار الرحلة وأحداثها من منطلق أنها رحلة مستشرق أو مستكشف مغامر، اتخذ فيها الوسائل التي تمكنه من إتمام الرحلة، ومنها إعلان الإسلام المؤقت، والعودة إلى الدين السابق بعد إنجاز المهمة المطلوبة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء استمر بتمثيل دور المسلم حتى بعد انتهاء الرحلة مثل سنوك الذي بقي (١٧) عامًا في إندونيسيا، يمثل دور المسلم الحق حتى إن الرسائل التي كان يرسلها له أصدقاؤه في مكة يخاطبونه فيها «بالأخ العزيز».

يرى بعضهم أن التسلل إلى الديار المقدسة من قبل هؤلاء الرحالة ينطوي على عمل غير أخلاقي لعلم هؤلاء المسبق بأن دخول المدينتين المقدستين محرم على غير المسلمين. لقد استغل هؤلاء الإسلام ستغلالًا

سيئًا من أجل تحقيق أهدافهم، وهذه النقطة تضاف إلى سلسلة من الأعمال المعبرة عن الأزمة الأخلاقية في مسيرة الاستشراق، ويمكن في هذا المجال أن نحصي عشرات السلوكيات غير الأخلاقية من بينها سرقة المخطوطات وجمع المعلومات للجان الاستعمارية، إضافة إلى الإعلان الظاهري للإسلام للتسلل إلى بلاد المسلمين (حسن، ١٤٢١هـ: ٤٠٢-٤١٨). وفي هذا المجال نستحضر النقد الذي قدمه إدوارد سعيد لهؤلاء الرحالة من حيث ارتباطهم بالحركة الاستعمارية. وفي تصور الشرق تصورًا استعماريًا عرقيًا فوقيًا متجذرًا في القوة واتحاد القوة بالمعرفة (سعيد، ١٩٨٤م: ٦).

٤ - تقويم كتابات هؤلاء الرحالة عن المدينتين المقدستين:

يقول رالي: يمكن أن نقسم الرحالة النصارى إلى مكة إلى ثلاث فئات: الأولى:تمتد من فارتيما إلى بيتس. أما الثانية فالمتحمسون للعلم وتشمل باديا وسيتزن وبوركهارت وهورخرونيه، أما الثالثة: ففئة المولعين بالمغامرات أو حب الاطلاع مثل مالتزان وبيكنل وكين وكورتيلمون.

ينتمي بيرتون الى الفئتين الأخيرتين. أما والين فينتمي للفئة الأولى. أما روشيه فمن الصعب تصنيفه. هذه المجموعة المتنافرة من الرجال قصرت نفسها على موضوع واحد. إنها صرخة بعيدة من بيتس الذليل إلى باديا الكريم، ومن بوركهارت العلمي إلى كورتيلمون الشاعري ومن هورخرونيه الناكر لذاته إلى روشيه المتحدث عن سيرته الذاتية ومن وايلد الغامض إلى بيرتون صاحب الشهرة العالمية. ويمكننا تتبع هذه المفارقات في السجلات المدونة التي ما زالت باقية: بين تكديس بوركهارت للحقائق وقصص كين الجذلة، وما يمكن قوله أن أعضاء هذه الصفوة المختارة المختلفة في الزمان والمكان والهدف والسجية كلهم متحدون في اشتراكهم في مغامرة واحدة، هي النفاذ إلى أقدس بقاع العالم الإسلامي، وهو مكة المكرمة. لقد أصبحت معلومات

هؤلاء الرحالة من أهم أسباب انتعاش الكتابات التاريخية والجغرافية عن الديار المقدسة. وقد عكست كتابات هؤلاء بما حوته من أحداث تاريخية وجغرافية واقتصادية وسياسية وأثرية، الحياة العامة التي كانت سائدة في عواصم الإسلام الأولى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ومن الإنصاف القول: إن كل معنيٍّ في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها سيستفيد من كتابات هؤلاء الرحالة، لا من حيث شمولها لمعلومات ودراسات تاريخية فحسب، بل لأنها تبسط أمام القارئ العربي المعني بتاريخ الجزيرة ميدانًا واسعًا، ممهد الطرق واضح المعالم.

هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، أو التغاضي عنها، غير أن الدوافع وراء هذه الأعمال الضخمة بحاجة إلى وقفة تأمل وروية. لقد كان للقوم دوافع متعددة تخدم مصالحهم، لقد كانت دوائر الاستشراق التي مولت معظم هذه الرحلات، لها صلاتها القوية مع وزارات الخارجية وشؤون المستعمرات مع الدول الأوربية بهدف تسهيل مهمة المستعمر في البلاد المستعمرة، وكان لها صلات قوية بحركات التنصير في العالم الإسلامي، ولا يكون ذلك إلا بدراسة ماضي الأمم وتاريخها لمحاولة الوصول إليها من أقرب الطرق وضربها في المكان الموجع لها.

إن هناك جهدًا بذله هؤلاء الرحالة بغض النظر عن دوافعه، فإذا نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية، مع أن نشر هذا الجهد لا يتضمن الموافقة عليه، والرضا عن جميعه. إن تراثنا جزء من الحضارة الإنسانية التي هي ملك لنا، كما هي ملك لغيرنا. ولهذا لا نستطيع أن نمنع أحدًا أن يكتب عنا. كما أننا لا نستطيع أن نضع لهؤلاء الخطوط العريضة التي نرتئيها لأنفسنا عند بحثنا في تراثنا. فهم لهم منطلقات فكرية مختلفة تمامًا عن منطلقاتنا. والقارئ العربي كثيرًا ما تعتريه حالة من الشك

والريبة حيال كتابات الغربيين عن العرب وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، والحق يجب قبوله، أيًا كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، والغربيون بحكم بُعدهم عنا وجهلهم لأحوالنا في الماضي تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ لا ينبغي أن تكون حائلًا بيننا وبين المعرفة.

لقد ترك هؤلاء الرحالة - على حد تعبير بعض الكتاب - جبلًا من الوثائق والرسوم والمفكرات والخطابات واليوميات، لم تكن كلها صحيحة ودقيقة، وكانت كلها بالتأكيد من وجهة نظر غربية. ومن رؤية غربية للأمور، غير أنها في غياب الرحالة العرب في هذه المرحلة، خصوصًا خلال القرن الماضي الذي سبقه، كانت هذه المعلومات شريط الرسوم الوحيد الذي ترك لنا عن الحياة العامة في الديار المقدسة، وليس لمؤرخ أو باحث أن يدرك طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية والمعيشية إلا بقراءة تلك الأوصاف الدقيقة للبيئة البشرية والطبيعية التي كانت قائمة آنذاك. (عطا الله، ١٩٩٤م: ١٦).

لقد مثَّل هؤلاء الرحالة عصورهم التي عاشوها، فقد تزامنت رحلة فارتيما، وهي أول رحلة قام بها أوربي عام ١٥٠٣م إلى مكة المكرمة، مع رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند، وإذا كانت مهمة دي جاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحري للهند، فإن مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيدًا. فقد كان مكلفًا بوصف عادات الشعوب التي يمر بها في طريقه إلى الهند، وكتابة تقارير عن جيوشها وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، خصوصًا ذات القيمة في التجارة العالمية.

لقد خصص فارتيما فصلًا من فصول رحلته، أطلق عليه «بلاد العرب الصحراوية» وصف فيه الطريق من دمشق إلى مكة، ثم تحدث عن المدينة

المنورة، ثم وصف الرحلة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وقدم بعض المعلومات عن التجارة في مكة، وجدة ثم وصف الحج. (رحلات فارتيما ١٩٩٤م: ٢٢).

لقد كان فارتيما أول نصراني يصل إلى مكة ويكتب عن أحوال الديار المقدسة في مكة والمدينة، وقد اتسمت كتاباته بروح التحامل والتعصب، كانت الكلمة العالقة بشفتيه دائمًا «قذر» (خيام البدو قذرة... هذا النمط من الرجال القذرين.... إلخ.....). ولم يكن مهتمًا بوصف الأماكن حيث لا نجد وصفًا دقيقًا منظمًا لمكة والمدينة، فقد صب اهتمامه على الأشياء الغريبة (وحيد القرن في مكة)، وكذلك نجد المبالغة (هناك عشرون ألف متسول في مكة) وإظهار البطولة والشجاعة الشخصية واضحًا في مغامراته «لقد قتلنا من البدو ١٥٠٠ نفس، ولم نفقد سوى رجل وامرأة»، وكذلك غرام النساء به حيثما حل وارتحل. والخلاصة أن أوربا عرفت مكة المكرمة والمدينة المنورة من خلال رحالة أوربي وطئت أقدامه تلك الديار. وقد استطاع أن ينفي ما كان يتردد في أوربا من أن قبر النبي ﷺ معلق بين السماء والأرض في مكة.

إذا كان الرحالة فارتيما ذهب إلى مكة بصفته أحد حراس قافلة الحج، فإن جوزيف بتس زارها بصفته عبدًا مع سيده، ونرى أن رحلته تمثل انطباعات رجل إنجليزي مملوء بالتحامل، وعدم الثقة بالأجانب، وربما يكون ذلك لسوء المعاملة التي لقيها من أسياده المتعددين في أثناء عبوديته. ومع إصراره على التظاهر بالإسلام إلا أنه لم يرتد على دينه.

لقد وصف بتس رحلة الحج من الجزائر بحرًا إلى الإسكندرية، ومن هناك بمحاذاة النيل إلى القاهرة، ثم عبر الصحراء إلى السويس، ثم استقلته السفينة إلى جدة. وتحدث عن مشاهداته في مكة، ولا سيما السيل الذي اجتاح المدينة المقدسة، والحياة في أثناء شهر رمضان الذي أدركه هناك، وتحدث

عن القوافل الأربعة التي تأتي إلى مكة في موسم الحج، ثم وصف الحج وهَالَهُ موقف عرفات: «إنه مشهد يقطع القلب أن ترى آلاف مؤلفة من الناس برؤوس حاسرة ووجنات مخضبة بالدموع، وأن تسمع آهات وشهقات، والجميع يتوسلون بإلحاح ليغفر الله ذنوبهم وهم يعطون الوعود بتجديد حياتهم».

لقد كانت أوصاف بتس دقيقة للمشاهد التي زارها، لكنه لا يخلو من التحامل على الدين الإسلامي. ومن الجدير بالذكر كما يقول بدول: «إن كتابه بقي غالبًا غير مقروء كلية» (بدول ١٤٠٩هـ: ٢٩).

في الوقت الذي زار بتس مكة المكرمة بصفته عبدًا يخدم سيده فإن باديا (علي باي العباسي) قد دخل مكة بصفته أميرًا من سلالة الخلفاء العباسيين. ولقد كانت مظاهر البذخ والترف التي أحاط بها هذا الرحالة نفسه، والتي كلفت الجهة التي يقدم خدماته لها كثيرًا، غير أنها قربته من علية القوم في الشرق العربي. فقد أصبح هذا الرحالة صديقًا حميمًا لسلطان المغرب، وفي طريقة إلى رحلة الحج ألح عليه حاكم طرابلس في البقاء معه، وفي القاهرة توقف قليلًا حيث قابل محمد علي باشا. وفي مكة سكن في بيت مجاور لقصر الشريف أُعدَّ له مسبقًا. وقد استقبله شريف مكة، ودعاه للاشتراك في غسيل الكعبة، وأهداه قطعة كبيرة من كسوتها، وعين له مرافقًا يصاحبه في تنقلاته (بدول ١٤٠٩هـ: ٣٠).

لقد كان باديا من خلال معرفته العلمية واللغوية وأسلوبه المنظم أول من أعطى الغرب وصفًا منظمًا عن مكة المكرمة. وهو أول من وصف تجارتها، ووصف أزهارها ونباتاتها، حتى إنه أول من حدد موقعها الفلكي بدقة. وقد وجد أن أجزاءً كثيرة من المدينة قد تحولت إلى خرائب، وأن سكانها قد تضاءل عددهم من مئة ألف إلى ستة عشر ألفًا فقط، وكان يعتقد أنه لا توجد مدينة ينقصها حرفيون كمكة. فلم يكن هناك من يصلح البنادق، ولا من يصنع الأقفال، ولا يوجد أحد

من الأساكفة، ومن المستحيل (بناء على قوله) أن تشتري مصحفًا مكتوبًا بخط جيد أو حتى خالٍ من الأخطاء. (بدول، ص٣١).

وعلاوة على ما ذكرنا، فقد كان لكتاب علي باي العباسي بُعْدٌ تاريخي مهم، فقد قدر لهذا الرجل الإسباني أن يشاهد دخول السعوديين مكة المكرمة سنة ١٢١٧هـ/ عام ١٨٠٦م، ودخول الإمام سعود وجيشه فيها، وأن يكتب وصفًا للجيش وللتغييرات التي أحدثوها، وشعور الناس نحو هؤلاء الفاتحين الجدد، وقد ذكر بعض المعلومات التي لم يُدوِّنها أحد من كتاب المصادر التاريخية القليلة لتلك الحقبة.

قدَّم سيتزن (الحاج موسى) سنة ١٢٢٤ - ١٢٢٥هـ (عام ١٨٠٩ - ١٨١٠م) معلومات قيمة عن المدينتين المقدستين، وخاصة الأوصاف الدقيقة للمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وقدم ملحوظات دقيقة عن مكة خلال موسم الحج، وعلى الرغم من أنه لم يكن رسامًا، فقد نجح في وضع خريطة لمكة وما حولها، ومخططًا للمسجد الحرام، مع ستة عشر رسمًا لأجزائه المنفصلة، ونقد كل الخرائط والرسومات الموجودة آنذاك بما فيها رسومات الرحالة نيبور. كما أنه أجرى بعض المراقبات الفلكية من منزل أحد أصدقائه في مكة، إلا أن وفاة سيتزن المفاجئة وخسارته أوراقه التي سرقت منه كانت في مصلحة الرحالة السويسري بوركهارت الذي يعد كتابه أساس كل معرفة دقيقة عن مكة المكرمة.

لقد وصف بوركهارت الحياة في المدينتين المقدستين وصفًا دقيقًا، فأعطى معلومات مفصلة عن المنازل والدكاكين والشوارع والأسوار ومصادر المياه والمقابر. كما وصف تركيبة السكان وعاداتهم وتقاليدهم وحرفهم، وطرائقهم في المأكل والملبس، وأساليب التعامل، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعلاقات الحجاز بأقاليم الجزيرة والهند ومصر. وقد وصف بيت الله الحرام، ومشاعر الحج، ومسجد الرسول ﷺ وأماكن الزيارة

في كلٍّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما وصف الطرق بين المدن، بما فيها من محطات استراحة وآبار، ووصف الجبال وأنواع الصخور والأودية والأشجار. كما وصف أيضًا طريق الحج المصري والشامي واليمني والطرق بين المدينة المنورة والقصيم.

وهناك بُعْد تاريخي مهم برز في كتابات بوركهارت الذي قُدِّر له أن يكون شاهد عيان، لانحسار النفوذ السعودي عن الحجاز، ومجيء قوات محمد علي. وأسر محمد علي للشريف غالب. وقد سجل ملحوظات كثيرة عن طبيعة الحكم، ومشاعر الناس، حاضرة وبادية. كما سجل ملحوظات مهمة عن طبيعة حكم محمد علي للحجاز وحملاته، وسلوك جيشه، وعلاقتهم بأهل البلاد. (بوركهارت، ١٩٩٢م: ٨ - ٩).

يعترف كل من زار المدينتين المقدستين بعد بوركهارت، بأهمية كتاباته عن المدينتين المقدستين حيث يقول بيرتون: «إنه لا يمكن الزيادة على كتاباته، فكل صفحة من صفحات كتابه مملوءة بالحقائق الدقيقة. فقد تتغير ظروف الشكل الخارجي للحج من سنة إلى أخرى، لكن الأوصاف الأساسية لشعائر الحج كانت كاملة عنده، والسبب هو معايشة بوركهارت لفترة الحج ومشاركته في أداء الشعائر خلال هذا الموسم». غير أن بوركهارت لم يسلم من الوقوع في بعض الأخطاء التي كشفها من جاء بعده أمثال سنوك هورخرونيه الذي أنكر على بوركهارت قصور أهل مكة في الحضارة والعلم، بصورة مبالغ فيها حيث يقول: «إنه لمما يؤسف له أن رجلًا عالمًا مثل بوركهارت لم يذكر شيئًا عن النهضة العلمية في مكة، لا بل نراه يصور قصور أهل مكة في هذا المجال بصورة مبالغ فيها، وهذا لا شك سببه أن مكة المكرمة تبدو للحجاج والزوار في موسم الحج، بصورة مختلفة تمامًا، عن أولئك الذين يستقرون فيها، ويضيف هورخرونيه أنني أستطيع أن أكتب صفحات مطولة عن كثير من مواطن الزلل في كتاب بوركهارت، غير أنني من جهة أخرى آمل أن يصدقني القراء إذا قلت:

إنني قرأت كتاب بوركهارت قراءة شاملة، لولاها لما تمكنت من كتابة كتابي هذا، ولهذا فإنني أبدي تقديري واحترامي الشديدين لسلفي السابق، على الرغم من وجود بعض الأخطاء التي استطعت أن اكتشفها في عمله الممتاز. (هورخرونيه، ١٤١١هـ: ٣٥٩) والخلاصة أن شخصية بوركهارت وأعماله تضعانه عاليًا بين الرحالة المشهورين في التاريخ.

يعد بيرتون الرحالة الإنجليزي الذي وصل إلى المدينة سنة ١٢٦٩هـ (عام ١٨٥٣م) لأداء فريضة الحج في مكة من أكثر الرحالة نشاطًا وحيوية وأكثرهم إنتاجًا. لقد خصص بيرتون الجزء الثالث من كتابه «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز»، للحديث عن الديار المقدسة. فقد كتب تسعة فصول من كتابه البالغ (٣٤) فصلًا، (الفصول من ٢٦ - ٣٤) عن رحلته إلى مكة المكرمة والطريق إليها، واصفًا بالتفصيل مناسك الحج التي خصص لها أربعة فصول (شعائر يوم التروية، شعائر عرفة، يوم النحر، أيام التشريق الثلاثة) وتحدث في الفصول الأخرى عن المدينة، ووصف الطريق الذي سلكه للوصول إلى مكة، ثم تحدث عن الحياة الاجتماعية والتقاليد، والأماكن التي يقصدها الزائرون للتبرك. إن ما كتبه بيرتون يعد مملوءًا بالمشاهدات المفصلة والمعلومات المسهبة. ويرى بعض المؤرخين أن بيرتون لم يضف كثيرًا إلى المعرفة الإنسانية، ولكنه نقل للأوربيين الجو السائد في الجزيرة العربية، وروى القصة بشكل أفضل، وأسلوب مشوق أكثر مما فعل سابقوه. (بدول، ص ٦٢).

والناظر في فصول كتاب بيرتون المتعلقة بالشعائر الدينية عند المسلمين يرى انه قد تناول عقائد المسلمين باحترام كامل. وقد يكون من المفيد أن نورد بعض التعبيرات الدالة على ذلك.

يقول بيرتون واصفًا اصطفاف المسلمين حول الكعبة لأداء الصلاة: «لقد رأيت شعائر دينية في بقاع كثيرة، لكنني لم أر أبدًا ما هو أكثر وقارًا وتأثيرًا

مما رأيته هنا». (الفصل ٢١). ويقارن بين أداء المناسك في مكة المكرمة والمناسك في ديانات أخرى فيقول: «وهنا - في مكة - لا نرى شيئًا مسرحيًا مصطنعًا. ولا نرى لمناسك الحج لباسًا كلباس الأوبرا، بل إن كل شيء هنا بسيط ومؤثر، ويملأ العقل بخشية الله». (الفصل ٣).

ويقول في موضع آخر من الفصل (٣٢): «لا أستطيع أن أتحدث عن مناسك الحج عند المسلمين بعداء. فالشعائر الدينية المتعلقة بالكعبة-وهذا حقيقي- تقلل كثيرًا من كل ميل إلى الوثنية، لكن أين هي الأمة، سواء في الشرق أو الغرب التي استطاعت أن تخلص عقائدها من بقايا الوثنية القديمة..... فالفكر الديني الإنجليزي مملوء بالطفيليات الوثنية. أما في مكة فحتى البدوي البسيط يعلم عند طوافه بالكعبة أنه لا يعبدها، وإنما يفعل ذلك أسوة بخليل الرحمن». (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ج٣، ص ٧ - ٨).

لقد وصف بيرتون الوقوف بعرفة بقوله: «لقد رأيت شعائر دينية في بلاد كثيرة ولكن لم أشاهد في حياتي بتاتًا مثل تلك الشعيرة برهبتها وعظمتها». (بدول، ص٦٢).

ويجزم بيرتون أن الإكراميات والبخشيش، واعتقاد بعض الناس أن من حقهم الحصول على مال دون مقابل، أو أنهم أهل لذلك دون عمل حقيقي من أهم أسباب تخلف العالم الإسلامي مؤخرًا. في حين نجد العمل والإنتاج والإيمان، كل ذلك جميعًا كان محور تقدم العالم الإسلامي في عصوره الزاهرة. (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ص٩).

والخلاصة أن بيرتون وصف عدة رحلات قام بها إلى كل قارات العالم ما عدا أستراليا. وعن إفريقية وحدها كتب ثلاثة عشر جزءًا تعداد صفحاتها (٤٦٠٠) صفحة. أما الجزيرة العربية فقد ظلت كما يقول: «الأرض التي تولع بها قلبي». (بدول، ص٥٤). ولا شك أن أسلوبه الجميل أضفى شيئًا

من الحيوية على أوصافه للأماكن، ويكفي أن نذكر للتدليل على ذلك وصفه للمدينة المنورة في ١٨ شوال سنة ١٢٦٩هـ (٢٥ يوليو عام ١٨٥٣م) حيث يقول: «عندما نظرنا إلى المشرق وجدنا الشمس قد بزغت في الأفق ذي التلال المنخفضة، المكسوة بشجيرات صغيرة، ولكن ضباب الصباح جعلها وكأنها أشجار شامخة، أما الأرض فكانت مغطاة بنباتات ظهرت وكأنها مزيج من لوني البنفسج والذهب، وامتد أمامنا سهل رحب، تحده هضبة نجد، والى اليسار ارتفع جبل أُحُد المشهور، واحتضن في سفحه مجموعة من الشجيرات الخضراء، وقبة بيضاء أو اثنتين. أما إلى اليمين فقد انتشرت خطوط عريضة بلون أرجواني فاتح، من الضباب الكثيف، مع طراوة منعشة. ومن خلاله تشربت أشعة الشمس، شمس الصباح لتنشر نورها الخافت على بساتين النخيل، وحدائق قباء التي برزت بخضرتها الزمردية فوق السهل الرمادي». (بدول، ص٦٠).

في سنة ١٣٠٢ - ١٣٠٣هـ (عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥م) حصل سنوك هورخرونيه على إجازة دراسية للسفر إلى الجزيرة العربية، ليتعرف من خلالها إلى حياة المسلمين، وحقيقة الدين الإسلامي. وقد أكمل هورخرونيه خلال إقامته في مكة المكرمة وبعد مغادرته لها قسرًا جمع المعلومات اللازمة لكتابه المشهور عن مكة الذي نشره في جزأين، الأول لتاريخها، والثاني وصف حياة أهلها الاجتماعية وصفًا دقيقًا ومفصلًا، وأبرز تأثير مكة المكرمة والمسجد الحرام (الجامعة) بصفته رمزًا للإسلام في العالم الإسلامي، وتطورات المسائل الدينية والعادات وتداخل هذه في تلك. وبهذه الميزات فاق هورخرونيه جميع زوار مكة من الغربيين ممن كتبوا عنها.

ومن المعروف أن هورخرونيه من كبار المستشرقين، وهو أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وإندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين، وقد عُدّ عميد العربية بعد جولدزيهر، وفي طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوربا، وهو من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث،

وكان أستاذًا للدراسات العربية في جامعة ليدن من سنة ١٣٢٤هـ (عام ١٩٠٦م) إلى سنة ١٣٤٦هـ (عام ١٩٢٧م).

إن كتابات هورخرونيه عن مكة تتمثل في جزأين: الأول دراسة مفصلة لتاريخ مكة وحكامها، وقد قسم المؤلف هذا القسم أربعة أقسام، بحث في الأول موقع مكة الجغرافي وتضاريسها وأوضاعها الطبوغرافية، وناقش في الفصل الثاني تاريخ مكة في العهد الإسلامي، ثم عرض تسلسلًا تاريخيًا لأهم الأحداث في مكة في الفصل الثالث، وناقش الأوضاع السياسية العامة في مكة عام ١٨٨٦-١٨٨٧م في الفصل الأخير من المجلد الأول.

أما الجزء الثاني فقد قسمه المؤلف أربعة أقسام أيضًا.

١ - الحياة العامة في مكة وتشمل الإدارة وحياة السكان وما يزاولونه من أعمال تجارية، وحرف متنوعة، وما يقدمونه لخدمة الحجاج، ومختلف الخدمات التي تقدمها المدينة المقدسة لزوارها.

٢ - الحياة العائلية وبناء الأسرة، وتشمل مراسيم الزواج من خطبة ومهر، ومراسيم التسمية والختان، ودراسة الأعياد والاحتفالات الدينية والاجتماعية.

٣ - الناحية العلمية ودرس فيها الكتاتيب، وطرائق التدريس في الحرم، وموضوعات الدراسة، والمدارس الفكرية في العالم الإسلامي، وبين خصائص التعليم في المؤسسة التعليمية الكبرى الموجودة في المسجد الحرام.

٤ - السكان: في هذا الفصل تحدث عن سكان المدينة المقدسة بمختلف أجناسهم وألوانهم وأماكن هجرتهم، وخص بالذكر السكان القادمين من جزر الهند الشرقية.

وقد ألحق سنوك مع المجلدين الكبيرين أطلس فريدًا صدر في حقيبتين منفصلتين وضع فيه كثيرًا من الصور والرسوم التي تظهر نواحي شتى من مظاهر حياة المدينة المقدسة.

من خلال المعلومات التي قدمها سنوك هورخرونيه للعالم الغربي عن المدينة المقدسة عدَّه بعضهم رائد الدراسات الاجتماعية في مكة، حيث تفوق على جميع من سبقوه في هذا المجال ممن كان اهتمامهم الأكبر في وصف مشاهد الحج المختلفة. ومن الجدير بالذكر أن سنوك لم يحضر موسم الحج في مكة.

لقد كان من ملحوظات هورخرونيه الدقيقة على الحركات الفكرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في عموم أوربا والشرق أنها كانت في أوربا بعيدة من الروح الدينية، وأن روح الشرق وحضارته لم تقم إلا على الدين. وقد بين سنوك أن الغربيين سادت بينهم معلومات خاطئة عن الإسلام وحقيقته، وقد ردَّ في هذا الصدد على كثير من الغربيين الذين كتبوا عن الإسلام.

لقد انتقد هورخرونيه بحرارة أولئك الرحالة الأوربيين الذين يقيمون بالشرق أيامًا معدودة، ويصدرون أحكامًا سطحية وساذجة، لا تعتمد على المشاهدة، وإنما على ما هو موجود في بطون كتب المستشرقين ممن سبقهم، وبهذا تتوالى الأخطاء باستمرار في كتب هؤلاء. ولعل سنوك أول من أظهر للغرب حقيقة الرق في الإسلام، فقد وجد في عصر كانت بريطانيا والدول الأوربية تشن حملة لتحرير الرقيق. وقد أظهر لهؤلاء أن الرقيق في الشرق يعامل معاملة الأب والأم والأخ والأخت، ولو أن مفهوم الرق الغربي كما هو عليه الأمر عند المسلمين لما احتاجت أوربا إلى كل هذا العناء بهذه الخطوة التي خطتها.

إن هذه الأمور التي بدأ بها سنوك موضوعيًا منصفًا منافحًا، يقابلها أمور أخرى بدأ بها متحاملًا وغير منصف، فقد صب جام غضبه على علماء مكة الذين يثيرون الفتن والقلاقل لدى شعوب جزر الهند الشرقية الهولندية (إندونيسيا) التي كانت خاضعة لهولندا آنذاك نتيجة دعوة السكان في مواسم الحج للثورة على المستعمر. وكان يرى أن الدين يجب أن يبقى مقصورًا على العبادات فقط، وكان يرى أيضًا أن الشريعة الإسلامية مستحيلة التطبيق لأنها مثالية.

وعلى الرغم من كل ذلك يعد كتاب مكة بجزأيه سفرًا قيّمًا مملوءًا بالحقائق التي تمثل واقع حياة المدينة المقدسة في تلك المدة من تاريخها.

سنقف أخيرًا عند رحلة جيرفيه كورتيلمون (الحاج عبدالله) لنختم بها تقويمنا لما كتب عن مكة والمدينة. ولكتاب كورتيلمون سمتان أساسيتان هما:

١ - إن هذا الكتاب لا يتضمن أيًا من الأخطاء الكبيرة التي تمتلئ بها كتب بعض الرحالة الآخرين، كما أنه مكتوب بروح ممتازة، ملأى بالتعاطف والاحترام الذي يكنه صاحبه للإسلام، وهذا أمر نادر.

٢ - إن نص هذه الرحلة يختلف عن معظم نصوص الرحالين الأجانب الآخرين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية، وهذه الخصوصية مردها أن صاحبه فنان تصويري، سعى إلى الارتقاء بالصور المكتوبة إلى مستوى الصور التي تلتقطها الكاميرا، مركزًا في الجزئيات والتفصيلات الصغيرة، مازجًا الواقع بالخيال، مضيفًا إلى كتابته ألوانًا متعددة ليكون نسخة المكتوب أشبه بنسخة أخرى من الصور التي التقطها بالعدسة.

لقد راود المصور الفرنسي - الجزائري حين استنفد كل البلدان ذات المنافذ السهلة. فقد سافر من طنجة إلى القسطنطينية، وكانت ثمرة أسفاره خمسة مجلدات. وقد تشوّق أن يجعل مكة والمدينة موضوع المجلد السادس.

تحدث كورتيلمون عن تفصيلات رحلته إلى الأماكن المقدسة، منذ انطلاقه من مدينة الجزائر إلى مدينة جدة، ثم إلى مكة المكرمة والإقامة بها، ومحاولة الذهاب إلى المدينة، إلا أن ذلك لم يتحقق له فغادر جدة إلى السويس ثم فرنسا. وقد قرن مع الوصف العام للرحلة سلسلة كبيرة من الصور التي تظهر تفصيلات دقيقة عن الحياة العامة والناس والأماكن المختلفة، وهذا يجعل الصور عماد الموضوع، والنص عن شرح لدقائق هذه الصور التي عُدَّتْ سبقًا صحفيًا لذلك الرحالة.

والخلاصة أن مادة هذه الرحلات تحتوي معلومات كثيرة، ذات فائدة علمية كبيرة، خصوصًا أن معظمها دُوِّن في وقت كانت الكتابات العربية عن المدينتين المقدستين نزرة ويسيرة، ولعلنا لا نبالغ حين نقول: إنها تعدّ مصدرًا مهمًا من مصادر المدينتين المقدستين على الرغم مما في بعضها من مسحة التعصب والروح الصليبية غير المنصفة.

مؤلف الكتاب:

هو أغسطس رالي، إنجليزي المولد والنشأة، ليس له صلة بالتاريخ أو حتى معرفة الشرق، متخصص في الأدب الإنجليزي وبخاصة الشعر.

بدأت شهرته الأدبية عند تأليفه كتاب «نصارى في مكة» وكان باكورة إنتاجه العلمي، كتبه في سن الرابعة والثلاثين، وكان ذلك سنة ١٣٢٧هـ (عام ١٩٠٩م). تنحصر اهتماماته الأدبية في الشعر الإنجليزي القديم، فقد كتب

كتابين شهيرين هما «نقد شكسبير» A History of Shakespearian Criticism في مجلدين و«المرشد إلى شعر توماس كارليل» Guide to Carlyle. أما المجال الآخر الذي عرف فيه فهو النقد الأدبي. وله في هذا ثلاثة مجلدات تحت عنوان Critque Critical Essays on English Writers ولعل أشهر كتبه هو الشعر والعقيدة Poetry and Faith الذي كان آخر إنتاجه الأدبي.

مراجع الدراسة:

١ - أبو حديبة، عبدالوهاب: الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين في كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية»، ج٢، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ، ص ١٣٩-١٦١.

٢ - بدول، روبن: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله آدم نصيف، الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣ - بن عبود، محمد: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي من كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية»، ج١، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ، ص٣٤٣-٣٩١.

٤ - بوركهارت، جون لويس: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة الهلابي، عبدالعزيز صالح، والشيخ، عبدالله عبدالرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٥ - بوركهارت، جون لويس: البدو والوهابية، ترجمة محمد الأسيوطي، دار سويدان، بيروت، ١٩٩٥م.

٦ - بيرتون، رتشارد: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (الجزء الثالث) ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٥م.

٧ - بيرين، جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب - خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة قدري قلعجي، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٣م.

٨ - الجاسر، حمد: رحالة غربيون في بلادنا - عرض موجز لرحلات بعض الغربيين في قلب الجزيرة العربية وشمالها، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤١٧هـ.

٩ - حسن، محمد خليفة: رحلة ريتشارد بيرتون إلى مكة والمدينة بين الاستكشاف والتجسس، بحوث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، تحرير أبو بكر باقادر، منشورات وزارة الحج في المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ.

١٠ - الزهراني، ضيف الله يحيى: ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة من خلال كتاب رحلات في شبه جزيرة العرب لمؤلفه جون لويس بوركهارت، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ج٢، ص ٦٤١ - ٦٧٠، الرياض، ١٤٢٤هـ.

١١ - مرزا، معراج نواب، والسرياني، محمد محمود: دوافع رحلة سنوك هورخرونيه وقيمتها العلمية بوصفها مصدرًا من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ج٢، ص٦٠٥ - ٦٣٨، الرياض، ١٤٢٤هـ.

١٢ - السرياني، محمد محمود، ومرزا، معراج نواب: أثر الحج على حركات

الاستقلال الإندونيسية - دروس من رحلة سنوك هورخرونيه، بحوث ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، منشورات وزارة الحج، تحرير أبو بكر باقادر، ١٤٢٥هـ.

١٣ - الشيباني، محمد عبدالهادي: أهداف الرحالة الغربيين وغاياتهم، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ج٢، ص٥١٣ - ٥٥٤، الرياض، ١٤٢٤هـ.

١٤ - عطا الله، سمير: قافلة الحبر - الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج- دار الساقي، لندن، ١٩٩٤م.

١٥ - فارتيما: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) ترجمة وتعليق الشيخ، عبدالرحمن عبدالله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٦ - الفارس، أسعد عيد: الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ج٢، ص ٥٥٤ - ٦٠٤، الرياض، ١٤٢٤هـ.

١٧ - كورتلمون، جيل - جرفيه: رحلتي إلى مكة، ترجمة محمد أحمد الحناش، مؤسسة التراث، الرياض، ١٤٢٣هـ.

١٨ - مايراتا، رامون: مسيحي في مكة (علي باي العباسي)، ترجمة رفعت عطفة، منشورات الدار، دمشق، ١٩٩٩م.

١٩ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربية لدول الخليج: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية (جزءان) صدر في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري، ١٤٠٥هـ.

٢٠ - الهلابي، عبدالعزيز صالح: الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتنوني (دراسة مقارنة) بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ج٢، ٧٩ - ١٣٤، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢١ - هورخرونيه، كرستيان سنوك: مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، تعريب السرياني، محمد محمود و مرزا، معراج نواب، منشورات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١هـ.

كتبه

د. معراج نواب مرزا **د. محمد محمود السرياني**

ترجمة الكتاب

مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى

توطئة:

أسعى في الصفحات الآتية من هذا الكتاب إلى سرد روائي لمغامرات كل حاج وتلخيص ملحوظاته عن الناس وعن مدينة مكة وأحوالها، وهذه أمور تتغير من زمن إلى زمن، لكن الذي لا يتغير أبدًا شعائر الحج ومظهر المسجد الحرام. لذا، وبما أنني أسهبت في وضعها في الفصول الأولى، فإنني حذفت اللمسات والانطباعات الشخصية لكل مسافر، ما خلا المتميز منها.

مكة المكرمة

لعل من الأهمية بمكان معرفة إلى أي مدى كان تلميذ مدرسة ماكولاي (Macaulay)[1] على اطلاع على مكة التي تعد مركز العقيدة الإسلامية، وموطن الحج عند المسلمين. ذات مرة عبَّرت عن رأيي لصديق لي بأن زيارة لمكة المكرمة سوف تكون ذات أهمية لا تُضاهى، فأجابني ناصحًا بأن لا أقوم بتلك الزيارة أثناء موسم الحج. وحينما أردفت قائلًا: إن من غير الممكن لنصراني أن يطلع على المدينة المقدسة للإسلام ويعيش بها، تساءل مندهشًا: وهل المنع يشمل سياح شركة كوك للسفر أيضًا[2].

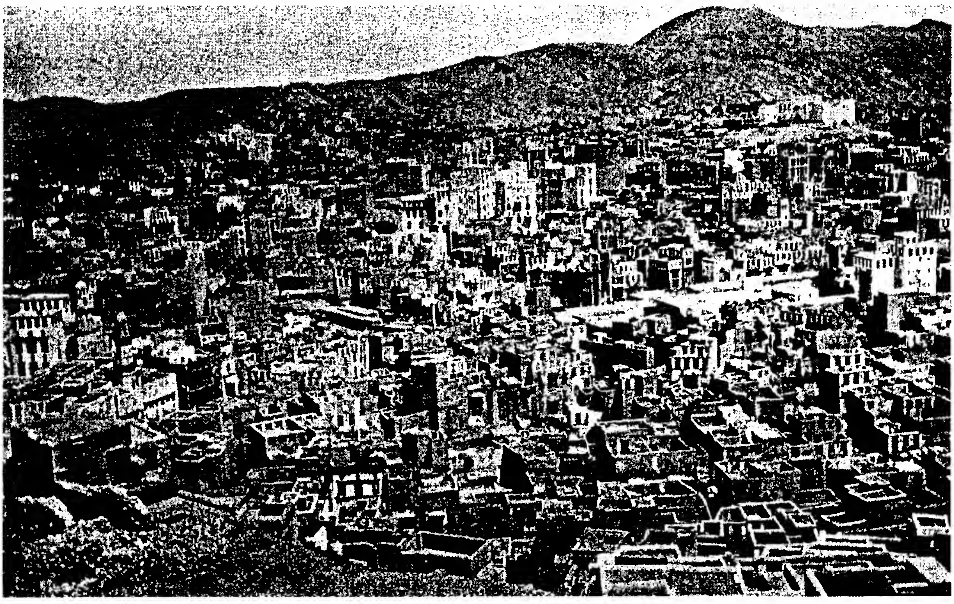
ولد محمد ﷺ في مكة نحو عام ٥٧٠م. ولما بلغ سن الأربعين أدرك مهمته الإلهية (بنـزول الوحي عليه). كانت الإصلاحات التي ابتدأ بها غير سارة للقبيلة الحاكمة آنذاك، والمعروفة بقريش. ونتيجة لاضطهاده وتعرض حياته للخطر، هاجر إلى المدينة المنورة. وابتداءً من السنة الأولى لهجرته (٦٢٢م) يبدأ عهد الهجرة أو التاريخ الإسلامي. وبما إنه أُستقبل بحفاوة من أهل المدينة، والتف حوله صحابته، انطلق في نشر عقيدته. وفي سنة ٨هـ (عام ٦٢٩م) عاد منتصرًا إلى مدينته الأم (مكة المكرمة) حيث شهدت في السنة التي بعدها قرارًا بألاّ يدخل مكة غير المسلم. إن كل من يخالف هذا الأمر تنتظره عواقب وخيمة. فقد أخبرنا داوتي بشهادة جنديين ركبا في القافلة الدمشقية بأن موسم

---

(١) ماكولاي هي القرية الإنجليزية التي عاش ودرس فيها مؤلف هذا الكتاب وهو رالي.

(٢) كانت شركة كوك تُنظم رحلات سفر إلى مختلف دول العالم آنذاك وهي من أولى الشركات السياحية في العالم.

الحج لا يكاد يخلو من بعض الأشخاص الذين أعدموا بتهمة نصارى دخلاء. وقد شاهد هذان الجنديان بأمّ أعينهما مؤخرًا غربيين قبض عليهما في مِنى لأنهما كانا متلبسين بالكتابة على دفاتر جيب. وعند التحقيق معهما وُجد أنهما نصرانيان، وتم إعدامهما. بيد أن وجود التحريم وما يرافقه من مخاطر محدقة قد كان له وقع المغناطيس في النفوس التواقة إلى المغامرة. من الممكن جمع بضع أمثلة على مر القرون لأوربيين تحلوا بالشجاعة، حملوا أرواحهم على راحاتهم متنكرين بالزي الإسلامي، ومتقمصين العادات الإسلامية، ومتغلبين على صعوبات اللغة والدين، ومندفعين في موكب صحبة غريبة، ومتعرضين لمتاعب الترحال في البر والبحر، في ظروف مناخية قاسية، قد خرجوا سالمين غانمين بمعرفة انتزعوها انتزاعًا من «عرين أسد الإسلام».



منظر لأحياء مكة شرق المسجد الحرام

تقع المنطقة المقدسة في الحجاز في الجزء المركزي لشبه الجزيرة العربية، والمعروفة بالصحراء العربية الكبرى. وتقع مكة في واد قاحل منخفض

متعرج، يبلغ طوله ميلًا ونصف الميل، وعرضه ثلث ميل، يحيط به سلسلتان جبليتان صخريان قاحلتان بقمم حادة. موقعها منعزل جدًا إلى درجة أن المسافر لا يدري أنه وصل حتى تطأ قدماه ترابها. بنيت منازلها بشكل رئيس من الحجارة، وكانت ذات طوابق (أدوار) متعددة. يقطع الشارع الرئيس المدينة من أولها حتى آخرها، أما شوارعها الصغيرة فتتفرع عن الشارع الرئيس. أما وسط المدينة وهو الجزء الأعرض والأكثر انخفاضًا من الوادي، ففيه المسجد الحرام. وبما أنه بطبيعته واقع في بطن الوادي فإن المنازل تطل عليه في شكل شرفات متدرجة من حوله حتى تعانق أعالي الجبال أطرافها. يجعله موقعه المنخفض هذا عرضة للغمر من جراء السيول المتدفقة بعد الأمطار الغزيرة التي تدمر مكة أحيانًا. وتلتقي المسيلات النازلة من شعاب الجبال لتتجمع في سيل واحد يجتاح المدينة حتى إنه يدمر المنازل في بعض الأحيان. ولهذا السبب لا يوجد في مكة بناء أقدم من أربعة قرون. أما في أحيان أخرى فالجو جاف جدًا إلى درجة أن الخبز - على ذمة أحد الحجاج - إذا ما ترك مكشوفًا على السطح لبضع ساعات، يصبح له رنين كرنين المعدن من شدة التيبس.

تعتمد مكة كلية على البلدان الأجنبية في المؤن، ولجدبها فإنهاتستورد حتى المستلزمات الضرورية اليومية، مثل: الرز والدقيق، ولولا الحج لما قامت لها قائمة. كما أن سكانها في حال دائمة من التذبذب في مستويات المعيشة، شأنهم في ذلك شأن أصحاب الفنادق والمحلات التجارية في المنتجعات في أوربا. وترتفع أسعار المواد الغذائية لتصبح خيالية، كما في أيام المجاعة. أما أصحاب العقارات فيؤجرون الغرف بأسعار باهظة. إذ يأخذون أجرًا عن أيام الحج بقدر ما يكفي لأجرة منزل لسنة. أما شبان مكة المتأنقون فيجمعون المال عندما يضعون أيديهم على حاج غني يتمسكون بأهدابه، ويشدون بطرف ثوبه، كما أن خدم المسجد الحرام، وسدنة البيت والمتسولين الكثر يتنافسون فيما بينهم في لقمة العيش.

يقع ميناء جدة على البحر الأحمر على بعد (٤٥) ميلًا من مكة. يوجد في جدة قنصليات أوربية، إلا أن وجود أهل الكفر مسموح به على مضض عند العربي: فبعد الموت لا ترتاح عظامه في منطقة مقدسة، بل تدفن في إحدى جزر الميناء الصغيرة.

المسجد الحرام

يدعى المسجد الحرام بيت الله أو الحرم. يقع حسب الرواية العربية في مركز العالم، وتعد بقاعه قطعة من الجنة على الأرض، وسوف تعود إلى الجنة في اليوم الآخر. تتألف ساحته من فناء مفتوح ضخم، يمتد على مساحة تقدر بثمانية فدادين وربع الفدان. يحيط بالفناء صف رباعي من الأعمدة الرفيعة، تلتقي عند أقواس مدببة شبيهة بالأروقة، وبأسطح مستوية تحيط بها قباب بيضاء. وتمثِّل البيوت الجدران الخارجية للأروقة، وهي بيوت جميلة يسيل لها اللعاب، لكنها في متناول أهل الثراء من الحجاج فحسب، حيث بمقدورهم الإقامة بإحدى هذه البيوت التي تطل على ساحة الحرم (صحن المسجد). يوجد سبع مآذن وسبعة عشر بابًا لها أقواس أو تفرعات من دون أبواب، يسمح بالدخول في أي وقت من النهار أو الليل.

في وسط الساحة تقريبًا تنتصب الكعبة الشهيرة، بينما يعد صف الأعمدة حديثًا نسبيًا أضافه الخليفة عمر(١) أحد خلفاء الرسول المباشرين، والكعبة هي المعبد القديم للعرب الوثنيين. وقد ضاع أصلها في ظلمة عصور ما قبل التاريخ. وقد نصت تعاليم الإسلام التوحيدية على أن آدم قد بناها، ثم دمرها الطوفان [طوفان سيدنا نوح عليه السلام] ثم أعاد إبراهيم وإسماعيل بناءها،

---

(١) يقصد المؤلف الرواق الذي يحيط بصحن المطاف، وهذا الرواق الذي شاهده الرحالة بُني في وقت متأخر، وذلك في عهد التوسعة العثمانية التي قام بها السلطان سليم العثماني، واستغرق بناؤها عشر سنوات (٩٨٠ - ٩٨٩هـ) الموافق (١٥٧٢ - ١٥٨٢م). أما الخليفة عمر ابن الخطاب فقد وسَّع المطاف وذلك بأن أمر بهدم بعض الدور القريبة من الكعبة، وعوّض أصحابها، وتعد هذه أولى توسعات المسجد الحرام وذلك في سنة ١٧هـ (٦٣٨م).

ثم حُوِّلت زورًا وبهتانًا إلى عبادة الأصنام بشكل مؤقت. أما البناء الحديث للكعبة فيرجع إلى منتصف القرن السابع عشر[١]. وأُعيد بناؤها بسبب الضرر الذي لحق بها من الأمطار الغزيرة.

إن الكعبة ضخمة في حجمها، ومكعبة في شكلها، ومستوية في سطحها، تبلغ مساحتها (٣٨ × ٣٠) قدمًا، وارتفاعها (٤٠) قدمًا. وهي مبنية من حجر رمادي اللون، لكنه مستور بغطاء أسود قوامه الحرير والصوف، نقشت عليه آيات من القرآن على شريط فضي. يدعى هذا الغطاء «الكسوة»، وهو العطية السنوية لسلطان تركيا. إذ تُصنع في القاهرة ثم تُنقل إلى مكة في موسم الحج مع القافلة المصرية.

تُزال الكسوة القديمة ثم تُقَطّع قطعًا صغيرة لتباع إلى الحجاج بأسعار باهظة. فصدرية منها تعصم صاحبها وتحصنه[٢]. أما شريط منها فهي علامة دالّة على القرآن[٣]. ليس للكعبة نوافذ، وهي بباب واحد يرتفع عن الأرض سبعة أقدام ومطلي بالفضة. يسمح بالدخول إلى الكعبة ثلاث مرات في السنة، ورسوم الدخول للحجاج مرتفعة جدًا[٤]. يُدخل إليها بواسطة درج محمول على عجلات يوضع أمام الباب. يغطي السقف المستوي وجدران المرمر الداخلية كتان الدِمَقْس الأحمر[٥] المزهَّر بالذهب الذي ثُني ليرتفع ستة أقدام عن

(١) كان تجديد عمارة الكعبة إثر أمطار هطلت في يوم الأربعاء ١٩ شعبان سنة ١٠٣٩هـ أعقبها سيل جارف دخل الكعبة وهدم جدارها الشمالي والشرقي وثلثي الجدار الغربي فأمر السلطان مراد الرابع بتجديد ما تهدّم منها وإصلاحه سنة ١٠٤٠هـ.

(٢) هذه من البدع التي انتشرت لدى بعض الناس، وليس لها أصل في الدين الإسلامي.

(٣) هناك بعض الآيات القرآنية المنسوجة بخيوط الذهب والفضة توضع على الثوب، ويحاول بعضهم اقتناء هذه الآيات القرآنية.

(٤) الرسوم هنا ليست سوى ما كان يحصل عليه السدنة والأغوات من هبات وأعطيات خاصة.

(٥) في عهد الملك الراحل خالد بن عبدالعزيز استبدل بالثوب الداخلي الأحمر اللون ثوب أخضر.

الأرض. كما أن الأرضية من الرخام أيضًا. هناك ثلاثة أعمدة ملفوفة بالخشب المعقوف يستند عليها السطح. وقد قُوِّيت بعوارض من القضبان تتدلى منها مصابيح ذهبية[١]. قلة قليلة من الحجاج هم الذين يدخلون أقدس المقدسات. خارج الكعبة يوجد الحجر الأسود غائرًا في إحدى الزوايا الحادة لجدارها. ويظهر للعيان من خلال فتحة جُعلت في الثوب، يقال إنه أُعطى لإبراهيم من الملك جبريل، ويحيط به طوق من فضة بحيث يختفي وجه الحاج الذي يُقبله كله تقريبًا. لقد أصبح سطحه الخشن متآكّلًا من التقبيل واللمس. وتتفق الآراء على أنه ذو طبيعة بركانية.

قريبًا من الكعبة مباشرة توجد مساحة بيضوية الشكل (المطاف) مرصوفة بالمرمر وملمعة بأقدام المؤمنين، ومحاطة بأعمدة رفيعة من البرونز، بينها صفوف من المصابيح الزجاجية تتدلى من سلاسل. وخلف هذه المساحة على ارتفاع بضع بوصات تتناثر عدة مبانٍ صغيرة حول الكعبة أبرزها بناء بئر زمزم، وهي البئر نفسها المذكورة في التراث الإسلامي على أنها انبثقت إلى هاجر في هذا المكان. يتألف المبنى من غرفتين كبيرتين في إحداهما منبع البئر، وفي الأخرى أوعية لتوزيع الماء. تعلو المبنى قبة بيضاء. يوجد جدول تحت الأرض يزود الماء بهذه الغزارة، إلى درجة أنه على الرغم من الطلب المتواصل عليه في أثناء الحج فإن مستواه لا ينقص أبدًا. ومع كل المعاني الدينية المقدسة التي يتميز بها ماء زمزم فإن كل غريب يشربه أول مرة قد لا يستسيغه، وغالبًا ما يتسبب في ظهور تقرحات جلدية على الجسم[٢]. أما الأشياء الأخرى فتتضمن

(١) هذه العوارض في الأصل أضيفت لتعليق ما يُهدى إلى الكعبة من هدايا كالمصابيح والقناديل والتحف الفنية المصنوعة من الذهب أو الفضة التي كانت تُهدى إلى الكعبة من أقطار العالم الإسلامي المختلفة، وليست للتقوية.

(٢) صحيح أن ماء زمزم يحوي بعض الملوحة التي تزيد على نسبة الملوحة في المياه الأخرى، غير أنه مستساغ جدًا، ويُقبل عليه الناس لما فيه من الفوائد الجمة؛ كيف لا وقد قال عنه رسول الله سيدنا محمد ﷺ: «زمزم طعام طعم وشفاء سقم»، «وزمزم لما شُرب له». أما أنه =

قبري هاجر وإسماعيل[١] - وهناك الحجر (مقام إبراهيم) الذي وقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة، والمنبر، ومقامات (محاريب) المذاهب الإسلامية الأربعة، وقنطرة منفردة تدعى قنطرة النجاة[٢] يمر من تحتها الحجاج عند زيارتهم الكعبة أول مرة. خلف هذه الدائرة على ارتفاع بوصات قليلة يوجد ممرات مرصوفة حجرية تؤدي إلى الأروقة مرورًا بالحصوة. مستوى أرض الأروقة منخفض بضع بوصات عن مستوى الشارع، يوحي بأن المنخفض الذي تقع فيه الكعبة هو أخفض نقطة في وادي مكة.

إن الكعبة أهم رمز في الإسلام، وهي الهدف من الحج[٣]. وهي دائمًا وأبدًا في ذهن المؤمن الحق. يتوجه نحوها المسلمون خمس مرات في اليوم. وعند أوقات الصلاة، ومن كل أصقاع المعمورة من البلدان التي تمتد من طنجة إلى اليابان، ومن تومبوكتو إلى سمرقند تتجه أنظار مئة وثمانين مليون إنسان يعتنقون الدين الإسلامي[٤].

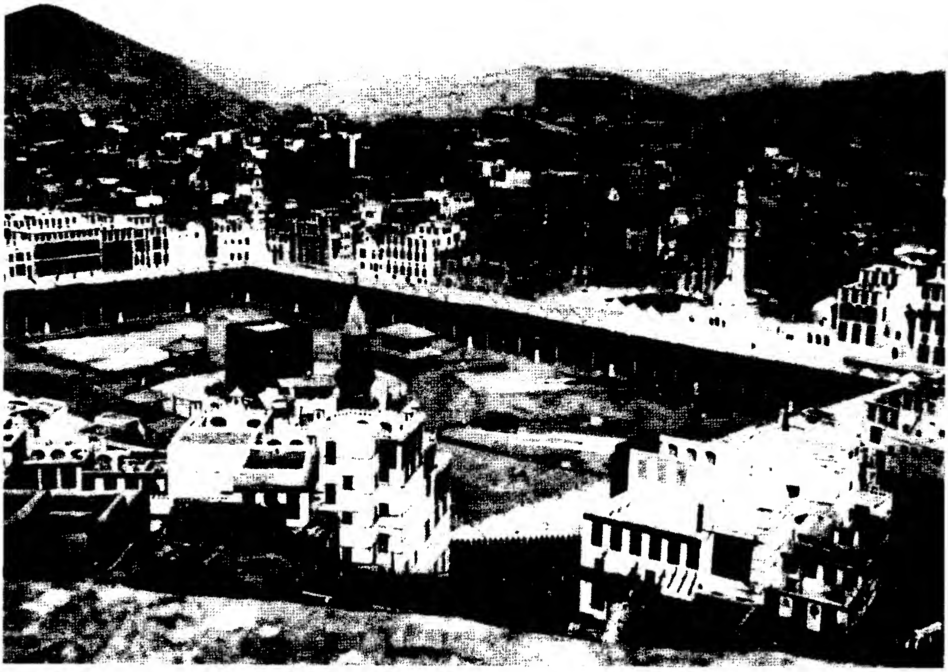
= يتسبب في ظهور تقرحات جلدية على الجسم فهذا ليس له أساس من الصحة. إنّ ملايين المسلمين يشربون من مياه زمزم ولا نجد مثل هذه التقرحات تظهر على أبدانهم وجلودهم، والمؤلف هنا نقل هذه الفرية من أحد الذين تحدثوا عنه ألا وهو جوزيف بيتس.

(١) يُقال: إن قبري هاجر وإسماعيل يوجدان في الحِجر في القسم الشمالي من الكعبة، والحجر هو جدار على شكل نصف دائرة تحيط بالجدار الشمالي للكعبة، وبعض هذا المكان جزء من الكعبة، اقتطعته قريش عند بنائها للكعبة حينما قصرّت بهم النفقة.

(٢) المقصود به باب بني شيبة الذي دخل منه سيدنا محمد ﷺ في فتح مكة وكان على حافة المطاف سابقًا.

(٣) الهدف من الحج ليس زيارة الكعبة، بل هو فريضة أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بأدائها مرة واحدة في العمر للمستطيع، وهدف الحج هو امتثال أمر الله أولاً.

(٤) يبلغ عدد المسلمين اليوم قرابة المليار وربع المليار نسمة.



المسجد الحرام والكعبة

الحج

كان الحج إلى مكة عُرفًا سائدًا في زمن العرب الوثنيين. قبل ولادة محمد ﷺ كانت الأصنام التي تُعبد موجودة داخل الكعبة، ويعود الفضل في ازدهار مكة التجاري إلى السوق السنوي الذي يقام في أثناء أداء الشعائر الدينية. وكان السبب الرئيس لمعارضة قريش لمبادئ التوحيد التي جاء بها محمد ﷺ خوفها من توقف الحج بما فيه من مكاسب مادية مرافقة له. لكنَّ محمدًا كان عالمًا بالطبيعة البشرية، فأبى أن يجتث العادات القديمة. صحيح أنه حطّم الأصنام، لكنه أبقى على الحج مع فرق في شعائره الوثنية التي جُعلت موافقة لتفسيرات القرآن الكريم(١).

أهم أركان الإسلام هي: الصلاة والصوم والزكاة. أضاف النبي ﷺ إلى هذه الفرائض فريضة رابعة هي(٢): على كل من امتلك القدرة والوقت أن يزور مرة واحدة في العمر المقام الرئيس لدينه [أي الكعبة](٣). في زمن

---

(١) الحج فريضة أمر الله بها إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [سورة الحج، الآية رقم ٢٧]، وليس عُرفًا سائدًا عند عرب الجاهلية، لقد أدخل العرب عادات وثنية على شعيرة الحج، فحينما جاء الرسول ﷺ أعاد الحج إلى طبيعته الحنيفية التي كان عليها في زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ولم يكن الإبقاء على الحج من أجل المنافع المادية كما ذكر المؤلف.

(٢) أركان الإسلام خمسة لا أربعة: هي الشهادتان، الصلاة، الزكاة، صوم رمضان، الحج إلى بيت الله الحرام.

(٣) الرسول ﷺ لم يُضف شعيرة الحج كما يرى المؤلف، وإنما الحج فريضة وعبادة أمر الله بها رسوله والمسلمين جميعًا. ولم يكن الرسول الكريم ﷺ إلاّ مبلّغًا بهذه الفرائض، ولم يضعها من عنده كما توهم المؤلف.

الأصنام كان الحج يقع في مدة محدودة من الخريف[١]. أما محمد ﷺ فقضى أن تكون السنة اثني عشر شهرًا قمريًا. وهذا يعني أن وقت الحج يتراجع إلى الوراء ثلاثة عشر يومًا سنويًا، أي في غضون ثلاث وثلاثين سنة يدور الحج على أيام السنة كلها[٢].

تُؤدى الشعائر الفعلية للحج في أثناء الأيام الاثني عشر الأولى من آخر شهر إسلامي (شهر ذي الحجة). من أكبر قوافل الحج البرية المتوجهة إلى مكة وأهمها على الإطلاق القافلة السورية. إذ تنطلق من القسطنطينية وتجمع الحجاج في طريقها إلى دمشق. ومن ثم تشد الرحال في رحلة تستغرق ثلاثين يومًا عبر الصحراء إلى المدينة المنورة. يرافقها باشا دمشق وقوات مسلحة لحمايتها من قبائل البدو. في أيام بوركهارْتْ (Burckhardt) بلغ العدد الإجمالي للحجاج (٥٠٠٠) بمن فيهم الجنود والخدم، وكان عدد الجمال ثلاثة أضعاف هذا الرقم. منها جمال للركوب ومنها لحمل الماء والزاد، وكانت الحاجة ماسة إلى ضعف هذا العدد لرحلة العودة، وعدد إضافي لاستبدال ما يموت منها. كان البدو الذين عُهد إليهم بالنقل حريصين على ألا يُثقلوا أحمال بهائمهم. ويبرم الحاج اتفاقًا مع موظف يدعى «المُقَوِّم» الذي يجهز الجمال والزاد، وما شابه ذلك مقابل مبلغ معين. كما أنه يقوم بأعمال التحزيم والتحميل عند الثالثة بعد الظهر. والساعة الأولى بعد شروق الشمس هي ساعة المسير. أما في الليل فتتحرك الأرتال الطويلة على الرمال على ضوء المشاعل، أو نباريس بأقفاص حديدية محمولة على أعمدة على أكتاف الخدم في كل القوافل لإنارة الطريق.

---

(١) لم يكن حج العرب في الجاهلية في فصل الخريف فقط كما يرى المؤلف، وإنما كان الحج في شهر ذي الحجة، وهذا الشهر أحد أشهر التقويم القمري، والتقويم القمري متغير باستمرار مقارنةً مع التقويم الشمسي.

(٢) لم يقرر الرسول ﷺ أن تكون السنة اثني عشر شهرًا وإنما ذلك أمر إلهي ورد في القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...﴾ الآية، [سورة التوبة، آية ٣٦].

يتقدم كلا القافلتين السورية والمصرية جمل مقدس يدعى «المحمل» يحمل هيكلًا تزيينيًا يحتوي على نسخة من القرآن[١]. كما تحمل القافلة المصرية أيضًا كسوة الكعبة الجديدة. تسلك طريقًا بريًا إلى السويس، ثم بالسفينة من هناك إلى جدة. كانت في السابق تعبر شبه جزيرة سيناء عبر القافلة، ثم تتبع الطريق المحاذي لساحل البحر الأحمر. يوجد أيضًا القافلة الفارسية من بغداد، والقافلة المغربية عن طريق تونس، فطرابلس فالقاهرة. وهناك قوافل من البصرة ومسقط واليمن وحضرموت في جنوب شبه الجزيرة العربية. وكذلك قافلة نجد وقافلة حائل التي تضم حجاج نجد وبعض قبائل من البدو، وقوافل أخرى تضم الكلدانيين وهم خليط من العرب والفرس. أما الهنود الذين يصلون إلى اليمن بحرًا فينضمون إلى القافلة أو يبحرون مع الرياح التجارية إلى جدة.

سوف يغير خط الحجاز الحديدي ظروف السفر هذه تغييرًا جذريًا. لا شك أن البدو ينظرون إليه بعين السخط لأنهم هم القائمون على النقل بالجمال. أو يتلقون معونات من الحكومات التركية والمصرية للسماح للقوافل بالمرور في أراضيها بسلام.

بالإضافة إلى العرب والأتراك والفرس والسوريين والمصريين وغيرهم، ينضوي تحت لواء دين الإسلام أتباعه من الهنود والماليزيين والجاويين[٢] والزنوج[٣]

---

(١) هذه عادات بدعية اصطلح عليها الناس والحكام في وقت متأخر خاصة أيام المماليك والعثمانيين، وهي عادات لا أساس لها من الصحة، فلا يوجد في الشريعة الإسلامية جمل مقدس ولا هيكل تزييني كما ذكر المؤلف.

(٢) الجاويون: تعبير يطلق في مكة على جميع سكان جزر الهند الشرقية الهولندية سابقًا تعرف الآن باسم إندونيسيا، وكلمة جاوي نسبة إلى جزيرة جاوة أكثر الجزر الإندونيسية سكانًا.

(٣) الزنوج: هم جميع العناصر السوداء التي تستوطن مكة بغض النظر عن الأقاليم السياسية التي قدموا منها، والمكيون يطلقون على جميع العناصر السوداء اسم «تكارنة» ومفردها «تكروني».

والتتار[١] والبخاريين[٢] والصينيين[٣]. وقبل موعد الحج بأسابيع أو أشهر تستنكف السفن عن الإبحار إلى موانئ قاصية، ونادرًا ما يخلو البحر من عبور موكب حج. ويومًا بعد يوم ومع وصول القوافل، تتقاطر أساطيل سفن الحجيج إلى جدة. كانت ظروف السفر بالبحر حتى عهد قريب عارًا على الإنسانية. اتخذت الحكومات الآن إجراءات ضد الازدحام الشديد الذي يعود إلى جشع أصحاب السفن.

أنفقت الحكومات مبالغ لا يُستهان بها في الماضي لترحيل أولئك الذين قدموا إلى الحج من دون وسائل كافية. على المسلم أن يبذل الصدقات وهو يؤدي الحج. لذا يبدأ الحاج الفقير رحلته وفي ذهنه شق طريقه بالتسول. وكانت الحكومة الفرنسية بشكل خاص فعالة في تصديها لهذا الأمر. كان يترتب على رعاياها الجزائريين أن يثبتوا أنهم يملكون ألف فرنك فرنسي قبل السماح لهم ببدء الرحلة.

من المجالات الأخرى التي اتخذت الحكومات إجراء بشأنها الوقاية من مرض الكوليرا. إذ يصل الحجاج إلى الحجاز منهكين من المشاق التي كابدوها في رحلتهم الطويلة، وهذا يجعلهم عرضة للعدوى

---

(١) التتار: أحد الشعوب الإسلامية التي استوطنت حوض نهر الفولغا، وقد وصلها الإسلام عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون بالغراء مع جماعات البلغار، وكانت في السابق تدين بالوثنية، ومنذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي احتلت منطقة الفولغا روسيا القيصرية، ولما قام الاتحاد السوفيتي على أنقاض روسيا القيصرية تكونت جمهورية خاصة بالتتار تعرف باسم «تتاريا» وعاصمتها قازان، وتضم معظم العنصر التتري مع وجود تتار في مناطق وسط آسيا الإسلامية.

(٢) البخاريون: نسبة إلى مدينة بخارى إحدى مدن جمهورية أوزبكستان الإسلامية التي كانت إحدى مناطق الاتحاد السوفيتي السابق، وكلمة «بخارى» في مكة تعني جميع السكان القادمين من تركستان الروسية أو تركستان الصينية.

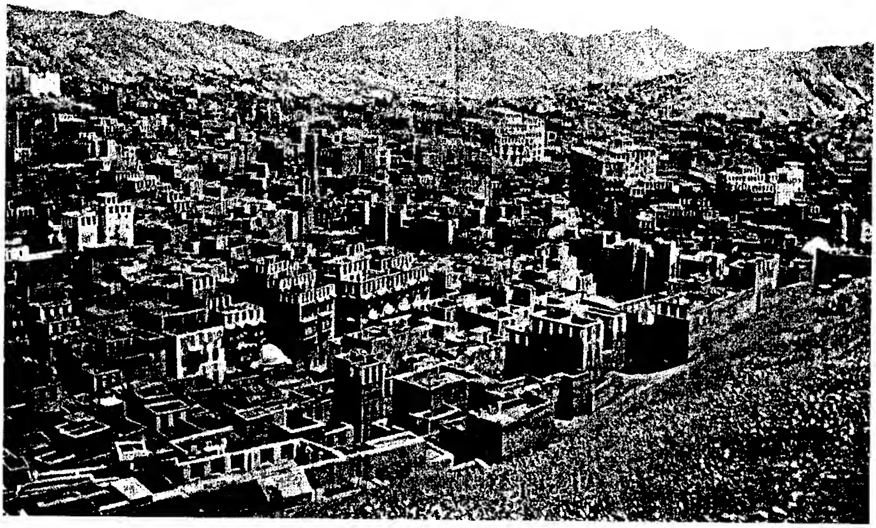
(٣) الصينيون: العناصر الصينية في مكة وتشمل سكان تركستان الصينية أو إقليم سنكيانج وهم عناصر تركية استوطنت وسط آسيا ثم اعتنقت الإسلام.

بشكل خاص. عند مغادرتهم مكة يتوزعون على أنحاء العالم كلها، ينشرون المرض في طريقهم. تسبب هذا الوباء العظيم سنة ١٢٨٢هـ (عام ١٨٦٥م) بموت (٦٠٠٠) ضحية في مصر وحدها. وقد حمله الحجاج معهم إلى بلاد نائية مثل نيويورك وجواديلوب[1] في البحر الكاريبي. ولم يُكتشف ذلك حتى سنة ١٢٩٢هـ (عام ١٨٧٤م). في سنة ١٣١١هـ (عام ١٨٩٣م) أصبحت شوارع مكة تمثل مشهدًا مروعًا. فقد كان الأشخاص الذين يمشون فيها يحدقون إلى الأمام دون أن يلتفتوا يمنة أو يسرة لكي يتجنبوا رؤية أكوام الجثث الملقاة على الجانبين. لذا فرَّ معظم الحجاج إلى جدة. مات كثير منهم في الصحراء، وأصيب آخرون بالمرض حين وصولهم الميناء. حُصِروا في حظائر. مُنع الغذاء والماء عن أولئك الذين استنفدوا مؤنهم، أما البقية الباقية منهم الذين ما زال في حوزتهم قليل من المال فقد استُغلوا دون شفقة من الحراس.

ولتجنب انتقال الأمراض قامت دول مثل إنجلترا وفرنسا التي تحوي مستعمراتها مسلمين، وتعلم أنه ليس بمقدورها منع الحج باتخاذ خطوات لتنظيمه إذ إن ظروف السفر بحرًا قد تحسنت، وأنشئت مراكز الحجر الصحي عن طريق وكالات الحج. وكان مركز الحجر الصحي في الطور للحجاج المصريين أفضل مركز في العالم من حيث تجهيزاته. ومع ذلك انتشر المرض سنة ١٣١٩هـ (عام ١٩٠٢م) من خلال جرار ماء زمزم أحضرتها منها امرأة عربية.

---

(١) هي إحدى جزر الأنتيل الصغرى في البحر الكاريبي، وهي تتبع جمهوريات أمريكا الوسطى.



منظر لمكة

أول أمر يفعله الحاج هو خلع ثيابه على مسافة معينة من مكة[١] ليرتدي لباس الإحرام، ويتألف من قطعتين من قماش الكاليكو القطني أو الكتان أو أي قماش خالٍ من الزينة وغير مَخيط. عُرف عن الحجاج الأغنياء أنهم يلبسون شالات كشميرية أزيلت منها الزخرفة. يُلَف أحد الرداءين حول الجسم، والآخر فوق العاتق الأيسر وتحت الذراع اليمنى. الرأس حاسر، لكنه لا مانع من استعمال المظلة لتحميهم من الشمس. كما يجوز لبس الصندل أو أي حذاء يكشف مشط القدم. يُلزم المحرم نفسه بألا يحلق رأسه، وألا يجادل، وأن يكف عن أي مثيرات أو ممارسات جنسية، وألا يقتل شيئًا حتى ولو حشرة. يُفرض على كل من يدخل مكة أن يلبس الإحرام سواء أكان وقت الحج أم لم يكن، وأيًا ما كان غرضه من الدخول. حتى سكان المدينة المقدسة الذين غابوا عنها أربعين يومًا ملزمون هم أيضًا بالتزام هذا التشريع[٢]. ومن فعل غير ذلك تلزمه الفدية.

(١) هذه الأماكن هي المواقيت التي يبدأ منها الإحرام.

(٢) يستحب لمن يدخل مكة من غير الحاج أن يدخلها محرمًا، لكن الذي لا ينوي الحج أو =

عند وصوله إلى مكة يجب على الحاج أن يختار مطوفه الذي يلقنه الأدعية ويُؤمِّن له مكان إقامته وطعامه وشرابه. يتجه الحاج مباشرة إلى المسجد الحرام الذي يدخله من باب السلام من الجهة الشرقية. بعد عبوره الفناء عبر أحد الممرات الحجرية ومروره من تحت قنطرة النجاة[١]، يجد نفسه في الساحة البيضوية (المطاف) تحت ظل الكعبة، ثم يمشي حولها سبع مرات فيما يعرف بالطواف. بعد الطواف يستلم الحجر الأسود، ثم يشرب من ماء زمزم، ويغتسل منه حيث ينفض عنه ذنوبه كما ينفض الغبار. ثم يتوجه للسعي أو الجري سبع مرات من أول الشارع حتى نهايته، بين الجبلين المقدسين، بين الصفا والمروة، إحياءً لذكرى بحث هاجر المنظم عن الماء.

أما الحدث الرئيس للحج فهو شعيرة عرفات. إذ قد يحظى الحاج الذي يقف في صعيد عرفات بشرف لقب «حاج». يبعد جبل عرفات[٢] اثني عشر ميلًا عن مكة شرقًا على طريق الطائف. وهو تلة وعرة من الجرانيت بارتفاع حوالي مئتي قدم، ويقع عند أقدام سفح جبل أعلى منها. جُعل درج في جهة واحدة إلى القمة، وأُحيط بجدار. تعني كلمة «عرفات» «المعرفة/ الإدراك». تقول الأساطير: إن آدم وحواء تقابلا هنا وتعارفا بعد مئة سنة من الفرقة والتجوال الذي تلا طردهما من جنة عدن[٣]. في اليوم الثامن من ذي الحجة [يوم التروية] هناك نزوح جماعي عالمي من مكة. يُقضى الليل على سهل عرفات[٤]. وفي اليوم

= العمرة ليس ملزمًا بذلك.

(١) يُقصد بقنطرة النجاة باب بني شيبة القديم الذي كان يفضي إلى المطاف.

(٢) تعارف الناس على قول جبل عرفات، ويقصدون بذلك جبل الرحمة الموجود في عرفات، وعرفات ليست جبلًا وإنما هي سهل. يوجد به جبل الرحمة ويقع في سفح جبل سعد والوصف هنا لجبل الرحمة.

(٣) أسطورة تلاقي آدم وحواء على جبل عرفات هي إحدى الأساطير، وليس عليها دليل من القرآن أو السُّنة.

(٤) اليوم الثامن ينتقل الناس إلى منى في يوم التروية حيث يبيتون فيها ثم ينطلقون في صباح اليوم التالي (التاسع) إلى عرفات.

التالي عند الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبًا تُضرَب الخيام وتحمل على الجمال، ويجتمع الحشد العظيم حول الجبل. على قمة الجبل يتربع الإمام على جمل: هكذا فعل الرسول ﷺ حينما خطب بأتباعه. تستمر الخطبة حتى الغروب[١] حيث يندفع الحجاج باتجاه الوادي الذي يؤدي إلى مزدلفة. المشهد مشهد زحام شديد تتخلله الفوضى. إذ يموت كثيرون تحت الأقدام وذلك لاندفاع التيارات البشرية الجارفة من سهل عرفات لتصب في مجرى ضيق (المأزمين).

يبيت الحجاج الليل في مزدلفة، حيث يجمعون كمية من الحصى الصغيرة يلفونها بالإحرام. وجهتهم التالية «منى» وهي في المنتصف بين مكة وعرفات، وهي وادٍ وعر على شكل شارع واحد طويل جدًا. تقف إلى أحد جانبيه ثلاث دعامات على مسافة قصيرة من بعضها تعرف بأعمدة الشيطان [الجمرات]. هنا ظهر الشيطان لإبراهيم عليه السلام الذي اضطره إلى التقهقر برجمه بالحصى بإيحاء من الملك جبريل. يوميًا في العاشر والحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة حيث يكون الحجاج في منى يرمون سبع حصيات على كل جمرة.

في منى أيضًا كاد إبراهيم يقدم إسماعيل - لا إسحق - قربانًا. ولإحياء هذه الذكرى هناك ذبح شاة بعد شعيرة رجم الشيطان[٢]. تُجلب الأضاحي لهذا الغرض من وسط الجزيرة العربية واليمن. إذ يشتري الحاج الشاة ببضع دولارات أمريكية، يوجه وجهها نحو الكعبة ويقطع عنقها. عندئذ يمكن خلع لباس الإحرام وحلق الرأس. يوجد كثير من الحلاقين في منى من أجل هذا الغرض.

---

(١) لا يتربع الإمام على جمل في أعلى الجبل، ولم يفعل ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام، والخطبة «خطبة عرفات» لا تستمر حتى الغروب، وإنما هي خطبة عادية، ووقتها يقصر ويطول بحسب الخطيب، إلا أنها لا تمتد إلى الغروب كما ذكر المؤلف.

(٢) الذبح يكون بعد النزول من المزدلفة ويتزامن معه الحلق أو التقصير أو الرجم، أو الطواف، لا على الترتيب ليتسنى للحاج أن يتحلل التحلل الأول من الإحرام.

من الأوقات المفضلة لدخول الكعبة وقت الرجوع من منى حيث تكتسي كسوتها الجديدة. ومن الشعائر الأخرى أداء العمرة: وهي زيارة لمسجد يبعد حوالي ثلاثة أميال عن مكة [مسجد السيدة عائشة أم المؤمنين بالتنعيم][١].

مع أن مدة موسم الحج ثلاثة أشهر، فإن القوافل الكبيرة توقِّت وصولها قبل بضعة أيام من يوم عرفة، وتغادر بعد بضعة أيام منه. إلا إن الحجاج يمكثون بشكل مستقل لمدد أطول أو أقصر. ونادرًا ما تخلو المدينة المقدسة منهم تمامًا. إذ قبل أن يغادر المتأخرون من الحج السابق، تبدأ طلائع الحج اللاحق بالوصول. وبما أن فرصة المسلم في الثواب كبيرة في الطواف، فإن الساحة البيضوية [أي المطاف] لا تخلو من الطائفين أبدًا. ليلًا أو نهارًا ترى جموع الطائفين بالكعبة. عُرف عن بعضهم أنهم مكثوا أشهرًا في ساحة المسجد على أمل أن يحصل على فرصة لأداء الطواف وحده لينال الجزاء الأوفى في الآخرة[٢]. أما ماء زمزم فلا يرتوي الحاج منه أبدًا. إضافة إلى ذلك يستحضر كفنًا يُغطسه في ماء النبع المقدس ويستبقيه لدفنه. كما أنه يحمل معه إلى ذويه وأصدقائه زجاجات وجرارًا من هذا السائل الثمين[٣].

لم يخل الحج قط من التجارة. في أيام الجاهلية كانت تقام الأسواق في مكة قبيل الحج وبعده[٤]. هذا ويلوذ كثير من الأشخاص بمكة لأسباب

(١) العمرة ليست زيارة لمسجد التنعيم، وإنما هي طواف وسعي، يلزمه الإحرام الذي يكون من الحل خارج الحرم من أي موقع كان، ومن هذه المواقع مسجد عائشة أو مسجد التنعيم.

(٢) ثواب الطواف حاصل سواء أطاف المرء منفردًا أو مع جماعة، ولا يزيد ثوابه إن طاف وحده دون وجود طائفين معه.

(٣) نودّ أن نشير إلى ما ذكره المؤلف في السابق من أن ماء زمزم يسبب تقرحات جلدية على الجسم، كيف صدّق المؤلف رواية أحد الرحالة الذي ذكر هذا الكلام، والذي ربما لم يذق طعم زمزم، ولم يصدق ما يفعله الملايين من المسلمين من شربهم لزمزم، وحمله إلى أصدقائهم؟!

(٤) كانت تقام في الأشهر الحرم أسواق مجنة وذي المجاز وهذه المناطق قريبة من منى وعرفات.

تجارية بحتة. إذ يتحول الشارع الرئيس على سوق مفتوحة حيث تعرض كل المنتجات الشرقية للبيع. فترى هناك جلود الماعز الحمراء والصفراء من المغرب، والطرابيش من تونس. ويعرض الأتراك الأوربيون أشياء مطرزة، أما إخوانهم الأناضوليون فعندهم السجاد الحرير. وتتنقل العين من شال الوبر الناعم (أنغورا) أو الشال الأفغاني إلى المناديل والحرير وقماش الكشمير الفارسي. أما الهنود فيميطون اللثام عن أشياء رائعة الجمال تغري البدوي كالأسلحة المحفورة والمرصعة. كما يوجد أرتال فوق أرتال من اللبان والفواكه المجففة والسكاكر. أما العرب اليمنيون فيجلبون المصنوعات الجلدية وجلود الأفاعي اللولبية الاستوائية. ويسهم زنوج السودان ببضائع متواضعة من القطن والسلال. أما اللؤلؤ والتوابل والقماش والحرير فقد كوَّنت حسب قول فارتيما «سوقًا تجارية شهيرة لكثير من الأشياء الثمينة».

أخيرًا، تُعدّ مكة معقل تجارة الرقيق، وتدين في ذلك للحج[١]. إذ يوجد نظام مدروس بدقة للخطف[٢]. ويقام سوق النخاسة على مرمى حجر من الكعبة[٣].

(١) بعد الرجوع إلى المصادر الأصلية لم يذكر أحد من الكتاب الذين تحدث عنهم المؤلف أن تجارة الرقيق تدين بوجودها للحج. ولا ندري من أين استقى المؤلف هذه المعلومات؟

(٢) إن نظام الخطف بقصد الاسترقاق لم يكن موجودًا في مكة وهذه تهمة باطلة، كان الأوربيون والأمريكيون يمارسون ذلك في إفريقيا من أجل المكاسب المادية ويبيعوهم بصفتهم أرقاء في أمريكا وغيرها.

(٣) كان سوق الرقيق دكة كبيرة عند باب دريبة بجانب المسجد الحرام.

المدينة المنورة

إلى المدينة المنورة هاجر محمد ﷺ بعد إيذائه من قريش، علمًا أنه أكد من قبل أن المدينة كانت تواقة إليه. منذئذ تولى القيام بغزواته الناجحة، وفتح مكة. وفي المدينة أسس خلافة الإسلام، وفيها مات وفيها دفن.

يوجد أربعة طرق من مكة إلى المدينة تراوح أطوالها بين (٣٠٠) و(٥٠٠) ميل[١]. يختلف مظهر المدينة كثيرًا عن مظهر مكة. فحجمها بقدر ثلث مكة، وبيضوية الشكل ومحاطة بسور أبيض. تقبع في جوف سهل فسيح. على كلا جانبيها ضواح أكبر امتدادًا من المدينة نفسها. وخلف هذه الضواحي تمتد الحقول ومزارع النخيل. يرجع سر خصوبتها إلى وفرة المياه الجارية.

في الحي الشرقي من المدينة يُرى عن بُعد خمس مآذن والقبة الخضراء تعلوها كرة ذهبية وهلال. يرقد تحتها ضريح النبي ﷺ. ليس هناك من يتشيع للمدينة ويدعي بأنها أقدس من مكة، لكن الإجماع العام في الإسلام يصب في صالح قدسية الكعبة أكثر. على أية حال، المدينة وحدها هي التي شهدت أمثلة غريبة، حيث قام الحجاج بعد النظر إلى الضريح بتدمير بصرهم بالتحديق بشدة في قرميدة حمراء حارة[٢].

يقود الشارع الرئيس للمدينة من باب المصري على المسجد

(١) المسافة هي بالكيلومترات وليس بالأميال.

(٢) هذه أمور فردية لا يمكن تعميمها، وهي لا تتناسب ومقاصد الشريعة، ولا تتواءم مع هدف زيارة قبر الرسول ﷺ.

النبوي. ويسمى أيضًا الحرم، وهو مشابه في الشكل لحرم مكة، لكنه أصغر منه. كما أن الأروقة التي تحيط بالساحة المفتوحة أقل تنظيمًا: إذ تتنوع صفوف الأعمدة فيها بين ثلاثة وعشرة. أما الفناء الذي تحيط به فمغطى بالرمل، وكذا أرضية الأروقة في الجهة الشمالية. بيد أن تلك التي في الشرق والغرب مرصوفة بحجارة خشنة، أما الرواق الجنوبي فأعمدته متراصة ومتناسقة أكثر من أي مكان آخر حيث تتسلل إليه الأنوار عبر نوافذ مطلية الزجاج طويلة، وقد وضعت على الجدار الداخلي للمسجد المرصع بالمرمر والفسيفساء. إذ يوجد جهة الزاوية الجنوبية الشرقية منه ضريح النبي محمد ﷺ.

هناك بناء مستقل يُعرف بالحجرة. وهي شبه مربعة في شكلها، بارتفاع ثلثي الأعمدة ومفتوحة من الأعلى. وهي على بُعْد خمسة وعشرين قدمًا من الجدار الجنوبي وخمسة عشر قدمًا من الجدار الشرقي. يحيط بها سياج من قضبان حديدية مطلي باللون الأخضر على شكل شبكة. السياج متراص بنقوش برونزية وفضية، بحيث لا يرى داخل السياج إلا من خلال نافذة صغيرة واحدة في الجهة الجنوبية. كل ما تراه العين هو ستارة، ولم يَرَ أوربي شيئًا خلفها. يقال: إنها تغطي بناء حجريًا مربعًا يحوي قبور النبي ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. هناك أيضًا قبر خال ينتظر عيسى بن مريم[1] حينما يعود إلى الدنيا. تحت ستارة منفصلة يرقد رفات فاطمة بنت محمد[2]. يوجد أربعة أبواب للسياج الخارجي، وممر ضيق بينه وبين الستارة التي تخفي قبر محمد ﷺ.

---

(١) لا يوجد قبر خال ينتظر قدوم عيسى عليه السلام، وهذه من الخرافات التي لا أساس لها من الصحة.

(٢) فاطمة الزهراء رضي الله عنها مدفونة بالبقيع، وليس في المسجد.



فناء المسجد النبوي
(من صور جيرفيه كورتيلمون من «مجلة المصور» الفرنسية، ٣ أكتوبر ١٩٠٨م)

المكان التالي في الأهمية هو الروضة. فقد قال النبي مرة: «ما بين قبري[1] ومنبري روضة من رياض الجنة». زُخرف جزء من الأروقة الجنوبية بنقوش رائعة للآيات القرآنية. كما رصعت الأعمدة بالقرميد الأخضر على ارتفاع خمسة أقدام أو ستة، ورُسمت عليها فنون الزخرفة العربية. يغطي الأرض سجاد تركي نفيس. يسير الحاج الذي يدخل المسجد من باب السلام من ركنه الجنوبي الغربي عبر ممر بين الجدار الجنوبي والفاصل الخشبي الذي يحجب القبر والروضة عن الرؤية.

(١) الحديث ما بين بيتي ومنبري وليس قبري.

بُني المسجد أصلًا على البقعة التي بركت فيها ناقة الرسول ﷺ حين وطئت قدماه المدينة أول مرة. أعيد بناؤه خمس مرات، ويعود البناء الحالي إلى القرن الخامس عشر الميلادي[١].

الحج[٢] إلى المدينة المنورة لا واجب في القرآن ولا هو بفرض. إنه ببساطة عمل مستحب يدعى بالزيارة. لا داعي للحاج أن يلبس الإحرام، لكن من المألوف ارتداء ثياب بيضاء. لا يوجد لا تقبيل ولا لمس، بل صلاة وسجود وحسب. يمكن القيام بالزيارة كاملة في عشرين دقيقة.

تبعد المدينة المنورة (١٣٢) ميلًا عن مينائها ينبع. فهي بذلك معزولة أكثر من مكة، والمخاطرة أكبر للنصراني الدخيل الذي تسول له نفسه.

(١) التجديدات التي تمت في المسجد النبوي هي أكثر من خمس مرات، فبعد إقامة الرسول ﷺ للمسجد في مكانه الحالي، قام الخليفة عمر بن الخطاب بتوسعته سنة ١٧هـ، ثم تلاه عثمان بن عفان بزيادة أخرى عام ٢٩ - ٣٠هـ، ثم جاء الوليد الذي أعاد بناءه وزاد فيه سنة ٨٨ - ٩١هـ ثم المهدي العباسي سنة ١٦١ - ١٦٥هـ ثم زيادة السلطان أشرف قايتباي سنة ٨٨٨هـ، ثم جاءت زيادة العثمانيين في عهد السلطان عبدالمجيد الثاني سنة ١٢٦٥ - ١٢٧٧هـ أي في القرن الخامس عشر الميلادي، وفي العهد السعودي تمت التوسعة الأولى في عهد الملك سعود سنة ١٣٧٣هـ. وأخيرًا جاءت الزيادة الحالية للمسجد النبوي الشريف في عهد خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبدالعزيز رحمه الله، التي أصبحت سعة المسجد بموجبها قرابة ٨٢,٠٠٠ م^2.

(٢) لا يُطلق على زيارة مسجد الرسول ﷺ في المدينة اسم حج.

لودوفيكو فارتيما (Ludovico Bartema)
(١٥٠٣م)

كان أول أوربي يزور مكة ويسجل انطباعاته لودوفيكو فارتيما «وهو شاب من مدينة روما». «رغبة جامحة بالمعرفة» كانت الحافز وراء رحلته. لا شيء كان يريح باله الذي لا يهدأ سوى رؤيته بأم عينه حقيقة العجائب التي تحدث عنها المسافرون في الشرق. سوف يترك الأبحاث الظاهرية للآخرين «ليحبو على الأرض حبوًا ويعاين موقع الأرض والمناطق وأخلاق الناس وعاداتهم». في خضم مطاردته للمعرفة تحمَّل تبعات «الجوع، والعطش، والبرد، والحر، والحروب، والأسر، والأهوال».

في سنة ٩٠٨هـ (عام ١٥٠٣م) غادر مدينة البندقية متوجهًا إلى الإسكندرية. ثم زار القاهرة وبيروت وطرابلس وأنطاكية ودمشق. اجتمع في دمشق مع «قبطان مملوكي معين» وصمم على زيارة مكة بصفته مرتدًا مملوكيًا[١]. استطاع بعد جهد جهيد وثمن باهظ وهدايا كثيرة أن يتدبر أمر جواد جيد وكساء.

في ١٣ شوال (١١ إبريل) غادر دمشق بصفته واحدًا من ستين مملوكًا خُصص لهم مكان في قافلة كبيرة. لعل في الأمر مبالغة، لكنه يقدر عددها بأربعين ألف رجل وخمسة وثلاثين ألف جمل. استغرقت الرحلة إلى مكة أربعين يومًا، من ضمنها بضعة أيام توقفت فيها القافلة في المدينة. نشب قتال

---

(١) مرتد تعني هنا انه اعتنق الإسلام وارتد عن دينه الأول.

مع البدو الذين طالبوا بدفع نقود للماء. تمركز رجال القافلة فوق هضبة، ووضعوا الجمال بصفتها درعًا واقيًا والتجار في القلب. ودون كبير عناء صدوا الأعداء الذين كانوا غير مسلحين وعراة. كان عرب الحجاز «ذوي بنية صغيرة قميئة ولون بين الأصفر والأسود». عند الوصول إلى المدينة تيقن فارتيما من كذب الحديث القائل إن تابوت محمد كان يتأرجح في الهواء بقوة جاذبة لحجر مغناطيسي[١]. ثم يعطي وصفًا بيانيًا للصحراء بين المدينة ومكة: سهل عريض عظيم تغطيه رمال[٢] بيضاء في الطريق صغيرة صغر الدقيق. دهمتهم ريح رملية معاكسة، حتى إن ريحًا منعشة نفحتهم إلى درجة أنهم كادوا يرى بعضهم بعضًا على بعد عشر خطوات. ووجدت الجثث متيبسة إلى درجة أنها كانت شبيهة بالمومياء المحنطة.

لا بد أن فارتيما قد تقمص حماسة للمعرفة درعًا واقيًا ضد الانطباعات السيئة التي أقضت مضجعه. وكانت الكلمة العالقة بشفتيه دائمًا «قذر». خيام البدو السود «قاسية وقذرة». هناك مذاهب كثيرة وطوائف وشقاق «بين هذا النمط من الرجال القذرين». إنهم يتركون المدينة «راضين، أو بالأحرى ضجرين من قذارة الدعاة وقرفهم، والخدع، والتفاهات والنفاق»[٣].

---

(١) لا ندري من أين أتت مثل هذه الرويات. ومثل ذلك من تأثير بعض القصص التي تروى عن القديسين النصارى وكراماتهم. وليس لمثل هذه الأحاديث أي صلة بالميثولوجيا العربية، وربما تكون مثل هذه الروايات شائعة في الغرب في تلك الأحيان.

(٢) يذكر بيرتون أنه من المستحيل أن نحدد الطريق الذي سلكته القافلة الدمشقية عام ١٥٠٣م لعدة أسباب أولها أننا متأكدون انه لا يوجد بحر من الرمال بين المدينة ومكة. ويذكر محقق النسخة الإنجليزية المترجمة عن الإيطالية (بادجر) أنه من المحتمل وقوع خلط وأن المقصود منطقة ما بين دمشق والمدينة.

(٣) هذه النظرة الدونية للمسلمين من قبل هؤلاء الرحالة تنم على حقد وضغينة وعدم موضوعية. إذ من الإنصاف في الحديث أن يكون المرء غير متحيز. فإذا كانت خيام البدو قذرة فإن كل الحجاج ليسوا بقذرين كما صورهم الكاتب. والدليل على ذلك أن كثيرًا من أمثال هذا الرحالة الذين رأوا مشاهد الحج قد انبهروا بهذا اللباس الموحد، وهذا الخشوع الذي يعتري هذا الجمع الغفير من الناس في الحج. وحتى حينما أراد إنصاف هؤلاء الناس =

وصل مكة في ٢٠ من ذي القعدة (١٨ مايو) وأعلنها صراحة أن المظهر القاحل للمدينة أثبت أنها لا تلقى عناية الله[١]. كانت منازلها البالغة (٦٠٠٠) منزلٍ «مبنية أيضًا كمنازلنا». لم ير قط من قبل مثل هذه «الوفرة والارتياد الهائل» للناس. كان الماء أهم من أي شيء آخر: فاثنا عشر بنسًا [ما يعادل نحو ٦٠ هللة الآن] لا تشتري ما يروي ظمأك ليوم واحد. كان المعبد [الكعبة المشرفة] وسط المدينة أشبه ما يكون بتمثال كولوساس (Colossus) رودوس الضخم[٢] في روما، وبحلبة مسرح روماني، ليس من المرمر أو الحجر السوري، بل من القرميد المحروق[٣]. عند المدخل تلألأت الجدران المطلية بالذهب على كلا الجانبين بروعة لا مثيل لها. تحت الأماكن المقنطرة[٤]، يوجد حشود كبيرة من الرجال (عطارين) ما بين خمسة آلاف وستة يتاجرون بالمراهم الحلوة والمساحيق الذكية الرائحة التي تستخدم بصفتها عطورًا. من هناك حُمِل كل نوع من الروائح الجميلة إلى بلاد الإسلام. لقد فاقت رائحتها المستديمة كل التصور «متفوقة بجلاء على حوانيت الصيادلة». كانت الكعبة أشبه ببرج في وسط الساحة «ملفوف بقماش سميك مطرز من الحرير». «إنهم يدخلون إلى داخل «الكعبة» من باب فضي، وعلى كل جانب أُحيط بأوعية مفعمة بالروائح العطرة».

= حين قال: «يتركون المدينة راضين» وهذا حال كل من يزور المدينة يكون مبتهجًا ومسرورًا، لكنه أضاف انطباعاته أن ذلك لم يكن رضًا وإنما كان ضجرًا ونفاقًا.

(١) صحيح أن مكة المكرمة ذات مظهر جاف قاحل في ذلك الوقت، لكنها حظيت بعناية الله خلاف ما زعمه الكاتب، كيف لا والرسول ﷺ يقول فيما معناه: والله إنك أحب أرض الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت. وربما يقصد المؤلف هنا من حيث الأمطار والأجواء المناخية.

(٢) هذا التمثال هو أحد عجائب الدنيا السبع، ولكن التشبيه هنا غير صحيح وربما ساقه المؤلف هنا ليعرف للقارئ الأوربي وصف المكان.

(٣) الحجارة المستخدمة في بناء رواق المسجد الحرام ليست من القرميد المحروق بل هي حجارة رملية رسوبية تعرف بحجر الشميسي.

(٤) الأماكن المقنطرة هي الأروقة الموجودة في المبنى العثماني للحرم المكي الشريف، وهذا الكلام عن البيع والشراء داخل أروقة الحرم غير صحيح، لأن البيع والشراء يتم في سوق المسعى.

كان ماء زمزم يحتوي على نترات الصوديوم[١]. عُيِّن ثمانية رجال لسحبها، وكانوا يصبون دلاء الماء على رؤوس أولئك الذين وقفوا قريبًا منهم «فغسّلوهم من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم» مع أنهم يلبسون الحرير[٢]. عندها كان هؤلاء يحلمون أنهم تطهروا من ذنوبهم التي غفرت لهم»[٣].

أراد فارتيما أن نصدق أن العشرين ألف متسول[٤] الذين رآهم في مكة قد اجتذبهم حظهم بأكل الخيار. إذ جُلِب عدد هائل من هذه الخضار من مصدر عربي خصيصًى للأثرياء[٥]. وكان الفقراء يتقاتلون على القشر. كان يشير عرضيًا إلى أنه كان يُسمح لهم أيضًا بالاقتيات على الأضاحي التي كانت تذبح في منى. يضيف أنه رأى حيوانات وحيد القرن في الحرم. كان أحدها كالحصان «بلون ابن عرس». كان قرن الأول بطول ثلاثة أذرع، أما الثاني فبطول أربع قبضات[٦].

---

(١) نسبة الملوحة في ماء زمزم أعلى من المعتاد نظرًا لوجود عدد من الأملاح الذائبة ومن أهمها كلوريد الصوديوم ونترات الصوديوم.

(٢) لبس الحرير هنا ربما قصد به لبس الإحرام، وهو من القماش العادي، وليس من الحرير.

(٣) الاغتسال بماء زمزم لا يطهر من الذنوب كما زعم الكاتب، وهذا الاعتقاد موجود لدى بعض طوائف النصارى حيث يعتقدون أن التعميد والاغتسال من ماء نهر الأردن يكفر الخطايا والذنوب. وفي الإسلام لا يوجد مثل هذا الاعتقاد. غير أن ماء زمزم مبارك حث الإسلام على شربه، وفي الحديث: «زمزم طعام طعم وشفاء سقم» و «زمزم لما شرب له».

(٤) لعله يقصد أن عدد المتسولين كثير، أما أن يصل الرقم إلى (٢٠) ألفًا فهذه مبالغة غير مقبولة، ويبدو أن مبالغاته متعددة كما سنرى.

(٥) المصدر العربي الذي ذكره المؤلف لا بد أن يكون القرى المحيطة بمكة المكرمة مثل وادي فاطمة والطائف وما حولها. وهذه المناطق تصدر الخضار ومن ضمنها الخيار إلى مكة في الموسم، وغالبًا ما تباع في مكة للأثرياء الذين يطلبونها.

(٦) لم يكن فارتيما مهتمًا بوصف الأماكن، وإنما صب اهتمامه على الأشياء الغريبة، ومثال ذلك ما ذكره في الفصل المعنون بـ «وحيد القرن في حرم مكة غير المألوف في الأماكن الأخرى» وفيه يقول عن ذلك الحيوان: «لونه كلون حصان ادهم، ورأسه كرأس الإبل، ولكن رقبته لم تكن طويلة، وأما أطرافه فكانت ضعيفة هزيلة، وله أظلاف كأظلاف الماعز =

مكثت قافلة دمشق عشرين يومًا في مكة، لفسح المجال لأداء شعائر الحج. عند سفح جبل عرفات لاحظ فارتيما وجود صهريجي ماء محجوزين لقافلتي دمشق ومصر. عند انقضاء العشرين يومًا أصدر قائد القافلة حكمًا بالإعدام على كل من رفض العودة معها إلى سورية. لكن لم يكن في نية فارتيما العودة من الطريق نفسها التي قدم منها. فبقي مختبئًا في بيت أحد المماليك الذي كسب صداقته، وساعدته زوجته في الوصول إلى جدة حيث أبحر إلى فارس.

في أحد جولاته حول مكة قام أحد المماليك بنهر فارتيما واتهمه بالنصرانية. أنكر التهمة، لكن المملوكي أصر وهو يتحدث بالإيطالية، وذكر أنه ذهب هو نفسه إلى جنوة والبندقية. عندها أباح فارتيما بجنسيته، لكنه بقي على إصراره أنه اعتنق الإسلام. ففرح الآخر به فرحًا شديدًا.

في إثر ذلك نشأت صداقة بينهما. حصل فارتيما على إذن من ضابط القافلة بأنه يمكن لهذا المملوكي أن يستخدم اسمه لكي يعفي خمسة عشر جملًا محملة بالبهارات من مكة من دفع الرسوم مقابل شهرية إلى جدة. وصل فارتيما بأمان إلى عدن[١]. لكن الناس هناك استولوا على السارية والأشرعة وأشياء السفينة الأخرى حتى دُفعت الرسوم المطلوبة[٢]. وبينما كان في جولة

= مغطاة بالشعر. إن هذا الحيوان لا بد أن يكون حيوانًا بريًا شرسًا. ومع هذا فإنه كان ذا طبيعة هادئة» ولقد قيل لي بأن هذا الحيوان قد أهدي من قبل ملك الحبشة (انظر روبن بدول الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله آدم نصنيف، منشورات جامعة الملك سعود (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٢٤). وقد أشار بيرتون إلى أن هذه الحيوانات قد تكون هي الأبقار الوحشية الإفريقية، ويميل بادجر محقق النسخة الإنجليزية من الرحلة أن ما رآه فارتيما هو حيوان المها، من نوع غريب شاذ، ويستبعد أن ما رآه فارتيما هو وحيد القرن (انظر: رحلات فارتيما ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، ص ٥٨).

(١) يقول روبن بدول «من جدة ركب فارتيما سفينة كانت متجهة إلى عدن. وفي أثناء الرحلة وعندما علم ملاحو السفينة أن زادهم على وشك النفاذ، هاجموا قرية جازان ونهبوها (انظر روبن بدول، مرجع سابق ص ٢٤).

(٢) كانت العادة بمجرد أن تصل السفينة إلى الميناء يصعد إليها موظفو سلطان هذه المدينة =

في الميناء صاح به رجل في الشارع «كلب نصراني»[١]. وبناء على ذلك اقتيد إلى السلطان الذي أمره أن يقر بدينه فرفض: «الكلمات التي لن أستطيع التلفظ بها أبدًا، إما لأنها لا ترضي الله، أو خوفًا من وخز الضمير الذي لا يجرؤ عليه». أُلقي به في زنزانة بقضبان حديدية في قدميه تزن ثمانية عشر رطلًا. وعاد الفضل في إطلاق سراحه إلى حظ طيب كذاك الذي حالفه في مكة وساعده على الهرب. لقد ساعدته امرأة في المقام الأول. ساعدته امرأة وهي زوج للسلطان هذه المرة - كانت النساء العربيات واقعات في حب الرجال البيض آنئذ. كان مسموحًا للسجناء بالمشي يوميًا في رواق يطل على القصر. هناك اختارته زوجة السلطان دون سواه، وافتعلت الحديث معه ونصحته وذلك وسيلة للحصول على قسط أكبر من الحرية أن يتظاهر بالجنون، ذلك لأن المجانين في الشرق مقدسون وملهمون. أخذ فارتيما بوصيتها وحقق نجاحًا باهرًا. لكنه ألفى الجنون أشد إرهاقًا من أي عمل آخر[٢]. إذ تبعه الناس في الشوارع ورشقه الصبية بالحجارة. واستدعى النُسّاك أيضًا للتحقق مما إذا كان مجنونًا أو مقدسًا.

= ليعرفوا من أين أتت، وما حمولتها، ومتى تغادر، وكم عدد الأشخاص على متنها. وعندما يجمعون كل هذه البيانات ينزعون أشرعة السفينة وساريتها ودفتها ومراسيها ويحملون كل ذلك معهم. وذلك مخافة أن يغادر الأشخاص المسؤولون عن السفينة دون دفع الرسوم للسلطان. ومن المعلوم أن هذا الإجراء ليس مقتصرًا على عدن فحسب بل كان متبعًا على طول سواحل شبه الجزيرة العربية (انظر: رحلات فارتيما تعريب عبدالرحمن عبدالله الشيخ، ص ٦٨).

(١) الذي قال لفارتيما هذه الكلمات هو أحد رفقائه في الرحلة، فسمع الناس هذا القول، ومن ثم ألقي القبض عليه وقالوا له: أنت جاسوس للمسيحيين (انظر: رحلات فارتيما، مرجع سابق ص ٦٨).

(٢) يبدو أن المبالغات سمة بارزة في كل ما كتب فارتيما. فالسجون في الأغلب لا تكون بجوار القصور الملكية، وقصص النجاح التي دوَّنها عن إدخاله الشاه في الدين وقتله الحمار لا يكاد يصدقها عاقل. وقد دوَّن في كتابه فصلًا سماه «شغف نساء بلاد العرب السعيدة بالرجال البيض» مملوء بالترهات والأكاذيب لدرجة أن محقق النسخة الإنجليزية المترجمة عن الإيطالية «باجر» قد تطرق إلى هذه المبالغات الظاهرة في كتابات فارتيما (انظر: رحلات فارتيما ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، ص ٧١).

أخيرًا تدبر أمر إبرام اتفاق سري مع ربان السفينة التي رست في عدن، ولاذ بالفرار من الجزيرة العربية. ارتحل إلى بلاد فارس والهند والحبشة ودار حول رأس الرجاء الصالح، وعاد سالمًا إلى روما.

فينسنت لو بلانك (Vincent Le Blanc)
(١٥٦٨م)

ولد لو بلانك في مدينة مرسيليا الفرنسية[١] عام ١٥٥٤م. كان والده تاجرًا في الليفانت[٢]، وكان آنئذ شريكًا في سفينة، كان يتاجر مع الشرق. في طفولته كان لدى بلانك الرغبة في السفر أوقدتها فيه حياته في الميناء الفرنسي العظيم حيث راقب وصول السفن الغربية يقودها بحارة أجانب، أو رحيل الآخرين إلى تلك المدن الشرقية التي كان مجرد اسمها يعبق بالغموض والسحر. كان تأثير سحر الشرق قويًا فيه، وعند سن الرابعة عشرة غادر بيته وركب على متن سفينة أبيه سرًا قاصدًا الإسكندرية. علمت أمه بنواياه، لكنها أدركت أنْ لا طائل من اعتراض طريقه.

وصل لو بلانك إلى الإسكندرية وزار القاهرة ثم بدأ رحلة العودة إلى وطنه. كان هناك تأخير في ميناء كانديا اليوناني (Candia)[٣]، فاغتنم البحارة الفرصة، وأنفقوا أموالهم على متعهم. ولكي يحصلوا على مزيد من المال باعوا كل البضاعة التي كانت على متن السفينة بخسارة. عند مغادرتهم الميناء تملَّكهم الخوف من الدائنين. وبدأ يلوح في الأفق احتمال تحطيم السفينة، نجا لو بلانك من الكارثة وعاد إلى كانديا في قارب صغير، حانت الآن الفرصة التي قررت مستقبله، وصلت سفينة من البندقية متجهة إلى

(١) أحد الموانئ الفرنسية على البحر المتوسط في جنوب فرنسا.
(٢) الليفانت هي الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.
(٣) أحد موانئ جزيرة كريت ويعرف باسم Iraklion.

القدس. وكان على متنها رجل يدعى كاسيس (Cassis) تعرف إليه لو بلانك في مرسيليا. اقترح أن يرافقه لو بلانك في أسفاره. كان العرض مقبولًا وقدم القنصل الفرنسي مبلغًا من المال معونة له. سافر الصديقان إلى طرابلس ثم وصلوا إلى دمشق ثم إلى مدينة مزيريب[١] التي تبعد عن دمشق مسيرة ثلاثة أيام، حيث سكنوا في الحي التركي في المدينة. هنالك التقوا مورات (Morat) شقيق كاسيس، وهو مرتد[٢]. وكان هو صاحب فكرة زيارة مكة ليس بدوافع دينية، بل لأنه سيبيع بضاعته هناك بربح وافر ويعوض خسائره التي خسرها مؤخرًا. اعترض كاسيس بدعوى وعده الذي قطعه للو بلانك بأن يأخذه إلى القدس. رد المرتد بقوله: إنهم سوف يزورون مكة أولًا ثم يقفلون راجعين إلى القدس.

استرق لو بلانك السمع لهذا الحديث وكان مكتئبًا. تملَّكه الخوف من الرحلة الخطيرة، لكنه خشي أيضًا أن يتركه أخواه أو يبيعاه إذ ما احتج، أو يقايضاه بأحد براميل الخمر النادرة التي كان يبيعها الصيادلة بسعر عالٍ. وحالما وُضعت الخطة أمامه ما كان منه إلا أن قبلها.

انضم الثلاثة إلى القافلة الرئيسة، وعدد جمالها (٢٠٠٠٠) محملة بكل أنواع البضائع، وانتشرت على مساحة ميلين. يتحدث لو بلانك عن أشباح في الصحراء يخدعون الرجال ويبعدونهم عن القافلة في زي أصدقاء ثم يتركوهم يموتون عطشًا. نضب الماء فذهب مع مجموعة من ستين شخصًا بحثًا عن بئر. وجدوا بئرًا مخفية بالرمل ومغطاة بجلد جمل. في المدينة وُجد هناك (٤٠٠٠٠ - ٥٠٠٠٠) حاج، وقوافل من حلب والقاهرة. يقول: إنهم وصلوا

---

(١) تقع جنوب دمشق بالقرب من الحدود الأردنية وهي إحدى محطات سكة حديد الحجاز فيما بعد. وكان الحج يجتمع في المزيريب حتى يتكامل جميع المسافرين ثم تبدأ الرحلة.

(٢) بمعنى أنه مسلم ارتد عن دينه السابق.

مكة بعد يومين، لكن هذا بالطبع مستحيل[١]. كانت مكة بحجم مدينة رُووين (Rouen)[٢] أو بضعف حجم مرسيليا. تحيط بها جبال شاهقة ضخمة أشبه بالأسوار جعلت الوصول إليها متعذرًا.

كان لو بلانك منشغلًا تمامًا بالجانب التجاري للحج. بدت مكة له مرتع الثروة الوافرة لأهل الهند. فقد باع التجار العقاقير والعطور والأحجار الكريمة في أروقة المسجد الحرام نفسه. كان بين مكة وجدة مواكب لا تنتهي من الجمال المحملة بالبضائع القاصدة سورية أو مصر أو أوربا.

في الطريق أُبرم اتفاق بين الإخوة في أنهم يفترقون في مكة، وأن يتابع كاسيس ولو بلانك الرحلة إلى جدة مع ستة جمال. كان وراء الخطة كاسيس إذ أعلن صراحة أن بعض السفن القادمة من الهند قد وصلت إلى جدة، وكان بالإمكان بيع البضائع هناك بربح أوفر. حينما افترقوا وسلكوا طريق جدة كشف كاسيس نواياه الحقيقية: كانا مسافرين إلى فارس. قال: إن أخاه قد أثم لأنه تنكر للمسيح، لذا كان محقًا في تصرفه بسلبه بضاعته. أيًا ما كانت أحاسيس لو بلانك بوخز الضمير فقد أسكتتها الضرورة.

نُفِّذت الخطة. صعد كاسيس ولوبلانك على متن السفينة إلى عدن، ومن هناك إلى هرمز[٣]. بعد بيعهم بضائعهم بربح عظيم في فارس وبابل واصلا رحلتهما إلى أقصى الشمال حتى سمرقند[٤]. ثم عادا أدراجهما إلى عدن، ثم تابعا سفرهما بمحاذاة الساحل الشرقي للجزيرة العربية، وزارا الهند وبلدانًا أخرى كثيرة في آسيا وإفريقية. في سنة ٩٩٦هـ (عام ١٥٨٧م)، وبعد غياب دام

---

(١) المسافة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة عشرة أيام بسير القافلة وليست يومين فقط.

(٢) مدينة فرنسية.

(٣) منطقة مضيق هرمز مدخل الخليج العربي.

(٤) سمرقند: إحدى المدن الإسلامية الشهيرة وتقع في دولة أوزبكستان الحالية.

عشر سنوات عاد لو بلانك إلى مرسيليا. لم يعرفه أبواه، وقبل خمس سنوات من عودته أقاموا مراسم جنازته.

لم تنته أسفار لوبلانك بعد. ففي سنة ٩٩١هـ (عام ١٥٨٣م) شد الرحال إلى البرازيل. قاده حظه إلى النزول في هافر (Havre)[١]، وهناك تزوج بامرأة شريرة رهيبة وصفها «بأرهب امرأة في العالم». وبذا أصبح لديه وازع أقوى للسفر، فزار إسبانيا وإيطاليا ومالطا وغينيا وجزر الهند الغربية. ولم يعد إلى موطنه الأصلي بشكل نهائي حتى سنة ١٠١١هـ (عام ١٦٠٢م).

في سنة ١٠٢٩هـ (عام ١٦١٩م) طلب بيريسكْ (Peiresc) راعي الأدباء في زمانه أن يرى مخطوطة لو بلانك. كان من عادته أن يكتب في دفتر كل ما شاهد وسمع. لكن تعليمه كان متواضعًا جِدًا، وكان ساذجًا سريع التصديق. وُجد كثير من السخافات في كتاباته التي أُخضعت لتحرير دقيق واقتطاعات متعددة قبل أن تظهر إلى النور. لم يصدر الكتاب إلا بعد موت المؤلف سنة ١٠٥٠هـ (عام ١٦٤٠م) وهو في سن السادسة والثمانين. كتب لو بلانك قائلًا: الحياة رحلة دائمة دونما راحة أو إقامة.

ملحوظة: يجب التحفظ على أقوال لو بلانك؛ إذ يميل كثيرون إلى عدّ رحلته إلى مكة أكاذيب من محض خياله.

(١) إحدى الموانئ المهمة في شمال غرب فرنسا.

يوهان وايلد (Johann Wild)
(١٦٠٧م)

ولد وايلد في مدينة نوريمبيرج (Nuremburg) الألمانية[١] نحو سنة ٩٩٣هـ (عام ١٥٨٥م). بعد إكماله تعلم إحدى الحرف قام برحلة إلى المجر[٢] حيث سلبت لبه الحياة العسكرية، وتطوع في جيش الإمبراطور، ثم شارك في حرب ضد الأتراك. كان في التاسعة عشرة من العمر. بعد مدة قصيرة ساقه المجريون المتحالفون مع الأتراك أسير حرب وبيع بصفته رقيقًا. كان سيده مزود مؤن للجيش التركي. أخذه إلى بودا (Buda)[٣]. كان الشهر ديسمبر، والوقت شتاء قارسًا، وهذا جعل عبور نهر الدانوب على الجليد أشد إيلامًا للأسرى الألمان الذين كان من بينهم كثير من النساء والأطفال. كانت تجربة وايلد التالية الحمام التركي. كان مغايرا تمامًا لأحاسيسه الأخيرة بالبرودة، لكنه وجدها مقيتة كسابقتها تمامًا، كالمستجير من الرمضاء بالنار. بيع الآن إلى ضابط في الجيش الإنكشاري التركي الذي ألبسه ثيابًا تركية وجعله خادمه الخاص. إنه يتحدث باحتقار عن الرقيق النصرانيين الذين اعتنقوا الإسلام بسهولة قائلين إن الأتراك احتقروهم أكثر من أولئك الذين رفضوا الإذعان.

لكن بالنتيجة يبدو أنه فعل ما فعل غيره واعتنق الإسلام. في غضون

---

(١) مدينة تقع في جنوب غرب ألمانيا.

(٢) المجر هي بلاد هنغاريا حاليًا.

(٣) بودا هي جزء من بودابيست عاصمة هنغاريا تقع على الجانب الأيمن لنهر الدانوب.

بضعة أشهر قُتل سيده في حصار جران (Geran)[1]. فبيع مرة ثالثة، وفي خلال سنة ونصف تناقلته الأيدي خمس مرات. كان السيد الذي رافقه إلى مكة فارسيًا، ويتحدث عنه وايلد على أنه شخص عديم المبادئ والأخلاق. كان قاسيًا وشحيحًا. كان وايلد يفعل له كل شيء. فقد كان يطبخ ويغسل ويكنس وينظف ويتسوق.

سافر وايلد وسيده إلى مكة ضمن القافلة المصرية. عسكر القائد (أمير الحج) في حديقة تبعد ميلين عن القاهرة قبل أسبوع، وتقاطر الحجاج إلى هناك بالتدريج. أُطلقت الأبواق إيذانًا ببدء الرحلة. كان الحجاج يسيرون في نظام لكي تسهل مراقبتهم في أثناء الرحلة. كانت الجمال في أرتال الواحد تلو الآخر، ومئة من الجنود المماليك المرافقين ومعهم ستة مدافع. كان ثلاثون جملًا تحمل سلالًا فارغة لوضع الذين يمرضون من الحجاج فيها. وكان كل رجل يحمل جودًا مملوءًا بالماء يكفي لثلاثة أيام، لم يكن هناك إمكانية لإعادة ملئه قبل الوصول إلى السويس، وما كان شيء أثمن من الماء آنذاك. كان من المناظر المألوفة أن ترى الحجاج الفقراء يطوفون بالمعسكر يتسولون. وحينما كان يُقدَّم لهم الطعام كانوا يرفضون قائلين: «لا نريد أن نأكل لكن إكرامًا لله شربة ماء». بعد عبور السويس جابوا شبه جزيرة سيناء. وكانوا يقضون يومًا كاملًا في شق طريقهم عبر الممر المرعب لسلسلة العقبة: وهي سلسلة جبال عالية وصخور شاهقة لم ير لها وايلد مثيلًا في حياته. كانت الجمال تقاد من خطامها بينما سار الحجاج على الأقدام. مكثوا يومين في مدينة العقبة في الوادي حيث آبار مياه الأمطار الحلوة يحرسها الجنود المماليك خوفًا من البدو.

كان عدد رجال القافلة (٢٠٠٠٠) وعدد الجمال (١٠٠٠٠٠). وصلوا إلى ينبع - وتقع في منتصف الطريق إلى مكة - في زهاء ١٩ أو ٢٠ يومًا، وكان

(١) جران إحدى مقاطعات شرق ألمانيا.

عدد الوفيات (١٥٠٠) رجل و(٩٠٠) جمل. بعد ينبع تعرضوا لمضايقات من البدو وهم يعبرون الجبال.

يقول وايلد: «جُرح سيدي بسهم، لكن لم يُجهز عليه وإن كنت سأُسعد لو فعل ذلك. لقد كان عديم الشفقة، لم يكن يفعل شيئًا سوى أن يضربني ويسيء معاملتي ويناديني بأقبح الأسماء كلما فتح فمه». عندما لبس الإحرام على مسير ثلاثة أيام من مكة [الجحفة]، عانى بشدة من حر الشمس الحارقة في أثناء النهار حينما كان يجلس على جمله، ومن البرد في الليل. وكان عليه أن يقاسي آلام الجوع والعطش أيضًا. وكان «مستعدًا لتقبيل قدمي أي شخص يعطيه شربة ماء». واصل الحجاج رفع أصواتهم دون توقف مبتهلين: «لبيك اللهم لبيك».

أخيرًا تسلقوا هضبة عالية من طريق ضيق شُقَّ في الصخر حيث لا يمكن لأكثر من جمل السير جنبًا إلى جنب. وكانت مكة على مرمى حجر منهم. أعطى هناك وصفًا عامًا للمهام والواجبات الدينية المبدئية. كان للسيد الفارسي المكروه ملحوظة جديرة بالذكر: «أترى كم عدد الأتراك الذين يتمنون السفر إلى مكة ولا يستطيعون ذلك؟». استنتج وايلد أن سيده توقع عرفانًا منه بالجميل لأنه أتى به إلى مكان مقدس كهذا.

لقد أثر فيه الموكب إلى عرفات: «على المرء أن يكون قد رأى الطريقة المهيبة التي سار بها أهل مكة إلى الجبل، وجمالهم كلها ملفوفة بالسجاد. كانت النساء على الجمال يهللن على طول الطريق، وكذا كان يفعل الرجال الذين كانوا يقودون الجمال سائرين». بعد النزول من عرفات ساد الخوف من أن البدو كانوا على وشك النزول من الجبال ليسرقوا الجمال. كان هو نفسه مسؤولًا عن البهائم، وبما أن سيده لم يكن معه فقد انتابه القلق. «ما كنت حتى أعرف إلى أين كان عليَّ أن أسوقها». ويردف قائلًا: «لهذا خشيت كثيرًا أن

يُسرق جمل مني ويساق إلى الجبال، لأن الظلام كان قد خيم». بعد ساعة انضم سيده إليه وهو يسب ويلعن؛ لأنه لم ينتظر، لكن ظهرت عليه علامات الارتياح؛ لأن الجمال بخير. ثم جاء دور شعيرة رمي الجمرات التي روى أسطورتها بقدر كبير من عدم الدقة والمغالطات.

في أثناء الأيام العشرين التي مكث فيها بمكة ما بين العودة من منى ورحيل القافلة، وجد وايلد وقت فراغ لبضع مشاهدات. منها ذكره محلات بيع العطور حول [الحرم]. وهنا يُذكِّر بما قاله فارتيما، ويقول إذا ما وُجِد يهودي أو نصراني في مكة فسوف يحرق حيًا.

ليس هناك ما يثير الاهتمام في زيارة وايلد للمدينة المنورة. كان وصفه قبر الرسول محمد ﷺ على أنه «غرفة مشبكة ضخمة». وكما كانت الحال في مكة، يؤتى بالطعام (الأرزاق) من القاهرة ما عدا التمور التي تعد أفضل وأرخص من تمور القاهرة.

كان سيد وايلد تاجرًا، وعاد الآن إلى مكة، ومن هناك توجه إلى جدة، وربما أبحر مع رحلة تجارية في البحر الأحمر. اشترى كمًا هائلًا من البضائع في الحبشة، ومن هناك أبحر إلى السويس، وعاد أدراجه إلى القاهرة برًا.

بعد ذلك اصطحب وايلد في رحلة إلى القدس. فزارا مسجد عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] والضريح المقدس. رافقهما رهبان ونصارى إلى الضريح المقدس ليجدوا أن الأتراك لم يصيبوهم بأذى. تعرف وايلد إلى رجل يوناني في القدس قدمه لرئيس الأساقفة (البطرق) الذي لم يكن معروفًا لسيده. استقبله البطرق بحرارة واستمع إلى قصته وأعطاه شهادة بزيارته الضريح المقدس. في إثر عودته إلى القاهرة اشترى اليوناني الذي عرفه في القدس بضائع من سيده. تصرف وايلد بصفته بائع وطلب عمولة. شعر اليوناني بالإهانة وأخبر سيده عن زيارته للبطرق. فُتِّش وايلد ووجدت الشهادة معه فمزقت. لا

يُعرف ما إذا كان الاستحواذ عليها دليلًا على نية الهرب، أم ولاء غير إرادي للإسلام، لكن ربما هذا ما أغضب سيده.

بناءً على هذا أُرسل وايلد إلى سوق النخاسة مع وسيط، وبيع من جديد. لم يُفد أحد بهذه الصفقة بقدر ما أفاد هو. فقد كان سيده الجديد تركيًا عجوزًا ثريًا ومحسنًا. أعطاه حريته بعد سنة. وما لبث أن وفر مالًا كافيًا ليؤمن عودته إلى أوربا. وصل إلى نوريمبريج في خريف سنة ١٠٢٠هـ (١٦١١م).

جوزيف بيتس (Joseph Pitts)
(١٦٨٠م)[1]

«أتساءل ما إذا كان الآن رجل واحد في إنجلترا قد سافر إلى مكة في حياته». كتب هذا جوزيف بيتس وهو أول إنجليزي تقع عيناه على المدينة المقدسة. بما أنه ولد في مدينة إكسيتر الساحلية سنة ١٠٧٤هـ (عام ١٦٦٣م)، أصبح بحارًا من شدة ولعه بالسفر في سن الخامسة عشرة. بعد رحلات قصيرة قام برحلة إلى نيوفاوندلاند؛ لكن عند عودته وقعت سفينته في الأسر بأيدي قرصان جزائري. على مقربة من ساحل إسبانيا. كان قائد القراصنة هولنديًا مرتدًا عن النصرانية يتحدث الإنجليزية. لكن بدا الأعداء لبيتس «مخلوقات مفترسة متوحشة»؛ وخشي أن يقتلوه ثم يأكلوه. استولوا أيضًا على ثلاث سفن إنجليزية أخرى. اقتات الأسرى الزيتون والزيت والخل والبسكويت الأسود، ونصف ليتر ماء يوميًا.

في الجزائر بيع بيتس بصفته عبدًا. لم يحاول «مالكه» الأول إدخاله في الإسلام. لكن سيده الثاني الذي كان متوحشًا وظالمًا، استخدم العصا لذلك. لقد كانت العصا الغليظة التي استخدمها بشراسة وحقد بضربه على قدميه الحافيتين كفيلةً بثنيه عن تصميمه بألا يسلم حيث اعتنق الإسلام رافعًا سبابة يده اليمنى كالمعتاد. لقد أذعن من شدة الخوف، لكنه يخبرنا بأنه كان في سرِّه يكره دينه الجديد «ويأكل لحم خنزير بنهم في السر». شك السيد بصدق حديثه وعامله أسوأ من ذي قبل.

(١) يذكر روبن بدول أن الرحلة إلى الحجاز تمت عام ١٦٨٥م.

وجد بيتس وسائل لمراسلة أسرته على فترات طويلة وبالسر. تبادلوا الرسائل المؤثرة حول دخوله الإسلام. حرّم عليه والده - بصرف النظر عن الظلم الذي يتعرض له - ألا يتخلى أبدًا عن دينه. لم تصله هذه الرسالة إلا بعد أن نطق بالكلمات المقدرة عليه [أي بالشهادتين]. ولو وصلت قبل ذلك لثبت بيتس (على النصرانية). أجاب عن الرسالة بلغة جياشة وقلب منكسر متمنيًا أن لو مات وهو صغير لكان خيرًا له من أن يمرغ رأس والديه الأشيبين بالتراب.

مرة أخرى، وبعد شهور كثيرة أخطره والده بأنه استشار قساوسة كثرًا فأكدوا له أنه لم يرتكب الذنب الذي لا يغتفر. أضاف قائلًا: «تذكر أن القديس بطرس لم يفتتن لكي يتنكر لربه وسيّده بالقدر الذي تعرضت له أنت. ومع ذلك نال رحمة ربه. ولعل الأمر كذلك بالنسبة إليك أيضًا. كانت أطول مدة في هذه المراسلات أربعة عشر شهرًا، قام بيتس خلالها سنة ١٠٩١هـ (عام ١٦٨٠م) بزيارة مكة مع مالكه الثالث - «وهو رجل عتيق بدين» ذو طبيعة دمثة - الذي عامله معاملة حسنة جدًا. رحلا بالبحر إلى الإسكندرية، ومن هناك بمحاذاة النيل إلى القاهرة، ثم عبر الصحراء إلى السويس، واستقلتهما السفينة إلى جدة. لبس الإحرام ولحظ ظهور الحجاج المحروقة بالشمس الملتهبة. لم يؤمن بما يقوم به إخوانه الحجاج لكنه لم يتمالك نفسه من ذرف الدموع على حماسهم.

قبّلوا الجمال التي كانت تحمل كسوة الكعبة، وتحدث عن ماء المطر الذي فاض حتى غمر سقف الكعبة من شدة التدفق كقطر الندى من السماء. تدافع الحجاج تحت الميزاب ليأتوا تحته ليشربوا منه أو حتى ليجمعوه ويبيعوه[١]. وجد بيتس طعم ماء زمزم أجاجًا، و كان يسبب قروحًا جلدية تظهر على الجسم[٢]. «يسمون هذا تطهيرًا من الفساد الروحي» كما يذكر بيتس.

---

(١) هذه من الممارسات غير الصحيحة التي ليس لها ما يؤيدها من المصادر الشرعية.
(٢) لم يرد أن ماء زمزم يسبب ذلك وهذا ربما عائد لطبيعة الشخص وحالته الصحية.

كان بيتس في مكة في شهر رمضان. إذا ما لمس أحد الطعام بين غروب الشمس وشروقها في أثناء شهر الصوم فعليه أن يُكفر عن ذنبه. لكن إذا ما حصل ذلك سهوًا عن غير قصد فإن هذا ليس ذنبًا «بل تفضُّل عظيم من الله» أو «إطعام من الله». حدث أن حامل ماء سيده قد أحضر له ماء مطر من الكعبة. شرب بيتس من القطر المقدس، ثم تذكر أنه قد أفسد صيامه وتناول وجبة غذائية كاملة. وبَّخه أحد أصدقائه الذي أخبره بقصته بقوله: «يا لهذا الشرف العظيم الذي تُوِّجتَ به! كان الله على وشك أن يطعمك بطريقة أكثر من عادية، حتى ماء السماء المبارك النازل من على بيته هو لم يكن ليفسد صيامه. لكن الآن وبسبب جهلك ضيعت فرصة عظيمة جدًا».

كانت هناك أربع قوافل «تتقاطر إلى مكة معًا». القافلة المصرية مع كسوة الكعبة؛ والقافلة التركية عبر تركيا والأناضول ودمشق؛ والقافلة الهندية من جزر الهند الشرقية وبضائعها الثرية المتنوعة، والقافلة المغربية برًا إلى مصر. توقفت هذه الأخيرة في كل مدينة لكي تجمع الحجاج. وكانت تُستقبَل بالتهليل وهتافات الفرح وهم يرفعون الأعلام ويقرعون الطبول. تفرجت النساء على الموكب من سطوح المنازل وهن يهللن ويزغردن. وتساءل الناس «كيف لمدينة صغيرة كمكة» أن تستوعب عددًا كبيرًا كهذا. لكن سكانها «هيؤوا أنفسهم تمامًا لكي يقيموا سوقهم». أما أولئك الذين قدموا متأخرين فقد عسكروا خارج مكة. أما مكة نفسها فقد خلّفت انطباعًا موحشًا عند بيتس. إذ كانت واقعة في مكان أجرد وسط هضاب صغيرة كثيرة، حجرية ومسودة ومتساوية الارتفاع. تسلق إحداها حيث رأى لمسافة أميال من حوله، لكن لم ير نهاية الهضاب. كانت الأبنية رديئة وعادية دون لمسات جمالية تذكر، وكان سكانها من الفقراء النحيفين جدًا والهزيلين والسُّمْر. ليس فيها «وسائل راحة». كذلك الأمر بالنسبة إلى الطقس، إذ على الرغم من أنه نام على سطح المنزل وغطي بشرشف رقيق غطسه بالماء وعصره فإنه استيقظ مرتين أو ثلاث في الليل ليجده قد جف.

مكث بيتس أربعة أشهر بمكة مع مالكه. دخل الكعبة مرتين. وبينما كان في ساحة الحرم وبَّخه أحد الأتراك لأنه كان مستلقيًا وكانت قدماه باتجاه الكعبة. التقى مرتدًا عن النصرانية أمضى ٣٠ سنة في مراكب وسفن فرنسا وإسبانيا. وصف هذا الرجل عبوديته السابقة «كالجحيم في الأرض» ومكة «كالجنة في الأرض». لقد نسي الآن لغته الأم.

كتب بيتس عن عرفات قائلًا: «إنه مشهد يُقَطع القلب بالفعل أن ترى آلافًا مؤلفة من الناس برؤوس حاسرة ووجنات مخضبة بالدموع، وأن تسمع آهاتٍ وشهقات محزنة يتوسلون بإلحاح ليغفر الله ذنوبهم وهم يقطعون الوعود بتجديد حياتهم»(١).

تمت رحلة العودة إلى القاهرة برًا. واستغرقت أربعين يومًا. ولم يُرَ في أثنائها شيء أخضر قطّ. لا شيء سوى الرمل والحجر. توقفوا ثلاثة أيام في المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ. يتدافع الحجاج بأيديهم إلى النوافذ ويتوسلون بقدر عظيم من التبجيل والعاطفة الجياشة والحماس. وبينما كان سيده في هذا الموقف المهيب، سرق منه منديله الحريري.

حينما وصلوا الإسكندرية كانت سفينة إنجليزية ترسو في الميناء وعلى متنها رجل يدعى جون كليك (John Cleak) من ليمسون (Lymson). لم يكن زميل الدراسة لبيتس فحسب، بل رأى والده قبل مغادرة إنجلترا بقليل. كانت علاقتهما محدودة بسبب مخاوف بيتس من أن يتسرب الشك إلى نفس سيده. لم يكن ليشرب الخمر مع صديقه، ولا ليرافقه إلى المقهى. ادعى أنه سيرسل رسالة معه إلى أسرته ومعها غليون تركي ومحفظة نقود

(١) يذكر روبن بدول أن بتس كتب يقول: « لم يكن في وسعي إلا التعبير عن إعجابي لرؤية أولئك الناس الفقراء في خشوع شديد وهيام عميق بذنبهم، فقد كانوا يرتجفون من الخشية والرهبة ملكتهم حتى أنني لم أتمالك نفسي من البكاء، فذرفت عيناي الدمع وأنا أراهم بهذه الحماسة العمياء». (روبن بدول: مرجع سابق ص ٤٧ – ٤٨).

خضراء من الحرير لوالدته. أضاف أنه كان يتمنى من الله أن يجد له طريقة للهروب.

كان الطاعون مستشريًا في الإسكندرية، وسقط بيتس ضحية. كانت إصابته خفيفة واسترد عافيته بفضل علاج اقترحه عليه إسباني بدهن الورم بقطعة من البصل المشوي المغطس بالزيت. استمر في البقاء مع سيده في الجزائر على الرغم من أنه تسلم منه رسالة عتق في مكة. كان سيده هذا متقدمًا في السن، وكان لبيتس توقعات. أيضًا، مع أنه لم يعد عبدًا، كانت حرية المرتدين عن النصرانية مقيدة، ولو أنه قبض عليه وهو يحاول الهرب من الجزائر لأعدم مع التعذيب عبرة لمن اعتبر. أخيرًا قادت معرفة تاجر إنجليزي إلى تقديمه إلى القنصل البريطاني السيد بيكر (Baker)، وكانت مسألة الفدية مطروحة للنقاش. لكن القنصل لم يكن قادرًا على جمع المبلغ المطلوب، وهو مئة جنيه إسترليني. أجهش بيتس بالبكاء، لكن الآن ليس بالإمكان أحسن مما كان. بعد مطولة سنحت فرصة للهرب، إذ أُرسلت بعض السفن الجزائرية إلى مدينة سميرنا[1] التركية لمساعدة الأتراك. وكان بيتس على متن إحداها. حمل معه رسالة من السيد بيكر إلى القنصل البريطاني في إزمير. أقلق محتواها القنصل، وما كان ليتدخل في محاولة خطيرة كهذه لولا نزوله عند رغبة صديقه السيد بيكر. كما كان بيتس متحيرًا من تيقنه - إذا ما هرب - أنه سوف يخسر رواتب ثمانية أشهر، وتوقعاته من سيده السخي. على أية حال، كانت مجرد لحظة ضعف، وبعد انتظار سفينة إنجليزية عبثًا، صعد على متن سفينة فرنسية بلباس أوربي. وصلت السفينة بأمان إلى مدينة ليجهورن (Leghorn)[2]، فسجد بيتس وقبّل الأرض.

كان يمر طريقه إلى موطنه عبر ألمانيا. وكان في انتظاره قضية أخيرة في

(١) ميناء ازمير الحالي في غرب تركيا.
(٢) ميناء في شمال غرب إيطاليا كان يعرف باسم Livorno.

إنجلترا. ليلة وصوله احتُجز في الأسطول. لكن أنقذه من هذا المأزق السير ويليام فولكنر (Sir William Falkener)، وهو تاجر تركي تعرف إليه في الشرق. لقد غمرت السعادة العظيمة أصدقاءه وأقرباءه الذين دفنوه في ذاكرتهم حينما عاد إلى مدينة إكستر (Exeter)[1]. وكان والده على قيد الحياة، لكن والدته كانت قد ماتت قبل سنة من ذلك. لم يشأ أن يباغت والده، فأرسل بأخبار عودته مع شخص ثالث. «هل أنت ابني يا جوزيف؟»، قال له أبوه العجوز حينما التقيا أخيرًا وجهًا لوجه. بعد ذلك اقتاده إلى البيت. أغلق الباب على مجموعة من أهل الحل والربط، وسجد سجدة شكر لله.

كان بيتس غائبًا ستة أشهر قبل أن يؤسر ويباع رقيقًا. قضى خمس عشرة سنة في الجزائر، وسنة أخرى في طريقه إلى وطنه الأصلي. وصل إكستر سنة ١١٠٥هـ (عام ١٦٩٣م). لا يُعرف تاريخ موته على وجه التحديد، لكن يُعتقد أنه كان سنة ١١٤٨هـ (عام ١٧٣٥م). يوجد دليل قوي على أنه في عام ١٧٣١م كان لا يزال حيًا في مسقط رأسه. ومما يبعث على السرور أن عواصف شبابه قد تبعتها مدة طويلة جدًا من الأجواء اللطيفة. لا بد أنه في سنيه الأخيرة عاود رواية قصته عن أهواله وأسره وظلم مالكه الثاني، ورحلته المحفورة في الذاكرة إلى مكة. ما أشد المغايرة بين صحارى الجزيرة العربية وألطف مقاطعة إنجليزية!

(١) إكستر إحدى مدن جنوب غرب بريطانيا العظمى.

باديا ليبليخ (Badia Y Leblich)
(١٨٠٧م)
(علي باي العباسي)

مع قصة بيتس تنتهي عصبة المناوشين في الاندفاع النصراني لمعرفة مكة. ما يربو على قرن قبل أن يوضع الدين الإسلامي الذي يتمنى لو أن الأرض تنشق وتبتلع الكافر على المحك من جديد. تغيرت الدوافع الآن. حل محل الإكراه حب المغامرة أو الرغبة الجامحة في المعرفة بشكل أوفى مما حققه فارتيما. على رأس الهيئة الرئيسة في الطليعة يتهادى القوام الجليل لباديا - ليس عبدًا ذليلًا ولا مرتدًا، بل صديقًا للباشاوات والسلاطين.

يُعرف باديا بلقبه المنتحل علي باي العباسي. ولد في مدينة بيسكاي (Biscay) الإسبانية[١] في سنة ١١٨٠هـ (عام ١٧٦٦م)، وأعطته ولادته أفضلية على بيرتون. سهلت لغته الأم نطقه للعربية، خاصة أصواتها الحلقية التي حيرت أستاذ ثمانية وعشرين لغة. تضمن اسم العباسي تحدرًا من العباسيين، إحدى السلالات الملكية المتعددة للخلفاء الذين خلفوا محمدًا ﷺ، ففي فترة حكم أبي العباس أول الخلفاء العباسيين وعم النبي ﷺ[٢] كان توسع الإسلام لا مثيل له.

---

(١) تقع بسكاي في مقاطعة كتالوينا.

(٢) أبو العباس هو أول خلفاء الدولة العباسية، وكان يلقب بالسفاح، وهو ليس عم النبي محمد ﷺ.

تلقى باديا تعليمًا حرًا، ومن ثم أكمل تعليمه ودرس الطب وعلم الفلك وعلم المعادن. في سنة ١٢١٦هـ (عام ١٨٠١م) زار باريس ولندن، ثم عاد إلى إسبانيا بلباس إسلامي بعد سنتين. في ٢٩ يونيو غادر إلى طنجة في مهمة سرية. يحيط بباديا شيء من الغموض. يقول بعضهم: إنه كان عميلًا لملك إسبانيا أو لنابليون الذي كانت أحلامه تتطلع بشغف إلى إمبراطورية في الشرق، وقال آخرون: إنه كان يفكر في تأسيس مستعمرة أوربية بين المغرب والجزائر لنشر الحضارة (الأوربية)[١]. أما مصادر ثروته الطائلة فغير معروفة. في طنجة لفتت حاشيته وهداياه الثمينة أنظار العامة. أصبح شخصية مهمة. وفي إشارة إلى الأُخُوَّة تلقى من إمبراطور المغرب الهدية الوحيدة، وهي عجلان أسودان[٢].

نشأت صداقة حميمة بين باديا وهذه الشخصية الفذة. (سلطان المغرب) فقد دعي إلى حفل استقبال ملكي في مدينة مكناس[٣]، وبينما هو في الطريق رأى من رأس سبارتل (Spartel)، على بعد رتل من أربعين سفينة حاربت فيما بعد في رأس ترافلجار [الطرف الأغر] الإسباني. قدم الإمبراطور نصيحة أبوية يسيرة: تمنى لو أن باديا يتزوج، لأن الرجال غير المتزوجين لا يلقون الاحترام. حتى إنه أهدى له امرأتين من جواريه. أجاب باديا بأنه قطع عهدًا على نفسه ألا يتزوج قبل زيارة مكة. اعترضٍ هذا الأمر عقبة صغيرة: غادرت المرأتان الحريم وربما لن تعودا ثانية. لكن ذُلِّلت هذه العقبة في النهاية بإيوائهما خارج نطاق

(١) يرى روبن بدول «أن الغاية من تأسيس المستعمرة للاستفادة من الحبوب منها لسد حاجة جيوش نابليون».

(٢) لقد أصبح علي باي صديقًا حميمًا لسلطان المغرب الذي قدم له علي بك هدايا كثيرة من ضمنها عشرون بندقية مع الحراب وبرميل من البارود ومظلة أنيقة، ومقابل هذا تسلم رغيفين من الخبز الأسمر من فرن السلطان الخاص دلالة على الأخوة (العيشِ والمِلح)، كما أن السلطان قد استقطع له بعض الأراضي الكبيرة التي درت عليه أموالًا مكّنته من العيش حسبما يليق بمنزلته، كذلك بعث له بسيدتين ثيبتين من جواريه (روبن بدول، مرجع سابق، ص ٣٠).

(٣) إحدى مدن المغرب، تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة فاس الشهيرة.

الحريم. ولسبب غير معروف حاول الإمبراطور أن يثني باديا عن مشروع زيارة مكة. لكن حينما وجده مُصرًا على رأيه أعطاه خيمة جميلة مخططة بشريط أحمر ومزينة بحواشٍ من حرير.

في الثالث عشر من شهر أكتوبر أبحر إلى طرابلس فوصل إلى هناك في الحادي عشر من نوفمبر. حافظ على هيبة شخصيته بتوزيع الطعام والدواء، ونال احترام العرب وإعجابهم لقدرته على تركيب التقويمات السنوية وتوقع الخسوف والكسوف. في السادس والعشرين من يناير غادر طرابلس في سفينة تركية، لكنه لم يصل إلى الإسكندرية حتى الثاني عشر من مايو. كان سبب التأخير ثمالة الربان وعدم كفاءته. عانى باديا من مآسٍ؛ لأنه مصاب بدوار البحر، لكن عندما مرت السفينة بصعوبات سمح لنفسه أن يؤخذ إلى سطح السفينة ليحدد خطوط الطول ودوائر العرض. وبينما كانوا يقتربون من الإسكندرية كانت تهب عاصفة هوجاء، فأتى إليه الربان والدموع في عينيه، لكن سلوكه لم يكن جزءًا من طبيعته فما كان من باديا إلا أن قال: «آه يا ربان».

في الإسكندرية قابل باديا الشاعر والروائي الفرنسي شاتوبريا (Chateaubriand). يبدو أن اختلافًا قد وقع بينهما؛ لكن شاتوبريا قال عنه: إنه يستحق أن يكون من أحفاد صلاح الدين العظيم، وأكثر الأتراك[1] ثقافة ودماثة. وفي القاهرة اتصل باديا بكل الأشخاص البارزين بمن فيهم محمد علي باشا مصر. وبينما كان في مسجد السلطان قلاوون رأى خياطين يشتغلون بالكسوة الجديدة للكعبة.

كتب باديا عن محمد علي قائلًا: إنه يمتلك حسًا عمليًا قويًا، لكن كانت تنقصه الثقافة، وكانت النتيجة أنه شعر أحيانًا بالارتباك في أثناء الحديث. كما كان

---

(١) أطلق عليه شاتوبريا هذا اللقب لأن لقب التركي كانت تطلق على كل مواطن تابع للدولة العثمانية آنذاك.

في عينيه نظرة شك. وكان يدين بمنصبه الحالي إلى فيلقه الألباني، ومن ثم كان عاجزًا عن الوقوف في وجه تصرفاتهم المتطرفة وظلمهم للسكان المدنيين.

في ٣ شوال سنة ١٢٢١هـ (١٥ ديسمبر عام ١٨٠٦م) انضم باديا إلى القافلة المتوجهة إلى مكة. كان معه أربعة عشر جملًا وحصانان. تحركت جمال القافلة البالغة خمسة آلاف جمل ببطء. لذا تحرك إلى مقدمتها يصحبه خادماه اللذان فرشا له بساطًا ووسادتان على جانبي الطريق ليتكئ عليها لثلاثة أرباع الساعة بينما كان الموكب يمر به. وحالما مر به آخر جمل امتطى ثانية وعاود الكرّة.

في السويس وفيما بعد في جدة ومكة، أمّن سكنه مقدمًا عن طريق أصدقائه النافذين الكثر. لكن باديا لم يكن قط محظوظًا مع البحر. فقد صعد على متن مركب شراعي صغير شبَّهه باديا بسفينة شراعية طروادية بسبب نتوءاته البارزة الضخمة من المؤخرة والمقدمة. وُضع أربعة رجال أو خمسة في الطليعة لكي يحذروا قائد السفينة من الصخور أمامه. لكن كان من المؤلم التحكم بالشراع القطني الثقيل الغليظ عن طريق الحبال المصنوعة من ألياف النخيل لمواجهة الريح والتيار، حتى إن الملاحة في البحر الأحمر غدت سلسلة من حالات النجاة بشق الأنفس. في إحدى الليالي، وفي خضم العاصفة ارتطمت السفينة بالصخر، ارتفعت صيحات اليأس، وبكى الربابنة كالأطفال، دفع باديا القارب ثم وثب إليه مع حفنة من الرجال، بقوا يتخبطون في البحر في الظلام ساعة من الزمن. فتارة كشط القارب صخرة، فتوقف الدم في عروقهم، وتارة أخرى ارتج من لطمة موجة، وبدأ يمتلئ بالماء. كما انهمر المطر والبرد بغزارة. أخيرًا انقشع شعاع من ضوء القمر من بين الغيوم، وهذا مكن باديا من أخذ معداته. وعلى الفور قبض على الدفة وأدار القارب باتجاه اليابسة لكنَّ ملاّحيه كانوا جددًا على التجديف، فوجد نفسه مضطرًا إلى الغناء لكي يجدفوا في الوقت المناسب، وفي تلك اللحظة دهمه دوار البحر. في إثر ثلاث ساعات من المعاناة عند بزوغ الفجر لمسوا اليابسة. لم تكن ساحل الجزيرة العربية،

لكنها جزيرة على مسافة أميال قليلة منها. انتهت هذه المغامرة العاصفة بسلام. انتُشلوا بواسطة السفينة التي ظنوا أنها فُقدت. لقد سلمت من الكارثة، وجَّرتها سفينة أخرى. استقبل الربان باديا وأصدقاءه بالدموع.

في جدة حصل احتكاك مع الحاكم. فقبل الذهاب إلى المسجد أرسل باديا خدمه ليمدوا سجادة الصلاة له قرب الإمام. لكن تصادف أن الحاكم الذي خاب أمله بسرج توقع من باديا إهداءه إليه قد مد سجادته بطريقة تتشابك مع سجادة باديا. فقام أحد الخدم بربت باديا على كتفه، وأمره أن يتحرك من مكانه. خشية الفضيحة أذعن باديا، عندئذ استولى الحاكم على سجادته. لكن باديا رد ردًا قويًا بتقديمه السجادة إلى الإمام قائلًا: إنه لن يستطيع أبدًا استعمالها مرة أخرى. وفي جدة شرب الرشفات الأولى من ماء زمزم، مشيرًا إلى أنه قُدِّم له عدد من الضيافات فكان يقول: «شربت ودفعت».

في ١٢ من ذي القعدة سنة ١٢٢١هـ (٢٢ يناير عام ١٨٠٧م) عند الساعة الخامسة والنصف عصرًا غادر جدة على نقالة. فقد أوهنت الحمى عظمه، وأصبح في حالة من الضعف، لم يقدر معها على تحمل حركة الجمل. كان الهواء ساكنًا والقمر منيرًا. وكان العرب يغنون ويرقصون من حوله. شقت القافلة طريقها عبر السهل الصحراوي العظيم المحاط بمجموعات متفرقة من الجبال الحجرية. توقفوا عند حدا، وهو وادٍ رملي محاط بصخور نارية حمراء قاتمة. في اليوم التالي عند الساعة الثالثة بعد الظهر لبسوا الإحرام، ثم سلكوا الطريق الذي يمر من بين الجبال البركانية السوداء، وممرات ضيقة حتى بلغوا مشارف مكة.

دخل باديا من باب السلام محمولًا نتيجة مرضه على الرغم من أن جميع الحجاج يدخلون إلى الحرم سيرًا على أقدامهم، ولما دخل إلى ساحة المسجد أشار إليه المرشد بأن يتوقف. وأشار بإصبعه إلى الكعبة وهو يقول:

«انظر، انظر بيت الله الحرام!»، أصاب باديا التأثر والخشوع. كتب يقول: «بيت الله مغطى بثوب أسود من أعلاه إلى أسفله، ومحاط بحلقة من المصابيح؛ والساعة غير المألوفة[1] وسكون الليل؛ ومرشدنا الذي كان يتحدث أمامنا وكأنه ملهَم؛ كونت هذه المشاهدات كلها صورة مذهلة لن تمحى من ذاكرتي».

أُعد له منزل قريب من المسجد الحرام بمحاذاة منزل شريف مكة. بعد أدائه المناسك المعتادة دخل الكعبة المشرفة بصحبة مرافقيه من الزنوج. بعد أن صلى في كل ركن من أركانها غادرها مع مرافقيه الذين كانوا يفسحون له الطريق بين الناس بقبضاتهم. ثم دعاه الشريف إلى درس ديني. حين سئل عن موطنه الأصلي أجاب بأنه من مدينة حلب. ظهرت علامات الرضا على الشريف، وتحدث عن أحوال أوربا، وأخبره بأنه يتحدث العربية كأهلها، ثم عيَّن موظفًا ليرافق الزائر المتميز في تجواله في المدينة. تحدث باديا عن هذا الموظف بإسهاب. كان حارس بئر زمزم، ورئيس هيئة المسممين للشريف. فقد يقدم كوبًا مسمومًا من النبع المقدس إلى كل شخص مريب؛ ومن أسوأ درجات عدم التقوى أن يرفض هذه الشربة من حارس البئر. وبهذا الشكل حدثت جرائم بكل حصافة في المدينة المقدسة. وحدث مرارًا أن باشاوات وأفرادًا بارزين قد أُرسلوا إلى هناك إفراديًا ليُسمَّموا. قابل باديا علية القوم بكل صراحة، لكن حمل معه دائمًا ترياقًا[2]. أما الشرف غير العادي الذي ناله باديا فكان المساعدة في تنظيف الكعبة. كان من بين حشد تجمع في الخارج، حينما أومأ إليه الشريف الذي قام بهذا العمل أن يتقدم فأخلى له الحشد الطريق، صعد الدرج، وساعد الشريف في كنس أرض الكعبة المكسوة بالمرمر.

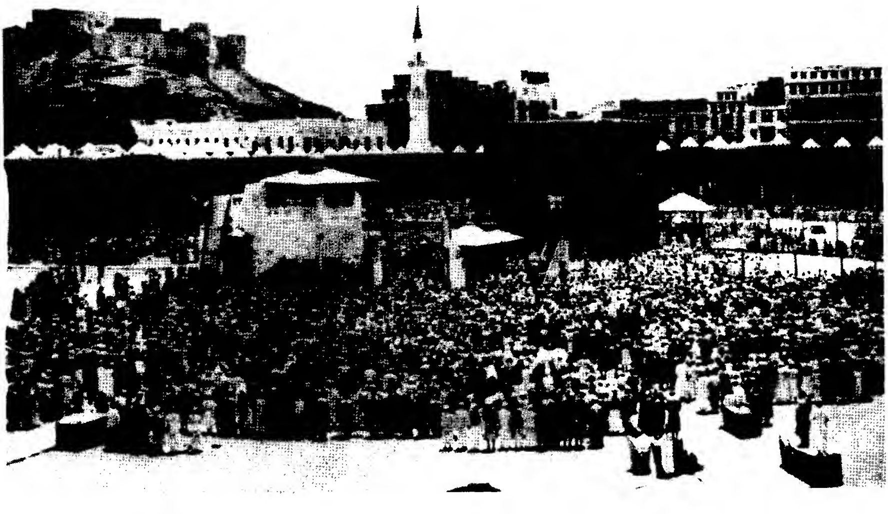
تسرب الماء وماء الزهر المستخدمان للتنظيف من ثقب تحت الباب،

(١) كان في ساحة المسجد مزوله شمسية من أجل تحديد أوقات الصلوات.

(٢) دواء قوي مضاد للسموم.

وشُرِب بشغف من الحشد. تلقى باديا التهاني من كل مكان في إثر انتهاء الاحتفال.

في هذا الوقت دخل الجيش السعودي مكة. الوهابيون[1] هم السعوديون من المسلمين. قامت دعوتهم في بداية القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبدالوهاب، وينكر هؤلاء الواسطة بين الإنسان وبين الله. يعترفون بنبوة محمد ﷺ لكنهم يحتجون على تعظيمه إلى درجة التأليه. كما ينكرون ما لحق بزيارة المدينة من بدع. إذ قاموا مرة برد قافلة دمشق على أعقابها على الرغم من أنها تحمل الكسوة للبدع المرتبطة بالمحمل، الموسيقا من المتع المحرمة، والذين يستمتعون بها في هذه الدنيا محرومون منها في الآخرة. حتى التدخين يعد من الموبقات، لا يسمح به، حتى إن الشريف كان يدخن الغليون متواريًا في ركن من الأركان.



ساحة المسجد الحرام تُظهر الكعبة

(١) استخدام مصطلح الوهابية للدلالة على دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب غير صحيح فإن حقيقة الدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب تهدف إلى إفراد العبادة لله سبحانه ومحاربة الشرك وسد الذرائع المؤدية إليه والقضاء على البدع وتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أمور الحياة.

لم يدرك باديا أن السعوديين كانوا أسياد مكة من قبل لمدة ثلاث سنوات، وأن تدفقهم إلى مكة كان من أجل أداء الحج. بالتأكيد كان مظهرهم بارزًا وهم يندفعون في شوارع مكة، كانوا يحملون بنادق فتيلية وخناجر، وكانوا عراة إلا من المئزر «لأسباب تتعلق ببساطة شديدة للباس». وبذلك تفوقوا على متديني ماكولي أشد المؤمنين النصرانيين.

لم يكن السلوك الديني لهؤلاء أقل حدة من سلوكهم العام. وفي أثناء تدافعهم لاستلام الحجر الأسود، والطواف بالكعبة، كسرت دائرة المصابيح التي تحيط بالمكان بالبنادق التي كانت معلقة على مناكبهم دون قصد. ثم اتجهوا إلى بئر زمزم وانتشلوا الماء بالدلاء بأنفسهم ولم يدفعوا الأعطيات التي يفرضها هؤلاء على الحجاج.

لم يشاطر باديا الآخرين في كراهيتهم للوهابيين. صحيح أنه يعترف بأن انطباعه الأول عنهم أنهم كانوا قساةً، لكن عند معرفتهم من قرب، وجد فيهم خصالًا حميدة واعتدالًا. إذ لم يسرقوا قطّ، ودفعوا ثمن كل شيء أخذوه رغم غرابة عملتهم، وأبدوا طاعة عمياء لرؤسائهم. بدا له أنهم تحت قيادة مناسبة سيصبحون طيعين للحضارة. ومع ذلك كان أهل البلد والحجاج يرتعدون خوفًا من اسمهم، وكان اتصاله مع عدد من أفراد هؤلاء يتم على رغم تحذيرات الأصدقاء.

يُسطِّر قلم باديا واحدة من الصور المشرقة الكثيرة لشعيرة عرفات، وكانت التجمع من (٨٣) ألف حاج. وكما يقول: «في عرفات فقط يتمكن المرء من تكوين فكرة عن المشهد المهيب الذي يمثله الحج. إذ تتقاطر حشود لا تحصى من الناس من كل الأمم والألوان من شتى أصقاع الأرض، على رغم أنف آلاف الأخطار والمشاق التي لا حصر لها ليعبدوا جميعًا إلهًا واحدًا. يمد القوقازي يده الحميمة للحبشي أو الزنجي الغيني. ويتآخى الهندي والفارسي

مع بربر المغرب. فالجميع يعدُّون أنفسهم أفراد عائلة واحدة. ليس هناك وسيط بين الإنسان وربه: الجميع متساوون أمام خالقهم. ويختم بقوله: «يا للحسرة! إننا على رغم مزايانا الكثيرة لسنا بأفضل من المؤمنين من الأديان الأخرى». عند انتهاء نسك عرفات زحف الإعصار البشري باتجاه الممر الضيق المؤدي إلى منى. هبت زوبعة من الغبار، تتوسطها غابة من الرماح والبنادق والسيوف.

في منى صُعق باديا بالطبيعة الحقادة للشيطان الذي أقام منزله في طريق ضيق جدًا ومحاط بالصخور، طغت فوضى عارمة، والتخلص من حصياته المحدودة العدد، ورماها على حساب جرحين في ساقه اليسرى.

كان باديا أول أوربي يقدم للعالم معرفة منظمة لمكة على عكس المذكرات المتقطعة لمسافرين مثل فارتيما وبيتس. لقد حدد موقعها عن طريق مراقبات فلكية، ورسم خريطة ذات مقاييس للمسجد الحرام، وعَدَّلها بوركهارت الذي جاء بعده. كما وصف عالميْ النبات والحيوان، واقتصر على ذكر أربع نبتات أو خمس، وبضع شجرات شوكية. لم ير سوى وردة واحدة وكان في الطريق إلى عرفات لكن الخادم الذي أرسله ليقطفها منعه من ذلك بعض الحجاج الذين أصروا على أن عملًا كهذا حرام في وقت كهذا. اكتشف أمرًا عن زمزم كان كفيلًا بهز إيمان المتقين: كل الآبار حول مكة ذات مذاق كمذاق ماء زمزم. عزا ذلك إلى اختلاط التراب وحجر القمر الكبريتي الكلسي المحلل. لكن «الحمد الله ليس لهذه الآبار خصائص قوة الإعجاز نفسها» التي لزمزم كما قال باديا بروح المسلم الخيِّر. لسوء حظه فقد الشَّعر الذي جمعه في مقياس الرطوبة الذي في حوزته، ولم يستطع تعويضه. كانت رؤوس الرجال كلها محلوقة، أما شعرات اللحية فليست مناسبة لجمعها، كما رفضت النساء لأسباب خرافية أن يلبين له طلبه.

أما عن مكة نفسها فلم يجد باديا الشيء الكثير ليقوله عنها، بدت له

كمدينة يتناقص سكانها بشكل ثابت. فقد قلُّوا من (١٠٠٠٠٠) في زمن الخلفاء العظام الراشدين إلى (١٦٠٠) أو (١٨٠٠). أما شوارعها فكانت جميلة، وبيوتها مبنية بشكل جيد، لكن كان ثلثاها حديثة البناء. لا أثر للفنون والعلوم فيها. وكان ضربًا من المستحيل أن تُصنع أدوات تافهة كقفل أو مفتاح. أما صُنَّاع الدروع فكانوا بدائيين في طرقهم، إذ جعلوا حفرة في الأرض ككير حديد، أما طلاب العلم فقد جلسوا في أروقة المسجد يقرؤون بصوت عالٍ لجذب المستمعين. كانت المدينة كلها تقتات على وجود هشٍّ مرتكز كلية على الحماسة الدينية للعالم الإسلامي الخارجي الذي كان يضمحل بشكل ثابت. وكانت تدب آثار الحياة والنشاط في شوارع مكة في أثناء الحج فحسب. وبذلك أصبح نصف سكانها أرباب منازل معدة للإيجار، ونصفهم الآخر خدمًا للمسجد الحرام. حين انقضاء الحج كانت مكة تغط في سبات عميق لمدة تسعة أشهر. وكأنها مدينة خالية من الناس كمدينة الأموات. وكان خدم الحرم مجموعة من الهياكل العظمية تمشي على الأرض، يرتدون رقعًا من جلد الماعز ملتصقة بالعظام، بعيون ضخمة غائرة، وأنوف هزيلة، ووجنات غائرة حتى العظم، وسيقان وأذرع ذاوية، وعروق وأوتار ناتئة. يبرز باديا وحده بين المسافرين إلى الحجاز ليصرح بأن حدة الطبع وسرعة الغضب الناتجة من الحرمان قد تجلت في المعاملة القاسية للعبيد.

يعزو باديا عدم الوحدة والتفكك إلى الموقع الجغرافي المنعزل للجزيرة العربية. بما أنها محاطة بالبحر من ثلاث جهات، وبعيدة عن الخطوط الرئيسة للنقل، فقد بقيت في منأى عن الاكتشافات والإنجازات الجديدة للبشرية، والأنشطة والثورات. لقد توجه مد الحياة غربًا. ولم تكن الجزيرة العربية في نظر الأمم المتقدمة العظيمة أكثر من جزيرة مغمورة في الأطلسي. وقف في وجه التيار السريع للحضارة كثبان الرمل والجبال الصخرية. وفي قلب هذه المنطقة المهجورة تقع مكة، ملتفة بصحاريها بعيدًا من ضوضاء العالم الخارجي. مرة

واحدة في السنة كانت الحياة الصاخبة للحج تنبض في شوارعها، لكنها كانت أبعد ما تكون عن الطاقة الصحيحة، شأنها في ذلك شأن القوة غير الطبيعية للحمى. كان السعوديون أسياد مكة الفعليين لا الرسميين، وقد منعوا أي ذكر لاسم السلطان العثماني، لكنهم كانوا يُظهرون احترامًا للشريف. وبالمقابل، في الوقت الذي كان الشريف يطيعهم كان يحافظ على مظهر رمزي لسلطته السابقة. أما أهل مكة فلم يكونوا يعرفون من هم أسيادهم الفعليون: لقد كانت هناك فوضى عارمة وسوء إدارة للقضاء. في السادس والعشرين من فبراير جهر السعوديون بسلطتهم رسميًا؛ إذ صدرت الأوامر للجنود الأتراك وحامية الشريف بأن يغادروا مكة، وكان من بينهم باديا الذي رحل إلى جدة.

في جدة صادف مثالين للتسلط والابتزاز. فقد وصلت سفينة إنجليزية بحمولة أرز. وجد الربان السعر منخفضًا جدًا، فقرر أن يذهب إلى جهة أخرى، لكن الشريف أمره أن يدفع الرسوم الجمركية كاملة، وكأنه باع حمولته. بعد مناقشة حامية شق الربان طريقه خارج الميناء. ربان إنجليزي ثان رفضوا إعطاءه موجهًا أو مرسى لسفينته التي ارتطمت بصخرة وصودرت بضائعه وأوراقه كلها. طلب شهادة بذلك فرفضوا طلبه أيضًا. وبعد أن رفع طلبًا إلى السلطات حسب التسلسل دون جدوى جاء باديا أخيرًا وهو الغريب الكريم المتميز الذي لا يُرد له طلب ليقضي حاجة الإنجليزي.

أبحر من جدة إلى ينبع بنيَّة مواصلة رحلته إلى المدينة. كانت الرحلة خطيرة بسبب الحرب. فقد اعترضوا قافلة باديا، وجعلوه يدفع فدية، وأخذوا أشياء كثيرة منها ساعته. لحسن الحظ لم تصب أدواته الفلكية بأذى، لكنه لكي يتجنب الشك فيه، حطم صندوق حشراته، ورمى بنباتاته ومحاراته جانبًا. لم يتمكن باديا من مواصلة الرحلة إلى المدينة، وعاد ثانية إلى ينبع ليتوجه بعدها إلى مصر.

أما عن رحلته إلى القاهرة، فليس لديه الكثير ليقوله ما خلا معاناته عند تحطم سفينته، لترسّخ سوء طالعه في البحر مرة أخرى. على مقربة من القاهرة التقى رئيس الأشراف مع ثلة من المماليك والألبان وهم يشقون طريقهم عبر الشوارع في موكب النصر.

كانت رحلة باديا إلى القدس بعد ذلك بوقت قصير نتيجة طبيعية لتجاربه في مكة. زار مسجد الخليفة عمر بن الخطاب، المبني على موقع معبد سليمان، والمحرم على النصارى. وهو يدعى الحرم تمامًا كحرمي مكة والمدينة[١]، وهو ثالثهما في القداسة. ويحتوي على صخرة تدعى صخرة الله التي تعد أفضل مكان للصلاة بعد مكة[٢]. ولقد أُسري بمحمد ﷺ إلى القدس عن طريق الملك جبريل، وقال: إنه صلى هناك. آثار أقدامه بادية في الصخرة[٣].

عاد باديا إلى أوربا عبر دمشق وحلب والقسطنطينية. عند وصوله إلى موطنه الأصلي وقت الغزو الفرنسي أعلن نفسه مناصرًا لنابليون بونابرت، وتولى منصبًا تحت قيادة شقيق نابليون، جوزيف. حينما طُرد الفرنسيون رجع إلى فرنسا، حيث نشر وقائع أسفاره التي يحافظ فيها على افترائه بأنه مسلم، والفقرة الافتتاحية كانت دعاء.

مرة أخرى توجهت أفكاره إلى الشرق حيث دعم مشروع اكتشاف قلب إفريقية. ظل الخدم الذين كانوا معه في أثناء الحج في رفقته الآن ليثبت أنه رجل

---

(١) هذا المسجد هو المسجد الأقصى وليس مسجد عمر بن الخطاب، فمسجد الخليفة عمر بن الخطاب بني في المكان الذي صلى فيه عمر رضي الله عنه بالقرب من كنيسة القيامة.

(٢) الصخرة ليست المسجد الأقصى، وإنما المسجد المبني فوقها يعرف باسم مسجد قبة الصخرة، وهو بجوار المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة ليس في المرتبة الثانية في القدسية بعد المسجد الحرام، فالمسجد الذي يلي المسجد الحرام في القدسية هو المسجد النبوي ثم يأتي المسجد الأقصى وليس مسجد قبة الصخرة في المرتبة الثالثة.

(٣) ليس هناك دليل على أن آثار أقدام الرسول ﷺ بادية في الصخرة، وهذه أقاويل ليس لها سند شرعي.

مسلم. وضع هذا الهدف نصب عينيه ليبدأ رحلة إلى دمشق عام ١٨١٨م (سنة ١٢٣٤هـ)، لكنه أصيب بالزحار (الديزنتاريا) ومات. أما الشك بأنه مات مقتولًا فليس له أساس متين من الصحة. دفن في قلعة بَلْقا[١] على طريق الحجاج بين دمشق ومكة، وتقول رواية أخرى: إنهم وجدوا صليبًا تحت قميصه فرفضوا أن يدفنوه.

إن أهمية شخصية باديا لا خلاف عليها. إذ نعاه شاتوبريا كما أسلفنا من قبل، وكذلك فعل فيكتور هوجو الذي التقاه في إسبانيا ووصفه بأنه أصيل وحاضر البديهة. تحلى بالشجاعة ورباطة الجأش عند الخطر، ومؤهلات علمية ولغوية بارزة. ومع ذلك، وكما ذكر بوركهارت سنة ١٢٣٢هـ (عام ١٨١٦م) كانت معرفته للعربية ناقصة، وأنه لم يؤثر تأثيرًا قويًا في العامة، لكنهم كانوا على يقين من أنه مسلم. كما أنه وصف أسلوب ترحاله بغير الحكيم، وقدرته على أخذ ملاحظات مثيرة للاهتمام؛ وذلك لهالة الفخامة التي أحاط بها نفسه في أثناء تحركاته. لكن على الرغم من مرجعية بوركهارت العظيمة وشخصيته الطيبة فقد يكون شعوره بالمنافسة قد أملى شهادته هذه، خصوصًا عندما يضيف قائلًا: إن وصف باديا لمكة قد فاق وصفه هو، لكنه تمنى أن يعطي معلومات إضافية. وبالفعل، كان باديا لبوركهارت كما كانت النصرانية لهيوم، الشيء الوحيد القادر على زعزعة اتزان رجل طيب. لكن إحقاقًا للحق من المهم أن نتذكر أن باديا وهو يسير بين الجبال قرب القدس قد أوقفه رجل عجوز وعذَّبه لأنه نصراني ليهدئ من روع من قام بالإقرار بإيمانه في المسيحية[٢]. كما أنه -

(١) قلعة البلقا: إحدى منازل الحج الشامي تقع بالقرب من عمان عاصمة الأردن في الوقت الحالي.

(٢) هذا الدليل يستخدمه من يرون أن إسلام باديا كان صوريًا، ولم يسلم حقيقة. والشيء اللافت للنظر في هذه الرواية وهي إن كان بالإمكان تصديقها في مكة نظرًا لأن غير المسلمين ممنوعون من دخولها فإنها مستبعدة جدًا بالقرب من القدس التي كان يعيش فيها جاليات نصرانية عديدة منذ ظهور الإسلام، وليس بمستغرب أن يوجد رجل نصراني بجوار القدس.

كما رأينا - تحمل المشاق في رحلته إلى مكة. لم تسعفه لا الثروة ولا الجاه من الإصابة بدوار البحر، وتحطم السفن، والمعاملة القاسية في أثناء الطريق. ومع ذلك لم يكن جدال بوركهارت هباء. وللسبب نفسه الذي سافر من أجله بصفته رجلًا ثريًا مع حاشية من الخدم وأصدقاء في مراكز مرموقة، يدهشني أنه كان بشخصيته بصفته نصرانيًا في مكة أقل إثارة للاهتمام من بعض الحجاج ذوي المكانة الأكثر تواضعًا، والذين أتوا من بعده. مع ذلك علينا أن نكون ممتنين لإلقاء نظرة على ما أسماه وولتر بيجهوت (Walter Bagehot) بإحدى النوادر الأدبية الساحرة - سرد نبيل لسيرته الذاتية.

أولريخ ياسبر سيتْزن (Ullrich Jasper Seetzen)
(١٨٠٩ - ١٨١٠م)
حاج موسى

ولد سيتزن في مدينة سوفيانجرودن[1] (Sophiengroden) في يفر (Jever) عام ١٧٦٧م. في عام ١٧٩٣م عندما انتقلت الولاية إلى الإمبراطورة كاثرين أصبح مواطنًا روسيًا. كان والده مزارعًا غنيًا وفر لأبنائه تعليمًا مرموقًا. وأظهر سيتزن منذ نعومة أظفاره ميولًا واضحة للميكانيك والطب بعلومه الأساسية. نال شهادته في الطب من جامعة جوتينجين (Gottingen)[2]. وفي أثناء أسفاره إلى ألمانيا وهولندا لم يدرس علم الحيوان وعلم النبات وعلم المعادن فحسب، بل أيضًا المناجم والصناعات والاختراعات التقنية.

متسلحًا بهذا العتاد الذهني العظيم، خطط لأول سلسلة من سلاسل أسفاره إلى الشرق سنة ١٢١٧هـ (عام ١٨٠٢م). وقد نجح في إثارة اهتمام كثير من الأشخاص البارزين بمشروعاته. إذ زوده البارون فون زاخ (Baron Von Zach) بأدوات فلكية، وفوضه أوغسطس أمير غوتا (Gotha)[3] بالحصول على عينات لمتحف كان بصدد تأسيسه. حتى إن الإمبراطور ألكساندر ساهم بالدعم المالي. لكن على الرغم من توجه تفكيره نحو التطبيق

(١) سوفيانجرودن بلدة في جورجيا حاليًا.
(٢) جوتنجن مدينة في غرب ألمانيا شهيرة بجامعتها.
(٣) غوتا مدينة ألمانية تقع إلى الجنوب الشرقي من جوتنجن.

العملي للعلوم، كانت سلوكيات سيتزن لا تنم على عقلية تجارية. فخلال أسفاره كلها كان مرارًا في عوز للمال.

رافق سيتزن طبيبٌ جراح يدعى جاكوبسون (Jacobsen)، وهو رجل قوي البنية ورياضي، لكن صحته اعتلَّت في سْميْرنا[١] (Smyrna)، واضطر إلى العودة إلى وطنه، أما سيتزن نفسه فكان صغير القامة، ومظهره لا يثير الاهتمام. لكنه تميز بقدرات هائلة على التحمل. لقد عانى معاناة شديدة من جهازه العصبي المشدود جدًا. يصف في مفكرته كيف لم يتجرأ على استكشاف كهف مثير للاهتمام على نهر الدانوب خشية أن يقتله مرافقوه الصربيون. ومع ذلك أنقذ هؤلاء الصربيون حياته حينما ألقى بنفسه في النهر في نوبة اكتئاب. يصفه بوركهارت الذي جلبت له الشائعات عنه احترامًا كبيرًا لشخصيته، بأنه رجل الحقيقة الساطعة الذي وهبه الله خيالًا حيًا، بل وحتى مواهب شعرية لا يستهان بها. بقي ستة أشهر في القسطنطينية، ومنها توجه إلى وسط آسيا الصغرى، وقضى سنة في حلب وأخرى في دمشق. ومع نهاية سنة ١٢٢٠هـ (عام ١٨٠٥م) أنهى تدربه على لغة العرب وعاداتهم، ثم شد الرحال في سلسلة من الرحلات التي يعود إليها الفضل في شهرته. في سنة ١٢٢١هـ (نوفمبر من عام ١٨٠٦م) استكشف البحر الميت في رحلة متنكرًا في زي متسول. رسم أول خريطة دقيقة، وبدد الخرافات الرائجة. من فلسطين سافر إلى القاهرة عبر شبه جزيرة سيناء. مكث هناك حتى سنة ١٢٢٤هـ (مارس عام ١٨٠٩م) حيث تنتهي مفكرته. وبسبب إضاعته دفاتره المتعاقبة، كان بالإمكان فقط إعادة كتابة ملخص عن أسفاره إلى الجزيرة العربية من رسائله إلى زاخ وأصدقائه.

كان في نيته استكشاف أجزاء من الجزيرة العربية وزيارة المدينتين المقدستين (مكة والمدينة). وسوف يكون لقب (حاج) مفيدًا له عبر البلدان

---

(١) سميرنا ميناء أزمير التركي الحالي الذي يقع على بحر إيجة في الغرب.

الإسلامية. بدأ ترحاله إلى الجزيرة العربية عن طريق البحر، وتعقب في طريقه آثار قناة السويس القديمة التي شقها سيتي الأول. بعد عدة تأجيلات وتحويل في الخطط أبحر من السويس مع خمسة عشر حاجًا من جنسيات متعددة إلى ينبع في السابع والعشرين من أغسطس. كانت خيبة الأمل في انتظاره، أخبره تاجر من أهل الجزيرة حمل له رسالة تعارف أن البلد وقع في أيدي السعوديين، ومن الأفضل له ألا يذهب إلى المدينة. فقرر على إثرها التوجه إلى جدة. حينما تجاوز قرية رابغ على الساحل، لبس الإحرام وارتفع صوته بقول: «لبيك».

مكث في جدة حتى أكتوبر في منزل صديق تاجر هو عبدالله السقاط، حيث تعمق في أسرار الشريعة الإسلامية. أخيرًا شد الرحال إلى مكة وهو يلبس الإحرام، سافر سيرًا على الأقدام، ووجد الطريق آمنًا وسهلًا. وصل إلى مكة الساعة الثانية صباح يوم العاشر أو الحادي عشر. حينما انقشع الظلام دخل المسجد الحرام يرافقه دليله، «تخيل منطقة مدورة بطول (٣٠٠) ذراع وعرض (٢٠٠)، تحيط بها ثلاثة أو أربعة صفوف من الأعمدة المرمر. خلفها مجموعة قليلة من الأبنية الصغيرة. هذا هو مشهد هذا المسجد المقدس. من حوله ترتفع المنازل في شكل طبقات، وفوقها التلال، وبذلك تتصور نفسك في مسرح روماني مهيب، ميدانه الساحة العظيمة للمسجد. خلف المشهد كله انطباعًا لم أشعر بشيء منه قط في أي مسجد آخر.

بعد قضائه شهرًا في مكة وتلقيه تعليمًا على يد أحد علمائها، عاد أدراجه إلى جدة، وأفاد من المدة الفاصلة عن الحج بزيارة المدينة. غادر مع قافلة يرافقه خادم. وصف سيتزن المسجد النبوي بأنه بناء كبير الحجم، بعدد ضخم من الأعمدة، بعضها (تلك التي في الروضة) مغطاة حتى علو تسعة أقدام بالمرمر والعقيق الأخضر والحجر السُّمَّاقي والخزف المزخرف، مزينة بحروف من ذهب. زار الأماكن المقدسة داخل المدينة وخارجها، لكنه استُدعي للمثول بين يدي الأمير، وخضع لاستجواب دقيق: من هو؟ من أين أتى؟ لماذا بقي مدة

طويلة؟ لماذا أحضر كتبًا كثيرة جدًا؟ جذب الظرف الأخير الانتباه، وقيل: إنه كان تركيًا. عندما سمع الأمير أنه لم يكن تركيًا، لكنه أشهر إسلامه حديثًا خلّى سبيله. خطط خلسة لرسم خريطة للمدينة وما حولها بغية وضع مخططات أولية للمدينة وللمسجد الذي يحوي قبر النبي ﷺ وهو يتظاهر بالعبادة هناك.

تطلع قبل الآن بشغف إلى مدائن صالح. أخفق مرتين في الوصول إليها. وباءت محاولته الثالثة الآن بالفشل. أرسل تاجر جدة عبدالله السقاط رسالة إلى أصدقائه في المدينة يحضهم فيها على منعه من القيام برحلة محفوفة بالمخاطر. وشكك آخرون في صدق إسلامه ووبخوه لسعيه وراء غايات مبطنة. إن ما يشد المسافر الأوربي لمدائن صالح هو مجموعة النقوش الشهيرة فيها.

مرة أخرى عاد سيتزن إلى جدة ومن ثم إلى مكة في ٥ ذي الحجة سنة ١٢٢٤هـ (١١ يناير عام ١٨١٠م) لأداء الحج. كان عدد الجمال عظيمًا إلى درجة أن قافلته دخلت إلى مكة بصعوبة. كان أكثر من ألف شخص يطوفون، وكان الكثيرون معرضين للموت تحت الأقدام حينما يبدأ التدافع إلى الأمام لتقبيل الحجر الأسود. كان المسعى بالمثل يغص بالساعين بين الصفا والمروة من العرب من كل الأصقاع، السعوديون من نجد، والمغاربة والزنوج من أقصى إفريقية، والتتار، وقلة من الأتراك. حمل بعضهم أولادهم على أكتافهم اليسرى. وكان بدوي مصطحبًا زوجتيه يلف ذراعه حول رقبة كل منهما ليمنع انفصالهما عنه في الزحام. كان هناك مجموعات كبيرة مؤلفة من خمسين أو مئة يمسكون بأيدي بعضهم أو بأطراف ثيابهم، تشق طريقها عنوة، ولا تعدم أن ترى جملًا يطل برقبته الطويلة هنا وهناك من فوق رؤوس الكتل البشرية المتراصة.

استأجر عبدالله السقاط منزلًا ضخمًا في منى. من هناك في الرابع عشر

من يناير [يوم التروية] راقب سيتزن من الشرفة الموكب الذي لا ينتهي نحو عرفات، من الجمال والخيول والبغال والحمير والمشاة. في اليوم التالي ركب إلى عرفات «وهو سلسلة من التلال الغرانيتية تعلوها قمم تلال أعلى منها ترى عن بعدٍ». كانت منحدرات جبل عرفات نصف مغطاة بالحجاج، لكن الحشد العظيم تجمع على سفحه. كلهم اشرأبوا بأنظارهم إلى الجبل، وهم يصرخون «لبيك» حتى الغروب. ثم قُضيت ليلة باردة في مزدلفة. بدت منى في طريق عودته مملوءة بأشلاء الذبائح. لقد كانت مهرجانًا عظيمًا للحجاج الفقراء، ورأى زنوجًا يجففون قطعًا من اللحم والأمعاء على النارلتكون زادًا لطريق العودة إلى الوطن.

ربما عاد سيتزن مع القافلة النجدية إلى نجد أو حتى إلى ما وراءها. كانت قافلة ضخمة، يحرسها خمسون رجلًا من الخيالة مسلحون برماح ثقيلة من الخيزران مزركشة بريش النعام، لكنَّ أصدقاءه العرب حذروه من ذلك، كان سيفقد مكانته بينهم وربما عرض نفسه للتعذيب.

مكث شهرين بمكة بعد انتهاء الحج، واستمر في إبداء ملحوظاته دونما كلال ولا ملل. وعلى الرغم من أنه لم يكن رسامًا فقد نجح في وضع خريطة لمكة وما حولها، ومخططًا للمسجد (الحرام) مع ستة عشر رسمًا لأجزائه المنفصلة. وأدان تحت وطأة النقد كل الرسومات الموجودة آنذاك، بما فيها رسومات نيبور (Niebur). كما أنه أجرى مراقبات فلكية من منزل أحد الأصدقاء الذي كان يشغل عددًا من المهن وهي أستاذ جامعي، وفلكي، وجامع تقويمات، ومؤذن، وتاجر توابل، وحَكَم في قضايا الأخلاق. ومع هذا كله لا يكاد يسد رمقه. كذب هذا الرجل على سيتزن فقد ضلله في قراءة بعض الأرقام، وسفّه ملحوظاته. تذوق سيتزن الجراد أول مرة في مكة، ووجده طيب المذاق حينما يقلى بالسمن. وقد أكله مرارًا بعد ذلك في اليمن.

غادر مكة في ١٨ صفر سنة ١٢٢٥هـ (٢٦ مارس). وفي جدة قابل الشيخ حمزة الذي تلقى منه تعليمه الأول عند وصوله أول مرة إلى مكة. كان حمزة عالمًا مطلعًا، لكن حماسه الديني المفرط جعل سيتزن يتردد في قبول مرافقته التي عرضت عليه إلى اليمن. ربما ثبت أنه جاسوس، لكنه كان إنسانًا صادقًا دون مواربة، ويمكن الإفادة منه في توجيه أغراض علمية. أقنعه سيتزن بأن يحتفظ بمفكرة باللغة العربية للرحلة، وبما أنه لم ير قط كتاب أسفار، فقد لفت انتباهه إلى ما يمكن أن يكون جديرًا بالتدوين، كانت النتيجة دفتر مذكرات رائع تمنى سيتزن أن يقارنه بدفتره هو: وصل المسافرون إلى الحديدة[1] بحرًا، وبدؤوا من هناك رحلتهم عبر اليمن. على مقربة من صنعاء دهم سيتزن مرضٌ خطيرٌ من جراء عاصفة رعدية. غدا نحيلًا إلى درجة أنه كان في حاجة إلى من يحمله عند عبور جدول، لكنه نجح في الوصول إلى صنعاء.

سافر من صنعاء إلى عدن، ومن هناك عَبْر طريق بري غير مكتشف إلى ميناء مخا[2] الذي أرسل منه رسالتيه الأخيرتين في ١٤و١٧ نوفمبر. ثم ارتحل من هناك قاصدًا مسقط، ومنها إلى البصرة. لكنه لم ينجز سوى يومين من الرحلة عندما اغتيل. يكتنف الغموض مصيره، لكن يُعتقَد عمومًا أنه دُس له السم بأمر من إمام صنعاء. حامت الشبهات حول صدق إسلامه، وممارسته أعمال السحر، علاوة على هذا كله ثارت الشكوك حوله على أشدها لمجموعة من الأفاعي حفظها في مشروبات من الخمر. وساد الاعتقاد أنه استطاع من خلالها أن يؤثر في الجو، وتسبب مرة في القحط.

عاد الفضل في تسليط الضوء على الحقائق القليلة المعروفة عنه إلى جيمس سيلك باكينجهام (James Silk Buchingham)، الرحالة والصحفي

(١) الحديدة: ميناء على ساحل اليمن على البحر الأحمر.
(٢) ميناء يمني قديم في مدخل البحر الأحمر كان مركز تجارة التوابل التي كانت تستورد من الهند، ومركزًا لتصدير البن اليمني الذي عرف في العالم باسم مخا «Mocha»

مؤسس دورية أثينوم (Athenaum). وفي خطاب أرسله إلى بوركهارت من مخا في ٩ فبراير عام ١٨١٥م يصرح باكينجهام بأن سيتزن اصطحب معه في رحلته الأخيرة (١٧) جملًا. لم يهتد إلى التكهن بماهية أحمالها ولماذا أغرى سيتزن العرب باستعراض كبير. ومع ذلك فإن «لحيته الطويلة، وهيئته العامة ومعرفته للغة العربية» لا تثير الشكوك. أما مجموعته النباتية والمعدنية فلم تكن ذات قيمة تجارية تذكر، وأُرسلت إلى إمام صنعاء بصفتها ضربًا من السحر. وقد أودع ملحوظاته ومفكراته وخرائطه في أيدي إيطالي يدعى بنزوني (Benzoni) في مخا. لكن هذا الرجل مات، وعهد بها إلى وسيط هندوسي من شركة الهند الشرقية. عند انتشار خبر موت سيتزن سُلِّمت إلى الدولة. لكن من أجل هذا، ربما تنافس سيتزن مع بوركهارت في نيل شرف استكشاف مكة.

تستحق بعض أقواله الأخيرة التدوين، يقول: «بصفتي مسلمًا عليَّ أن أحمل القرآن معي وأتَّبع أحكامه متقمصًا شخصية عابد الأصنام، أعلق التمائم[1] على كل مكان من جسدي. لا أظن أنني سوف أجرح كرامتي بهذا الاعتراف في نظر الناس المستنيرين، ولن أفقد احترامهم الذي أعول عليه كثيرًا، لأنهم يعرفون جيدًا كيف أميز المراسم من الأخلاق الحميدة، والغث من السمين». تتضمن آخر رسالة كتبها قطعة مفعمة بالكآبة إذا ما قورنت بما تلاها: «ما عشت وكنت معافى، سوف أسارع بعد إنهاء رحلتي إلى الجزيرة العربية، بشوق كبير لتحقيق هدف أسفاري كلها في إفريقية، حيث أتمنى أن يسدي لي قناع الإسلام خدمة كبيرة».

---

(١) تعليق التمائم ليست من الإسلام وهي من البدع التي يمارسها بعض الناس لجهل أو ضعف.

جون لودفيك بوركهارت (John Ludwig Burkhardt)
(١٨١٤ - ١٨١٥م)
(شيخ حاج إبراهيم)

إن وفاة سيتزن وخسارته للأوراق التي سرقت منه كانت في مصلحة بوركهارت الذي يعد كتابه أساس كل معرفة دقيقة عن مكة. فوصفه للمسجد الحرام غير قابل للتغير. ويعترف بيرتون (Burton) أنه لا يمكن الزيادة عليه، وكل صفحة من صفحات الكتاب مملوءة بالحقائق الدقيقة. قد تتغير ظروف الشكل الخارجي للحج من سنة إلى أخرى، لكن الأوصاف الأساسية لشعائر الحج كانت كاملة عنده، لقد انتهت ملاحظات المغامرين الأوائل، وحل محلها جمع الحقائق وتنسيقها. فالمرء لا يشعر بتوتر عصبي حينما يدخل المدينة المقدسة، ولا يرتاح حين يغادرها كما صوَّر لنا ذلك الرواد الأوائل الذين دخلوا مكة في السابق، لقد تقمص بوركهارت الشخصية الشرقية بشكل كامل لدرجة أنه يصعب على المرء أن يعرف أنه مسيحي متنكر، وكما كان حال سقراط في المدينة الفاضلة - كما قال كارلايل - كان حال بوركهارت الذي شعر بارتياح شديد في مكة.

ولد بوركهارت في مدينة كيرجارتن (Kirchgarten)[١] الألمانية سنة ١١٩٩هـ (عام ١٧٨٤م)، وتلقى تعليمه في جامعتي لايبزيغ وغوتينجين (Leipzig & Gottingen)[٢]. تملكه هاجس حب مجرد للمعرفة. وهناك شهود

(١) كيرجارتن مدينة ألمانية صغيرة.
(٢) لايبزيغ إحدى مدن غرب ألمانيا الشهيرة بصناعاتها.

كثر على نقاء سريرته واتقاد طبعه. في سنة ١٢٢١هـ (عام ١٨٠٦م) زار إنجلترا. كانت البلد الوحيد غير الخاضع لفرنسا، واختارها بناء على نجاة والده من الموت بأعجوبة عام ١٧٩٦م بتهمة باطلة بأنه جاسوس نمساوي. درس العلوم واللغة العربية في لندن وكيمبرج. وفي عام ١٨٠٩م قام برحلته الأولى لمصلحة لجنة المنظمة الإفريقية. وكان أمرًا مهمًا له أن قرأ في مالطا رسالة سيتزن إلى تاجر إنجليزي يعطيه خطة للأسفار. قضى النصف الأول من السنوات الخمس التالية في سورية أضاف فيها يوميًا مهارات جديدة إلى معرفته العملية بالعربية. وقضى النصف الثاني في رحلة إلى النوبة والإقامة بمصر العليا.



صورة لجون لويس بوركهارت وهو في سن ٢٤

في ٢٧ رجب من سنة ١٢٢٩هـ (١٥ يوليو عام ١٨١٤م) وصل برفقة عبد إفريقي إلى جدة. تنكر في زي متسول، وكانت ثيابه رثة إلى درجة أنه أُعفي من دفع الرسوم. وبما أنه سكن في خان شعبي أقعدته نوبة حادة من الحمى، وعند تماثله جزئيًا، لأنه كان على شفير الإفلاس، فقد باع عبده بثمانية وأربعين دولارًا كانت كافية لتغطية نفقات رحلته إلى النوبة، لكنه افترق عن

عبده الذي أسف لبيعه. لبس الآن ثوب شاب مصري من العامة، وكتب رسالة إلى القاهرة لتزويده بالمال الذي ما كان ليصله قبل بضعة شهور، ولم يعد لديه أي مصدر تمويل. لذلك خطرت له فكرة مخاطبة محمد علي باشا مصر الذي تحدث إليه في القاهرة. كان محمد علي في الطائف على وشك شن حملة ضد السعوديين. وجَّه بوركهارت رسالة إلى بوساري (Bosari) وهو الطبيب الأرمني للباشا يتوسل إليه ليشرح وضعه المزري لسيده. وبينما كان ينتظر جوابًا قام مراسل بوساري في جدة، الذي أرسل الرسالة عن طريقه، بذكر اسم بوركهارت أمام يحيى أفندي طبيب طوسون نجل محمد علي. تعرف يحيى أفندي إلى بوركهارت، واستمع إلى قصته، وأسلفه نقودًا مقابل فاتورة من القاهرة. بعد قليل جاء جواب من الطائف. سمع محمد علي بشكل مستقل من بوساري أن بوركهارت كان يتسكع في جدة بثياب رثة. أرسل حينها رسولًا في طلبه إلى الطائف، فأمر له ببذلة و٥٠٠ قرش، وفي ملاحظة ملحقة أمر الرسول بأن يسلك طريقًا إلى الطائف شمالي مكة، وهو ليس الطريق المعتاد الذي يخترق المدينة. وبما أنه يعرف عادات الشرق من أنَّ قابل العطية محتقر ما لم يكن باستطاعته ردها ضعفين، قبل بوركهارت لفتة محمد علي الكريمة على استحياء. كان مغزى الملحوظة الملحقة واضحًا له، لكن لم يكترث به كثيرًا.

كان الوقت القصير الذي قضاه بوركهارت في جدة كافيًا له ليبحث في أسباب ازدهارها الذي عزاه إلى كونها ميناء لا لمكة وكل الجزيرة العربية فحسب، بل لمصر والهند أيضًا. فقد رست كل السفن التجارية بين هذه البلدان في جدة بأمر من شريف مكة الذي تضخم دخله عن طريق الرسوم الجمركية التي بلغت عام ١٨١٤م (٤٠٠) ألف دولار. كانت تجارة القهوة وتجارة الهند أهم فروع التجارة. وفيما يتعلق بالواردات حتى في أقل الأشياء كانت مكة تعتمد كليًا على مصر وجزر الهند الشرقية. كانت ثروة أغنى تاجرين تقدر بمئة ألف ومئتي ألف من الجنيهات الإسترلينية، ومع ذلك لم يأنف البيع بالتجزئة.

شاهد بوركهارت مشهدًا غير لائق لأحدهما وهو يتجادل مع بائع جوال حول سلعة تساوي (١٥) شلنًا.

في ٨ رمضان سنة ١٢٢٩هـ (٢٤ أغسطس) شد الرحال إلى الطائف. على الرغم من الملاحظة الملحقة المهمة. مر الطريق الذي اختاره دليله عبر شوارع مكة من شمالها الأقصى. كان الجزء الأكبر من المدينة محجوبًا خلف تعرجات الوادي، لذلك لم يكن منظرها كاملًا بالنسبة إليه. ثم تابع السير بمحاذاة طريق يصعد بين التلال والجبال إلى سفح سلسلة تدعى جبل كرا[١]. تملكه العجب من واحة خضراء على رأس هذه الجبال إذ بدت له كأجمل بقعة في الحجاز[٢]. لقد نبت كثير من أشجار الفاكهة الأوربية هناك وسط حقول خضراء ترويها الجداول. لسوء حظ بوركهارت تمت معظم الرحلة في الليل، لكن أسعفه الحظ عند مروره بهذه الواحة عند شروق الشمس. غطت كل ورقة ونصلة عشب قطرات ندى بلسمية. وفاحت رائحة عطرة لذيذة من الأشجار والشجيرات. من هذه البقعة المحببة إلى النفس نزل مع مطوفه إلى الطائف (في أغسطس). تبلغ المسافة بين مكة والطائف (٧٢) ميلًا. توجه مباشرة إلى منزل بوساري الأرميني، وفي إجابته عن الأسئلة ذكر أن أسباب وجوده في الحجاز نيته في أداء الحج. بعدها كان سيعود إلى القاهرة. لكن سأله بوساري بحسن نية ما إذا كان يفكر بزيارة الهند. فأجاب بوركهارت بالنفي القاطع.

عاد بوساري أدراجه إلى محمد علي بهذه المعلومة المخابراتية. ثم عاد ليروي ملاحظة مهمة للباشا: «ليست اللحية وحدها تثبت أن الرجل مسلم حقًا». أجاب بوركهارت بأن مشاعره قد جُرحت بتوجيهات إحضاره إلى الطائف بعيدًا من مكة، وأنه لن يمثل بين يدي الباشا ما لم يُستقبل بصفته تركيًا. جاء الأمر إلى بوساري بإحضار بوركهارت ليمثل في حضرة الباشا. أدهشه هذا

(١) جبال كرا، هي جزء من سلسلة جبال الحجاز التي تفصل مكة عن الطائف.
(٢) هذه الواحة هي بلدة الهدا في رأس جبل كرا بين مكة والطائف.

الإعلان. نجح على أية حال في تدبير الأمور، وتم تقديم بوركهارت. جرى حديث محمد علي بشكل رئيس حول السياسة الأوربية. تلقى معلومات عن دخول الحلفاء إلى باريس، ونفي نابليون إلى إيلبا[1] (Elba)، وانتابه الشك في أن إنجلترا بعد إعادة السلام إلى أوربا سوف توسع من سلطتها في الشرق وتغزو مصر. وقد ظهر له بوضوح أنهم كانوا يعدونه جاسوسًا إنجليزيًا أُرسل للتحقق من أوضاع كل من مصر والجزيرة العربية، ليرفع تقريرًا إلى الإنجليز في الهند. كانت أول خطوة في إبعاد الشبهة عنه ودحضه القاطع لتهمه التجسس. قام اثنان من علماء الشريعة القديرين في الجزيرة العربية آنذاك باختباره في القرآن، وأعلنا أنه ليس مسلمًا فحسب، بل هو مسلم واسع العلم.

مع ذلك لم يُسمح له بمغادرة الطائف. كان يحظى كل يوم تقريبًا بلقاءات ودية مع الباشا، لكنه شعر أنه مراقَب من قرب حتى إنه سئل مرة ما إذا كان يحتفظ بمفكرة. لم يكن التخلص من تهمة جاسوس إنجليزي بالأمر السهل. لكنَّ ذهنه الحاد اخترع له علاجًا لهذا السجن المهذب. إذ بدأ يتصرف بطريقة تجعل من مضيفه بوساري يفكر بالتخلص منه. فقد اختار أفضل غرفة في المنزل، وطلب الوجبات في أوقات غير مألوفة، وأبقى الخدم في حالة خدمة دائمة. وأعلن أنه في غاية الارتياح، وأن جو الطائف كان مفيدًا لصحته بعد الحمى التي أصابته في جدة، وأنه تمنى لو تطول إقامته هناك. وبما أن كرم الضيافة في الشرق يمنع من الانزعاج من مثل هذا التصرف، قام بوساري بإقناع محمد علي بأن الغريب ليس جاسوسًا، وتدبر أمر ترحيله إلى مكة مباشرة.

كان من بين الحضور عند الباشا قاض من القسطنطينية، وبدا لبوركهارت أن هذا الرجل يتصرف بنية توجيه تهمة إلى محمد علي أمام الباب العالي بأنه يدبر زيارة نصراني إلى المدن المقدسة.

---

(١) جزيرة إلبا هي الجزيرة التي نفي إليها نابليون بونابرت، وتقع بين الساحل الإيطالي الغربي وجزيرة كورسيكا.

أما قضية ما إذا اقتنع محمد علي بأنه مسلم حق أم لا، فبقيت غائبة عنه. وحينما التقيا بعد ذلك في القاهرة أصر الباشا على أنه لم يقتنع، لكن صداقته للأمة الإنجليزية قد قادته إلى أن يغض الطرف، ربما خشي أن بوركهارت شأنه شأن باديا قد يعلن للعالم في كتب أسفاره عن الخدعة، وقد يظن بمحمد علي الظنون بأنه كان مسلمًا سيئًا لا أحمق. في ٢١ رمضان سنة ١٢٢٩هـ (٧ سبتمبر) غادر بوركهارت الطائف إلى مكة. التقى بثلاثة جنود ألبان مصادفة في الطريق فرافقوه. لبس الإحرام في المكان المحدد [الميقات]. بعد قليل وبينما كانوا يعبرون وادي نعمان(١) هبت عاصفة رعدية من المطر والبرد والرعد والبرق، ثم ما لبث الوادي أن امتلأ بالماء حتى عمق ثلاثة أقدام، والشعاب بعمق خمسة أقدام سالت بزبدها عبر الطريق. أصبح من المستحيل متابعة السير فآوى المسافرون إلى أطراف الجبال لتعصمهم من الماء، معرضين أنفسهم بذلك إلى خطر دهم الشلالات النازلة عليهم. بعد ثلاث ساعات توقف المطر وتلاشت السيول. استطاعوا متابعة السير وهم يقودون حميرهم أمامهم فوق الأرض الزلقة. كما زادت الغيوم الطين بلة، إذ جعلت الليل ظلامًا دامسًا، وكادوا يتجمدون من البرد. أخيرًا، وعلى مقربة من عرفات اكتشفوا كوخًا للقهوة سلم من الفيضان. قضوا ليلتهم هناك. وفي اليوم التالي دخل بوركهارت مكة. أما رفاقه فقد هجروه فجأة، فأصبح بذلك بائسًا مهجورًا. عند باب المسجد الحرام رافقه عدد من المطوفين. فاختار واحدًا، وقام بالطواف، وقبّل الحجر الأسود ولمسه، وشرب من ماء زمزم. تبعه المطوف ملاصقًا له يلقنه الأدعية الضرورية. ثم سعى سبع مرات بين الصفا والمروة، وأدى العمرة. أعطى أدق التفصيلات عن هذه المناسك كلها.

لم يجد سكنًا على الفور، لكنه اكتشف أخيرًا مطوفًا فقيرًا أجّره غرفة بخمسة عشر قرشًا في اليوم. كان هذا الرجل سيئ السمعة بين طبقته. لم يفاجَأ

---

(١) أحد أودية مكة المشهورة، ويقع إلى الشرق من مدينة مكة المكرمة.

حينما سرقت بعض الأشياء من حقيبة سفره. لكنه كان محقًا في الشعور بالغضب لوقاحة غير لائقة وأعمال دجل. يوم العيد دعا المطوف أصدقاءه إلى عشاء فخم في غرفة بوركهارت الذي تلقى دعوة هو الآخر لكنه طولب بدفع الفاتورة في اليوم التالي.

كان الشهر رمضان. كل ليلة كانت تضاء آلاف المصابيح في المسجد [الحرام]، وكان يلجأ المصلون إليه للعبادة أو تبادل أطراف الحديث. بدا المشهد لبوركهارت أشبه ما يكون بتجمع أوربي ضخم.

في ١٥ سبتمبر شد الرحال مرة أخرى إلى جدة ليكمل معدات سفره. احتُجز هناك ثلاثة أسابيع، عانى فيها التهاب في الساقين نتيجة لدغ البعوض. في هذه المدة التقى مصادفة جيه - إس - باكينجهام ومرتدًا إسكتلنديًا شابًا اسمه عثمان. أرسل رسالة إلى باكينجهام من مكة بعد بضع أشهر: «المطاردون لي وضيعون ومهينون؛ لأنهم يجبرونني بشكل خاص على الاختلاط والعيش سنوات كثيرة مع سيئي السمعة، والمدقعين والبؤساء في طبيعتهم البشرية. كلمة حق، أتمنى أن أنتزع إكليلًا من براثن الشهرة».

في نحو منتصف أكتوبر عاد إلى مكة يرافقه عبد اشتراه حديثًا. لم يكرر تجربته السابقة في السكن مع أحد المطوفين. فقد استأجر غرفة في حي غير مزدحم في مكة. في الواقع كانت هناك بضع أشجار أمام نوافذه. كانت خضرتها وسط القحط أشد بهجة من أجمل منظر طبيعي في ظروف مختلفة. تقمص شخصية مملوكي، وهذا مكنه من الاختلاط أكثر بحجاج أجانب. حتى لو فُتش ما عنده ما يخشاه. كان من الأمور المعتادة في مكة في أثناء الحج تقمص شخصية مزيفة للنجاة من الحجز. ويذكر أنه لم يستمتع بأي رحلة أخرى إلى الشرق مثلما استمتع ونعم بالراحة في مكة.

استفاد بوركهارت من المدة الفاصلة قبل الحج بإجراء أبحاث. وصف

مكة بأنها مدينة جميلة بطول نحو (١٥٠٠) ذراع. عُوِّض عن الأسوار بالحاجز الطبيعي وهي التلال المحيطة بها. كانت الشوارع أعرض من معظم شوارع مدن الشرق بغية تسهيل حركة الحشود وقت الحج. في مغايرة واضحة مع اللون الأبيض الفاقع لمنازل جدة بنيت منازل مكة من الحجر الرمادي الباهت اللون. وأطلت نوافذ كثيرة على الشارع (وهذه سمة غير شرقية)(١). برزت هذه النوافذ من الجدران وهي محفورة بإتقان، أو مطلية بشكل مبهرج. كانت البيوت شامخة، ولكل منها مصطبة [خارجة]. وبما أن النساء كنّ يقضين معظم وقتهن على المصطبات، فقد كن يتخفين وراء حواجز. حصل دمار هائل من جراء الأمطار الشديدة حتى إنه لا يوجد بيت واحد عمره أكثر من أربعة قرون. إذ لم توجد عينات تذكر من الهندسة المعمارية أو آثار للهياكل العربية قبل الإسلام. أما الشوارع فكان يخيم عليها ظلام دامس. كما كانت غير نظيفة إذ ترمى إليها القمامة من المنازل لتتحول إلى تراب أو طين حسب الفصل إن كان شتاء أم صيفًا.

يصف بوركهارت أحياء مكية أخرى بدقة مماثلة. يدعى شارعها الرئيس بالمسعى تيمنًا بالسعي بين الصفا والمروة الذي يؤدى هناك. ويقطع مكة من أحد أطرافها إلى الآخر مرورًا بأبواب المسجد (الحرام). في أثناء الحج يصبح أشبه بالسوق المفتوحة (البازار) في القسطنطينية. كان في هذا الشارع أيضًا كثير من المقاهي. كما كان هناك أيضًا صناع أوانٍ من الصفيح، كان الحجاج يحملون فيها ماء زمزم إلى بيوتهم. وبما أن شارع المسعى كان عريضًا وضخمًا، فقد كان يُستخدَم مكانًا للإعدام. اتبع أهل مكة حسب مهنهم قانون الفصل والتخصص. كان الحي الفقير والرخيص قرب المسجد (الحرام) يرتاده الأتراك أكثر من غيرهم. كانوا يستيقظون في الليل عند رؤيتهم أحلامًا مزعجة ليأتوا بالطواف

(١) لقد كانت نوافذ مكة وجدة واسعة لمزيد من التهوية والتبريد وإدخال أكبر كمية من الهواء إلى الداخل، ومعظم هذه النوافذ أخشابها مستوردة من الهند على الرغم من أن الطراز هو إسلامي، وربما كان للفن المعماري الهندي تأثير في النوافذ والرواشين المكية.

وليشربوا ماء زمزم، ومن ثم يعودون إلى الفراش. وكان هناك حي المطوفين، وحي حوانيت القمح والسمن والتمر؛ وحي الحمامات. في أحد الشوارع أقام أحد الحجاج الزنوج سوقًا للحطب؛ وفي آخر سوق المواشي (الجمال والبقر). أما الخدم المخصيون [الأغوات] الذين كانوا يحرسون المسجد، والنجارون، والمنَجِّدون الأتراك، والمقاولون؛ والبقالون، والعطارون فقد كانت لهم أحياؤهم الخاصة بهم. منذ سبع سنوات خلت اشتكى باديا ليبليخ من أنه كان من المستحيل أن تصنع شيئًا حتى ولو قفلًا أو مفتاحًا. لكن بوركهارت يتحدث عن حدادين وصُنَّاع مفاتيح. أما صائغو الذهب والفضة فكانوا في «الشارع الصيني»(١). وكان هناك حي التجار الأغنياء من العرب والبدو والهنود. تساوم أحد هؤلاء الهنود الأثرياء الذي يقدر دخله بمئات الآلاف من الجنيهات مع بوركهارت لساعة ونصف حول شال من الموسلين يساوي أربعة دولارات وهي تكرار لتجربته في جدة. وكان هناك سوق للرقيق. أما البدو الذين تاجروا بالذرة والتمر والماشية فقد عاشوا في خيم. في الحي الجنوبي الغربي كان سماسرة القوافل، والبدو الذين كانوا يُسَيِّرون تجارة النقل بين مكة وجدة. من هذا الحي أيضًا كانت تنطلق قوافل الحمير المكلفة بنقل الرسائل يوميًا بين مدينة مكة وميناءها في رحلة تستغرق من ١٥ إلى ١٦ ساعة. بلغ عدد السكان المقيمين بمكة آنذاك ٢٥ - ٣٠ ألفًا.

كان معظم سكان مكة نسبيًا أجانب. ما زال هناك بقايا من قبيلة قريش القديمة التي كانت زمن الرسول ﷺ. في كل سنة يتخلف في مكة بعض الحجاج الذين كان يتزوجون من إماء حبشيات. ومرد اللون الأسمر المصفر للمكيين هذا العرق الحبشي. وعلى الرغم من الأصول المتنوعة لأهل مكة، فإنهم تخلقوا بالعادات العربية، وارتدوا الثوب العربي. حقًا كان الثوب ذا قيمة.

---

(١) قصد بهذا التعبير زقاق الصاغة الذي غالبًا ما يعمل فيه المجاورون من جنوب شرق آسيا.

فربما يملك رجل ثري أربعين ثوبًا، وأيام العيد ترتدي كل طبقة زي الطبقة التي فوقها. «قد يقبل المرء أن يُنعت باللص خير له من أن يسمح لأقرانه من الطبقة ذاتها أن يفوقوه في الأناقة. فقد كان عند الأسر ذات المستوى المادي المتواضع عبيد زنوج. وكانت معظم الخليلات حبشيات».

كانت التجارة هي المهنة الرائجة. عولت مكة كليًا على البلاد الأجنبية في توفير السلع اليومية. كان أهل الحرف قلة قليلة وتعوزهم المهارة: باستثناء صناع الفخار، لم يكن في مكة ولا مصنع واحد. لذا نشطت التجارة على نطاق واسع جدًا، وبخاصة في موسم الحج، حيث يصبح شارع المسعى أشبه ما يكون بمعرض، حيث كان التجار الأثرياء يتبادلون منتجات بلدانهم بعضهم مع بعض أو مع المكيين مقابل السلع الهندية التي كانت تباع بالجملة بربح قدره ٣٠٪، وبالمفرق بربح ٥٠٪. وكان يُكسب كثير من الربح بالتحايل من خلال استعانة الحجاج الذين يجهلون العربية بالسماسرة والمترجمين. أما المكيون الذين لم يقدروا على المتاجرة بالسلع الهندية، فقد فتحوا مخازن ذرة و أرز وبسكويت [الشابورة]. عند دنو الحج، لضرورة توفير الطعام لآلاف الناس والجمال، كانت ترفع أسعار المؤن، ويباع كل شيء بربح فاحش.

هناك أعداد كبيرة من سكان مكة يعملون في التجارة التي انخرط فيها معظم السكان حتى العلماء منهم. والناس هنا يشبهون الكثير من الأشخاص لدينا في الغرب الذين يعملون في أسواق العملات، ولقد وفرت أعمال الخدمة في المسجد الحرام مهنة أخرى بجانب التجارة، فالذين يعملون في المسجد الحرام يتقاضون أجورًا من الحجاج، كما يأخذون رواتب وأعطيات من عائدات المسجد الحرام. ومن الجدير بالذكر أن المسجد له أوقاف في كثير من بقاع العالم الإسلامي، يرسل ريعها إلى المدينة المقدسة، إضافة إلى الحوالات السنوية التي يرسلها سلطان تركيا وباشا مصر.

كانت مهنة المطوف خاصة بأكسل الأشخاص في مكة[١]. وورد ذكر الحيلة التي قام بها أحد هؤلاء على بوركهارت. بعد عودته إلى مكة، كان سيئ الحظ حينما قابل المطوف في الشارع. منذئذ أصبح هذا الرجل زبونًا مداومًا يزوره في مسكنه، ولم يشاركه في كل وجباته فحسب، بل أيضًا أخذ كل مؤنه في سلة[٢].

ربما تُوكل إلى هؤلاء المطوفين مهام أخرى. فقد يحدث أن أرملة غنية تود أن تزور الأماكن المقدسة وهي بحاجة إلى محرم. لذا تعقد زواجًا شكليًا مع أحد المطوفين الذي يرافقها إلى مكة وعرفات في شخصية زوجها. عند انتهاء المناسك على المطوف أن يطلق السيدة، فإن لم يفعل فالزواج قائم.

إن الأموال الطائلة التي تتدفق إلى مكة يبددها أهل مكة بسرعة على اللباس والحاجات المكلفة والأثاث الباهظ الثمن، واللهو، وإشباع الملذات. ففي منزل صاحب دكان صغير قد ترى السجاد البديع، ووسادات الديباج والأرائك، وآنية الخزف الثمينة، والنارجيلات المطلية بالفضة. يأكل لحمًا طازجًا كل يوم، ويدخن تبغًا غالي الثمن، وإبريق قهوته في متناوله. ومع ذلك كان للمكي أيام بوركهارت خصاله الحميدة. فقد كان مفعمًا بالحيوية وذكيًا ولبقًا في سلوكه. كان مغرمًا بالطُرف، وبالحديث بين الفينة والأخرى عن موضوعات جادة، تتخللها توريات أو أمثال مثيرة للضحك. كان كبرياؤه فطريًا. وكان حسه بكرم الضيافة يصحو عند أدنى ذريعة. «متى ستشرفني إلى البيت وتتناول طعام العشاء معي؟»، كانت عبارته المعهودة: خصلة ربما ورثها من أجداده البدو.

---

(١) هذا حكم غريب لأن مهنة الطوافة تستلزم النشاط والمعرفة والحركة.

(٢) هذا المطوِّف كون فكرة سيئة لدى بوركهارت عن جميع المطوفين. ونرى من خلال مطالعة كتاب بوركهارت أنه قد أساء كثيرًا في حكمه على هذه الطائفة التي أوجدتها الضرورة لخدمة الحجاج.

إن مرد كبرياء المكي إلى انتمائه إلى مدينة في رعاية الله. حفظه هذا على أقل تقدير من الرق المذل لأعراق من أهل الشام. لم يكن مثقفًا. «لا يُتَوقع أن يزدهر التعليم في مكان تكون فيه العقول منشغلة بالبحث عن غنيمة أو عن الجنة»[١]. ومع ذلك كانت اللغة نقية ولبقة. كانت شبيهة باللغة العربية القديمة المكتوبة، وكانت تعد أهم دراسة بعد دراسة الشريعة المقدسة.

يكثر المتسولون في مكة. إذ يعولون كليًا على صدقات الغرباء، لأن المكي تعد نفسه ميسورًا فيستغني عن هذه المهنة. تروى حكايات كثيرة حول إلحاحهم المزعج وغطرستهم، حينما يستجاب لطلبهم يقولون: «إن الله أعطاني وليس أنت».

بينما كان بوركهارت منهمكًا في أبحاثه، وجد أن الوقت يمر بسرور. تعرف إلى بائع عطور، وقضى ساعتين كل يوم على مقعد أمام دكانه وهو يشرب نارجيلته. كان يسمع هنا آخر الأخبار. أما الموضوعات التي كانت تناقش فهي وصول حاج ذي شأن عظيم، أو تحركات جيش محمد علي، أو قضايا المحاكم، أو التجارة، أو السياسة الأوربية، أو كنوز نابليون. قضى طرفًا من النهار في مقهى يتحدث مع البدو، والأمسيات في ساحة المسجد العظيمة. وبينما هو جالس على سجادة ينفحه النسيم العليل الذي يهب هناك دائمًا وسط مشاهد العبادة وأصواتها، كان يسرح بذكريات عن مناطق نائية.

---

(١) هذا غير صحيح. فمكة على وجه الخصوص شهدت نشاطًا علميًا طوال عهود تاريخها. وقد تناول دحض هذا الرأي مستشرق آخر جاء لزيارة مكة بعد بوركهارت، ألا وهو سنوك هورخرونيه حيث قال: «إنه من المؤسف حقًا أن رجلًا عالمًا مثل بوركهارت يصور قصور أهل مكة في الحضارة والعلم بصورة مبالغ فيها». إن رأي بوركهارت هذا غير صحيح والدليل على ذلك ما وصفناه - والقول لهورخرونيه - من عرض تاريخي مفصل لواقع العلم والحضارة، هذا الواقع الذي أنكره بوركهارت، (انظر: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، ج٢، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ص ٣٥٩).

تقاطرت الجموع إلى المسجد (الحرام) عند الغروب لصلاة المغرب، يتوزعون حول الكعبة على شكل دوائر تتوسع باستمرار. يبلغ عددهم بين ٦ - ٨ آلاف. ثم وقف الإمام قرب باب الكعبة، وكان يركع ويسجد خلفه جموع المصلين كلهم. تأثر بوركهارت كثيرًا بهذا المشهد وتأمل المسافات البعيدة التي أتى منها هؤلاء.

لم يكن المسجد وحده مضاء بآلاف المصابيح فحسب، بل كان كل حاج يحمل قنديلًا خاصًا به. «إن روعة هذا المشهد والنسيم البارد الذي كان يملأ الساحة، جعلت الجموع الغفيرة يمكثون حتى منتصف الليل. وتسمح الساحة بصفتها المكان المفتوح الفسيح الوحيد في المدينة كلها بهبوب النسيم العليل من كل باب من أبوابها. لكنَّ المكيين يعزونه إلى رفرفة أجنحة الملائكة التي تحرس المسجد». حاجٌّ وحيد قادم من دارفور أرهقته رحلة طويلة عبر الصحراء، وقعت عينه فجأة على هذا المشهد، وهاله منظر الكعبة السوداء في خضم بحر من الأنوار فخر ساجدًا. وحين رفع رأسه قال: «يا الله الآن اقبض روحي، فهذه هي الجنة».

في ساعات الصلوات فحسب كانت تطغى روح القداسة في المسجد. أما في ما خلا ذلك فكان يتردد صدى حديث الأشخاص العاطلين، وضحكات الصبية. يقضي الهنود الفقراء كل وقتهم تحت الأروقة وبين الأعمدة. ويلتقي التجار لمناقشة تجارتهم. أوحى وجود بعض المرضى بجو المستشفى. وحسب قول بوركهارت لم يكن الطهي مسموحًا به، لكنَّ أوربيين آخرين لاحظوا ذلك. قام الخدم الذين يحملون الأمتعة إلى أطراف مكة المختلفة بعبور الساحة [المسجد الحرام] اختصارًا للطريق.

في مناسبتين منفصلتين دخل بوركهارت جوف الكعبة. ورأى الزحام الشديد في أقدس المقدسات. «بينما يصلي المرء يمر آخر من فوقه». النحيب

والعويل ملأ الحجرة، وبدا أنه أحس بعواطف جياشة وتوبة نصوح عند كثير من الزوار. كان الحر شديدًا حتى إن كثيرين حُملوا إلى الخارج مغمى عليهم. سمع بوركهارت كثيرًا من الحجاج يستنكرون جشع القائمين على أقدس بقعة في العالم. ولاحظ أن عصي البوابين المخصيين عند المدخل تنهال بقوة على رؤوس أولئك الذين لم يضعوا النقود في أيديهم. عند زيارته الثانية كانت الكعبة مكسوة بالكسوة الجديدة التي أحضرها من مصر محمد علي. أما القديمة فبيعت إلى الحجاج بسعر دولار واحد لقطعة مربعة تبلغ ست بوصات.

كانت أشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر التي قضاها في مكة حارة جدًا. صدت الصخور التي احتضنت الوادي الريح، وعكست أشعة الشمس الحارقة إلى درجة الضعف. قلما تمتع بصحة جيدة، لكنه كان معافى من المرض في أثناء أيام الحج الخمسة. وسبق له أن عانى إعياءً واكتئابًا، وخوفًا من حالات الإعياء والأخطار.

أخيرًا وصلت قوافل الحجاج الضخمة. ربما كانت الحرب مع السعوديين والحالة المضطربة للبلاد مسؤولتين عن هبوط أعدادها مقارنة بالسنوات السابقة. لكن بوركهارت رأى انحسارًا في عدد الحجاج، أتى كثيرون بحرًا لتجنب مشاق رحلات البر. قيل قديمًا: إن هذه المشاق تزيد من أجر الحج. كانت التجارة في رأيه آنذاك الإغراء الرئيس للقيام بالأمر كله. كانت القافلة السورية في الطليعة إلى عرفات، تلتها القافلة المصرية، فباقي الحجيج، ثم أهل مكة. اكتظت الشوارع التي لم تخل قبل مضي ساعات طوال. كان بعض الحجاج يقرؤون القرآن وهم جالسون على ظهور جمالهم، وبعضهم الآخر يدعون، وآخرون يرفعون صوتهم ضد السائقين أو يتشاجرون مع جيرانهم لسدهم الطريق عليهم. كان في عرفات شارع طويل نصبت على جانبيه خيم كأسواق مفتوحة للتزود بالمؤن. خرج الحجيج من الأودية وانتشروا فوق السهل، يبحثون عن خيمهم. «شوهدت أعداد لا تحصى من النيران الموقدة

على أرض يبلغ طولها ٣ - ٤ أميال. وظهرت عناقيد رائعة من المصابيح التي ميزت الأماكن المختلفة التي يعسكر فيها محمد علي، وسليمان باشا، وأمير حج القافلة المصرية. في أثناء الليل كله تعالت الأصوات بالدعاء والأناشيد، وامتزجت بأهازيج مرحة للمكيين.

في اليوم التالي صعد بوركهارت الجبل، وأطل على السهل المبيض بمعسكرات الحجاج على مسافة ٣ - ٤ أميال طولًا وميل أو ميلين عرضًا. كان عدد الحجاج (٧٠٠٠٠)، وفي النهار سَمِعَ أربعين لغة.

بدأت الخطبة في الساعة الثالثة بعد الظهر. ربما أرَّقت عقبة صغيرة في الشعائر المؤمنين. كان الخطيب عاجزًا عن إقعاد جمله لأنه كان حرونًا، لذلك ترجل عنه، وألقى خطبته واقفًا. عند الوقفات كان يرفع يديه متوسلًا يسأل الرحمة والبركة، وكما تقضي الشريعة عليه أن يُظهر تأثرًا، مسح عينيه. تجاوب الحجاج معه بالدعاء «لبيك» ولوحوا بإحرامهم فوق رؤوسهم حتى بدا الجبل أشبه بالشلال. جلس الحجاج الموجودون أسفل الجبل على جمالهم وهم يحملون مظلات خضراء، أعطت للسهل مظهرًا أخضر. في أثناء الخطبة كان بعض المستمعين يرفعون أصواتهم بالبكاء وهم يقرون بأنفسهم أنهم خطاؤون. وجلس آخرون في عبادة صامتة وأعينهم تفيض من الدمع. على مسافة منهم، كان أهل الحجاز وجنود أتراك يتبادلون أطراف الحديث والطُرف المختلفة والمتنوعة.

بعد برهة هدأ حماس الحجاج، ونزل كثير منهم عن الجبل. لكن لم يتم التحرك العام قبل انتهاء الخطبة[1]. بعدئذ اندفع الجمع الهادر في الطريق إلى مزدلفة وسط قذائف المدفعية، وأضواء المشاعل، وشرارات متطايرة. عند بلوغ منى تحول شارعها الوحيد إلى سوق. كان قوامه مجموعة متنوعة من

(١) التحرك إلى مزدلفة يتم بعد غروب الشمس وليس بعد الخطبة.

الباعة والمنتجات الوطنية المحصورة في ساحة صغيرة. تخطَّى السوق شارع المسعى. في الليل توهج الوادي كله. أضيئت المنازل والخيم. كان معسكر الباشا مضاء إضاءة شديدة، وأنارت مشاعل البدو المرتفعات. استمر إطلاق نار البنادق والمدافع حتى بزوغ الفجر.

بعد انقضاء ثلاثة أيام في منى وأداء الرمي والنحر عاد بوركهارت إلى مكة فوجد الشارع الرئيس مزدحمًا. كان الحجاج يبتاعون الزاد لرحلة العودة إلى الوطن، والمتسولون أكثر عجرفة من المعتاد، كانوا يستجدون الصدقات لتمكنهم من الوصول إلى بلادهم.

مثَّلت أروقة المسجد (الحرام) مشهدًا متناقضًا مع ما كانت عليه في السابق: بانت على وجوه الحجاج الفقراء بجلاء آثار الإجهاد من الرحلة الطويلة للقافلة، ثم شعائر الحج المرهقة. امتلأت بين صفوف الأعمدة (داخل المسجد الحرام) بالجثث من جراء الجوع والمرض والسكن غير الصحي، وتأثير الإحرام. وقام الحجاج الذين شعروا بدنو الأجل بتوجيه أطرافهم الواهنة باتجاه الكعبة ليكون آخر ما ينظرون إليه الكعبة. وكان بوركهارت الطيب ممن أراح أحد المشردين الفقراء وهو يلفظ أنفاسه، وأغلق عينيه.

كان في نيته متابعة مسيره إلى المدينة، لكنه اضطر إلى التأجيل شهرًا آخر في مكة. إذ ترددت القوافل في الانطلاق لأنه أشيع أن محمد علي سيدخل شخصيًا في حرب مع السعوديين. وإذا ما هزم فسوف تكون مكة الملاذ الآمن في الحجاز. كما أشيع أيضًا أن الباشا كان يفكر في احتجاز جمال الحجاج ليضعها تحت تصرفه في الحرب.

وصلت في الوقت المناسب أنباء الانتصار لمحمد علي في بُسل(١)

(١) بُسْل: واد ذو قرى ومزارع، سكانه العصمة وغيرهم من عتيبة، جنوب الطائف يتبع محافظة الطائف.

وقُطع الشك باليقين. حررت مكة نفسها من القوافل، وغدت مدينة مهجورة. أما فيما يخص الحجاج فما بقي منهم إلا بضع متسولين حزينين يتسكعون في الشوارع. غادر بوركهارت إلى المدينة في ٣ صفر سنة ١٢٣٠هـ (١٥ يناير عام ١٨١٥م) في قافلة صغيرة قوامها خمسون جملًا. سلكوا الطريق المحاذي للساحل. في البداية سارت عبر أودية من الرمال والصخور الصلبة، حيث سار ركب الجمال في رتل أحادي بين السلاسل المتعرجة للتلال المنخفضة. تلاها سهل حجري بكتل صخرية تقطع الطريق. كانت الجمال تغوص في الرمال المتحركة، وتتعثر بالصخور المنعزلة. فجأة كان منظر أشجار النخيل والنباتات الخضراء تمثل مغايرة مفرحة للجبال الجرداء الحادة المدببة على كلا الجانبين. وما إن اقتربوا من المدينة وهم يصعدون بطن أودية صخرية ملأى بأشجار الشوك حتى هبت عاصفة مطرية شديدة عليهم، وقطعت السيول الجارفة الطريق.

حدثت حادثة واحدة في هذه الرحلة تستحق الذكر، وتعكس طبيعة بوركهارت الطيبة. قبض البدو على ماليزي مسكين شرد عن القافلة، فأجبر على دفع فدية قدرها عشرون قرشًا. لكن رفض أهل بلده الدفع. كانت القافلة على وشك متابعة السير فتركته يتعرى ويسجن، حينما تدخل بوركهارت أمسك بخطام جمل القائد وجعله يبرك، واستطاع بقوة الحجة والمجادلة أن يحثه على المساهمة. وفعل هذا مع الرجل الذي بعده، ثم الذي بعده حتى جمع المبلغ المطلوب. حمل النقود إلى البدو، واستطاع إقناعهم بتخفيض المبلغ إلى النصف، وأعطى النصف المتبقي للماليزي.

وصلوا المدينة قرب منتصف الليل في ٢٧ يناير. كانت الأبواب مغلقة، لذا خيمت القافلة حتى شروق الشمس. نام بوركهارت من حماقته على الأرض الرطبة.



الحائط القبلي لمسجد المدينة
(من صور جيرفيه كورتيلمون من «مجلة المصور» الفرنسية، ٣ أكتوبر ١٩٠٨م)

فقد غرق من قبل بالمطر الغزير. كان الليل صقيعًا، واستيقظ مصابًا بالحمى. عند دخول المدينة وجد سكنًا في الشارع الرئيس على مسافة خمسين ياردة من المسجد. فزار على الفور قبر النبي ﷺ. لكن تلا ذلك انهيار تام للقوى. كانت المدينة آنذاك تحت إمرة طوسون باشا. كان معه يحيى أفندي الذي أخذ معه فاتورة إلى القاهرة. لسوء الحظ شاء يحيى أفندي أن يزور بوركهارت لأنه سمح له بحمل نصف رطل من اللحاء النفيس(١). جعلت عودة الحمى لبوركهارت يندم على كرمه، لكن يحيى أفندي كان قد تخلص من

(١) هذا اللحاء هو نوع من أنواع الأدوية اللازمة للحمى. وقد كانت حقيبة بوركهارت لا تخلو من هذا اللحاء. ولما زاره يحيى أفندي طلب منه كمية منه ليستعملها في علاج طوسون باشا. ويقول بوركهارت: لقد توسل يحيى أفندي إليّ أن أعطيه اللحاء لأني مدين له بأفضال كثيرة وقد كنت ساعتها في صحة طيبة، وبعد ذلك بيومين أصبت بالحمى فطلبت منه بعض هذا العلاج فقال بأنه وزعه، وهكذا ندمت على ما فعلت. (انظر بوركهارت: رحلاته في شبه جزيرة العرب، مؤسسة الرسالة، ص ٢٩٢).

اللحاء. عندها تملك بوركهارت اليأس بما أنه محبوس في غرفته لم ير أحدًا من البشر سوى مطوفه. كانت زيارات هذا الشخص مشبوهة: في حالة موت بوركهارت كان مكلفًا باحتجاز متاعه. وجد طمأنينة في الحديث مع صاحبة مسكنه العجوز، وفي قراءة أشعار الشاعر الإنجليزي ميلتون: كان الكتاب الوحيد الذي في حوزته، وهو يساوي الآن مكتبة بكاملها.

استمر مرض بوركهارت شهرين من الأشهر الثلاثة التي مكثها بالمدينة. لذا لم يكن لديه الكثير ليقوله عن المدينة وأهلها كما فعل عن مكة. تألفت المدينة من داخل المدينة وضواحيها. كان داخلها إهليلجيًا وبمحيط نحو ٢٨٠٠ ذراع، يحيط بها سور حجري سميك تحميها أبراج، ومن حولها خندق. كانت الضواحي غرب المدينة وجنوبها تنفصل عنها بفضاء مفتوح. كان من خلفها حدائق وحقول ومزارع النخيل.

بنيت المدينة كما رآها في القرن السادس عشر. كانت المنازل حجرية بكاملها، ومعظمها من طابقين، أحدهما عالٍ والآخر مستوي السطح. أضفى اللون القاتم مظهرًا كئيبًا زاد من حدته عدد المنازل المهجورة الخربة. كانت الشوارع ضيقة. لكن الشهيرة منها كانت تزهو بكثرة الأرصفة. وكانت الدكاكين القليلة متواضعة في الشارع الرئيس الذي يقود إلى المسجد. بدت المدينة لبوركهارت كمدينة شامية. كما وجدت عمارات عامة قليلة، وكثير من المنازل الخاصة، ذات حدائق صغيرة وآبار. وكانت معظم الضواحي مأهولة بالطبقات الأدنى من البدو والعاملين في الزراعة. ومع هذا كانت لبعض الأسر المعروفة منازل ريفية هناك. كانت وفرة الماء سببًا في خصوبة السهول المحيطة حيث كانت خيام البدو الذين كانوا يزودون المدينة بالماء. لكن كانت الحرفة الأساسية للمدينة زراعة النخيل، التي نالت من حيث الجودة شهرة واسعة في الشرق. وكان انهيار المحصول يتسبب في وجوم عالمي.

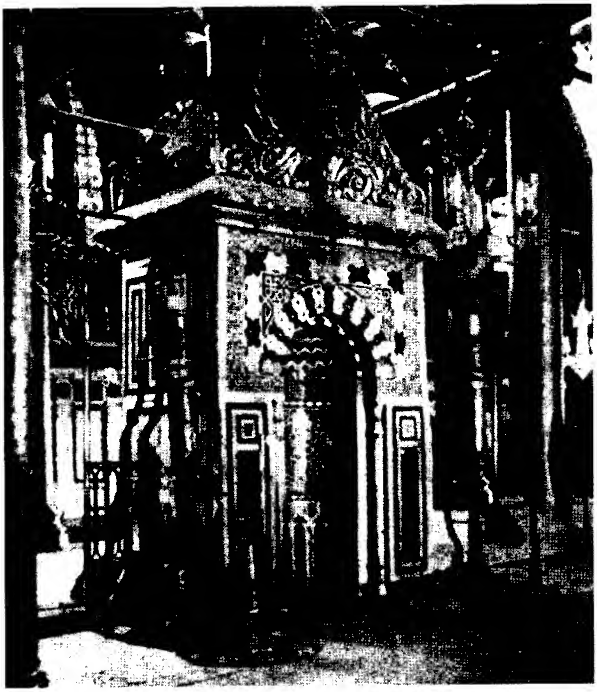
كان معظم أهل المدينة كالمكيين من أصول أجنبية. وكان المتطوعون للخدمة سنويًا من الزوار. لم يقلب الحجاج المدينة إلى سوق، بل كانت التجارة رائجة للحاجات الداخلية فحسب. لذا كانت على نطاق ضيق، ولم يكن فيها تجار كبار. كانت تجارة المؤن من ينبع الأكثر ربحًا، يليها استثمار الأرض حيث زرعت أشجار النخيل. كانت ندرة الحرفيين ملحوظة أكثر من مكة. عزا بوركهارت ذلك إلى قلة احترام عرب الجزيرة لهم. فقد كانت الكبرياء أقوى من الجشع، فمنعت الأب من تعليم أبنائه أية حرفة. الكبرياء خصلة موروثة عن البدو الذين استبعدوا الحرفيين من قبائلهم. وحينما كان المسجد بحاجة إلى إصلاح كان يؤتى بالحرفيين من القاهرة والقسطنطينية. اعتمد قسم من أهل المدينة على المسجد بصفته مورد رزق. وعلى معاشات من السلطان وهدايا الحجاج. أما عن خدم المسجد النبوي [الأغوات] فقد قدم صورة عنهم كتلك التي قدمها باديا عنهم في مكة. كانوا نحيلي الجسم ووجوههم غائرة إلى درجة أن العظام كانت تُعَدّ. وكانت أيديهم أشبه بهيكل عظمي، ومظهرهم العام بائسًا. كانوا يرتدون ثيابًا سميكة لإخفاء هزلهم، ومع ذلك يمكن التعرف إليهم عن بُعْد. كان المدنيون أقل بهجة وحيوية من المكيين. كانوا يجلون الآداب العامة للسلوك، لكن أخلاقهم كانت كالمكيين. كان حجم العقارات أقل من مكة، لكن كان الناس أغنى كما كان يبدو من مظهرهم الأنيق. كان هناك فقر شديد في الثقافة، لأن الشغل الشاغل للناس كان الحصول على النقود وإنفاقها في الملذات.

يجب أن نتذكر أنه لم تعان أي مدينة كما عانت المدينة من الحروب التي دارت بين جيش محمد علي والسعوديين. وتناقص السكان إلى نحو (١٠٠٠٠) أو (١٢٠٠٠). لم يكن بوركهارت أقل تحررًا من الأوهام حول قبر النبي ﷺ. «كانت الألوان البارزة المعروضة على كل جانب، والأعمدة

المصقولة، والسجاد الفخم، والمساطب الثرية، والنقوش المذهبة على الجدار الجنوبي والقضبان اللماعة للحجرة في الخلف، كانت هذه مجتمعة تبهر الأبصار بادئ ذي بدء. لكن بعد مسافة قصيرة يصبح جليًا أن هذا عرض لزخرفة فقط». وغاير بين المظهر البسيط لقبر النبي محمد ﷺ بشهرته بصفته أحد إحدى أقدس البقع في الإسلام ومقام أوضع قديس كاثوليكي يفوقه كثيرًا في روعته. واستنتج أن المسلمين على رغم تمسكهم كانوا غير راغبين في التضحية بأموالهم(١).

أصيب بوركهارت بالقنوط والكآبة، فغادر المدينة المنورة في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٣٠هـ (٢١ إبريل). وصل ينبع دون تعثر، اللهم ما خلا معاودة الحمى له، وكان في عجلة من أمره ليشد الرحال إلى مصر. بيد أن ينبع كانت تعج بالجنود - أولئك الذين سمح لهم بالصعود على متن السفينة -. أثنته حالته المَرضَية عن تجاوز هذا القانون بالرشوة. بينما كان جالسًا في مقهى لاحظ عددًا غير مألوف من الجنازات. لكن لم يعرف حقيقة الأمر حتى جلس وحده في الليل في الغرفة التي حصل عليها بصعوبة في أحد الخانات، وسمع صرخات الشدة من كل حدب وصوب. كان الطاعون في ينبع إذ انتقل من السويس إلى جدة على متن سفن محملة بمواد قطنية، ومن هناك إلى ينبع.

(١) كثيرًا ما يقارن الأوربيون بين المساجد الإسلامية والكنائس المسيحية التي تكثر فيها الزخارف والتماثيل وفنون النحت المختلفة. أما المساجد الإسلامية فتمتاز دائمًا ببساطتها، لأن الإسلام ينهي عن مثل تلك الأمور، ولا عجب أن يرى بوركهارت أن ضريح أدنى قديس هو أكثر زخرفة من قبر النبي ﷺ. فالمسلمون لا يهتمون بتزين القبور ولا تجميلها، وحتى ما عمله المسلمون من زينة لقبر النبي ﷺ كان في عهود متأخرة، وهي غير مقبولة شرعًا. لذا نجد أن استنتاج بوركهارت وقوله: «إن المسلمين برغم تعصبهم كانوا غير راغبين في التضحية بأموالهم» هو استنتاج خاطئ فالقضية ليست عدم الرغبة في التضحية بالمال، بل إن هذا الأمر منهي عنه شرعًا.



صورة المحراب الذي صلى فيه محمد ﷺ

(من صورة لجيرفيه - كورتيلمون من «مجلة المصور» الفرنسية - ٣ أكتوبر، ١٩٠٨م)

ارتفع معدل الوفيات إلى خمسين في اليوم على الفور. لاذ كثير من العرب بالفرار إلى الريف المحيط بالمدن، لكن لاحقهم الطاعون فعادوا أدراجهم. «دعاهم الله برحمته إلى حضرته، لكن شعروا بأنهم لا يستحقون ذلك فأعرضوا». كان الشارع الكبير مملوءًا على جانبيه بالمرضى الذين يكابدون آلام الموت، يسألون الناس أن يعطوهم.

في ٤ جمادى الآخرة (١٥ مايو) غادر بوركهارت إلى القصير في قارب مفتوح. دفع خمس دولارات بدلًا عن ثلاثة عن نفسه وعبده ليحظى بحيز خاص صغير. لكن حينما انطلق المركب وجد الربان وأخاه والقبطان والمضيف قد احتلوا مكانه. لم يكن بوسعه فعل شيء سوى إحاطة نفسه بسد

منيع من متاعه. كان الطاعون متفشيًا في المركب أيضًا. فقد كان ثلاثة رجال مرضى مستلقين في الحجز، اثنان منهم يهذيان. وقعت الوفيات يوميًا. لن يبحر العرب في الليل ولن يخاطروا بالنزول إلى البحر المفتوح، وهذا ما زاد الضجر إلى المحنة على متن السفينة في رحلة ساحلية طويلة. ولم تزد المسافة المقطوعة يوميًا عن (٢٥ - ٣٥) ميلًا، وكان من الضروري غالبًا الرسو عند الظهيرة؛ لأنه لا يمكن إدراك ميناء آخر قبل الليل. في خضم هذه الضائقات ابتُلي بوركهارت المتدهور صحيًا أصلًا بحمى الملاريا، فأصبح لا يقبل من الطعام إلا المرق. فعند كل ميناء كان يشتري شاة ليصنع المرق ويعطي اللحم للربان. مقابل ذلك كانوا يملؤون له جود الماء على الشاطئ. أخيرًا لاحت شرم الشيخ في الأفق. وبما أنها كانت أقرب من الأقصر إلى القاهرة فإنه دفع خمسة دولارات لينزل إلى اليابسة. تمثلت الحادثة الرئيسة في الطريق إلى القاهرة بالمشاحنة مع جندي تركي أدت إلى تراشق بالنيران. كان الجندي يحث جملًا على المسير بسيف حاد. وعندما وقعت عيناه على بوركهارت في مقدمة القافلة أمره أن يترجل ويبادله الجمل. بالطبع رفض بوركهارت وكان ما كان. على إثرها عقد اجتماع في الطور لتفسير ما حصل. أصر الجندي على أنه أطلق النار بغرض جمع رفاقه. أجاب بوركهارت بأن إطلاقه النار كان لغرض مختلف تمامًا، وندم لأنه أخطأ الهدف.

وصل بوركهارت إلى القاهرة في ٢٤ يونيو، مضى على غيابه أكثر من سنتين. مما يثير الشفقة كلماته المتفائلة بشأن صحته التي يختم بها مؤلفاته عن الحجاز. لقد نالت أسفار الجزيرة العربية من عزيمته. فقد أصبح عرضة لنوبات من الحمى والزحار لم يبرأ منها قط. قام برحلته الأخيرة إلى سيناء سنة ١٢٣٢هـ (عام ١٨١٦م)، وكان في نيته الترحال إلى بلاد النيجر في السنة التالية، حينها تزايدت أعراض الزحار ومات في ١٥ أكتوبر. وهو على فراش الموت تحدث بحرية عن كل شيء إلا موضوعين - أمه، ورحلته التي ما كان

له أن ينجزها أبدًا. حول رسائله ودفاتره إلى إنجلترا. إذ على الرغم من أنه لم يتعلم الإنجليزية حتى سن الخامسة والعشرين فقد كان يكتب بها دائمًا. وإذا ما أخذنا هذا في الحسبان، وكذلك الصعوبات التي دوّن تحت وطأتها ملحوظاته، فقد تميز أسلوبه بخصائص عظيمة من الحيوية والصراحة المباشرة. لم تعرف بعد الطريقة التي دوَّن فيها انطباعاته عن مكة على الورق. أما دفتر مذكراته عن رحلته إلى النوبة فقد خطه في إحدى زوايا فناء مفتوح بجانب جماله، عكَّر صفوه رياح الصحراء الحارة ومعاناته من الرمد.

قلة هم الرجال الذين حظيت شخصيتهم وإنجازاتهم بالثناء غير المحدود كما حظي بوركهارت. ولن تفي صفحة كاملة بعبارات المديح والثناء التي كالها الناس له. كتب رحالة آخرون رؤيات شخصية رائعة، وأضيفت حقائق لصرح المعرفة الذي شيده، لكن أسسه باقية. حتى يومنا هذا يظل بوركهارت مؤرخ زمانه للحجاز ومدنها المقدسة[1].

---

(١) هذا من المنظور الغربي، إذ حظيت الحجاز والمدن المقدسة باهتمام المؤرخين العرب والمسلمين وسجلت مؤلفاتهم إسهامًا كبيرًا في توثيق تاريخها.

جيوفاني فيناتي (Giovanni Finati)
(١٨١٤م)
(حاج محمد)

لم يكن بوركهارت الأوربي الوحيد في مكة عام ١٨١٤م. بل كان هناك أيضًا جيوفاني فيناتي الذي كان الحج له أهم حادثة في سيرة حياته الحافلة بالمغامرات. ولد فيناتي في فيرارا[1] (Ferrara) في الولايات الكهنوتية لأبوين محترمين غير ثريين. لذا تربى أن يكون قسيسًا دون مراعاة ميوله. وكان ينظر إلى مهنته التي كان سيُزَج به فيها عنوة بمقت شديد. ومما زاد الأمر سوءًا التعليمات الملقنة في طقوس جوفاء من عمه القسيس المتعصب. أما اعتراضاته والتماساته فلم تلق إلا التجاهل، أو جلبت له العقاب.

حينما بلغ فيناتي الثامنة عشرة سقطت إيطاليا في يد فرنسا. بدأ الشعور بوطأة نير المحتلين من خلال تجنيدهم الإلزامي المتواصل للشباب. وعلى الفور ظهر اسم فيناتي في القائمة، وهذا ما آثار الرعب في نفوس والديه اللذين لم يهدأ لهما بال إلا بعد شراء بديل. فبقي في أحضان أسرته بسلام تحت مراقبة شديدة من عمه، حينما حدث تطور مفاجئ. فقد فر البديل وصدر أمر قضائي بحق فيناتي. اختبأ بعض الوقت، ولكن لدى مصادرة أملاك والده واحتجازه واحتجاز أخيه الأصغر، سلّم نفسه ظنًا منه أن الخدمة الإلزامية ليست أكبر مقتًا عنده من الكهنوتية.

---

(١) فيرارا مدينة تقع في حوض نهر البو في شمال ايطاليا.

أُدرج اسمه وأُرسل إلى منطقة التيرول[١] (Tyrol) حيث فر من هناك. بعد عبوره الغابات والبراري تحت جنح الليل وصل إلى البيت. حاول مرة أخرى أن يختبئ، لكن تعرضت عائلته لمزيد من المضايقات والاضطهاد، وأعيد القبض عليه في النهاية. بكل الذل والمهانة أُرسل إلى البندقية. لكنه على الرغم من الاستهزاء والتهديد والوعيد شعر دائمًا بمرونة في الروح طبيعية. في البندقية أنقذه من الإعدام عمل نبيل قام به بمناسبة زيارة نابليون.

بعد حجزه شهرين رُحِّل بالسفينة إلى دالماشيا[٢] (Dalmatia). فرض هوسه بالفرار نفسه على الفور. فقام في سكوتاري[٣] (Scutari) مع خمسة عشر إيطاليًا آخرين بمغادرة الجيش الفرنسي بمساعدة تاجر وربان ألباني. استُقبلوا بحرارة من الأتراك، لكن ظهرت صعوبات ذات طبيعة دينية. وبما أنهم رفضوا الارتداد عن دينهم ودخول الإسلام فإنهم أُرسلوا للعمل في مقالع حجارة.

أخيرًا، وأخذًا بنصيحة واحد منهم بأن المسلمين يؤمنون بالله أذعنوا للأمر وأشهروا إسلامهم. أصبح فيناتي حامل غليون ضابط تركي وكان مدللًا جدًا، وسُمح له من جملة المزايا الأخرى بدخول جناح الحريم، وهي فرصة نادرة. رد على هذا الطيب في المعاملة بإقامة علاقة غرامية مع إحدى زوجات سيده، فاطمة الجورجية، وهذا ما أثار حسد أهل المنزل، وراجت الافتراءات، فأقصي إلى قَطّاع خشب. مع ذلك استمرت العلاقة الغرامية حتى أصبح اكتشافها أمرًا حتميًا. عندها قرر فيناتي الهرب إذ خشي من الإعدام أو على الأقل إنزال عقوبة به، والتي نجا منها حتى هذه اللحظة. لم يمتلك الشجاعة

(١) تيرول منطقة تقع إلى الغرب من دولة النمسا الحالية. سلخ القسم الجنوبي منها وضم إلى إيطاليا بعد الحرب الأولى.
(٢) دلماشيا منطقة تقع على الساحل الإدرياتيكي الشرقي في أراضي يوغسلافيا سابقًا.
(٣) سكوتاري مدينة تقع في دولة ألبانيا وهي عاصمة منطقة تعرف بنفس الاسم في شمال غرب ألبانيا.

ليودعها. هرب إلى الإسكندرية عن طريق وكالة التاجر والربان الألباني نفسه الذي ساعده على الفرار من الجيش الإيطالي.

وصل فيناتي إلى القاهرة وسُجل على أنه جندي ألباني. أصبح محمد علي باشا مصر سنة ١٢٢٠هـ (عام ١٨٠٥م). كان فيناتي فخورًا بالعمل تحت إمرة رجل غير عادي على الإطلاق، وتواقٍ لتمييز نفسه. إذ عدّه مجدد مصر، وأثنى على رؤيته الواسعة، وفهمه المستنير، وامتدح أفعاله كلها باستثناء معاملته للمماليك. لكن النظرة المستقبلية لم تكن واعدة. خارجيًا، الحركة الإصلاحية في الجزيرة العربية. أما داخليًا فقد سادت الانقسامات بين الجند الأتراك والألبان. أما في المحافظات فقد قام المماليك الذين يرون محمد علي مغتصبًا للسلطة بفرض إتاوات على السكان، وعاثوا في البلاد فسادًا حتى بلغوا أبواب القاهرة. فواجههم الباشا بقواته أول مرة.

عمل فيناتي في الحملة ضد المماليك الذين أظهروا مقاومة باسلة، لكن لم تتوافر لهم وسائل إمداد قواتهم، فتناقص عددهم باستمرار. وبما أنهم دُحروا إلى أسوان، وهي المدينة الحدودية لمصر باتجاه الجنوب إلى النوبة فإنهم تحصنوا بقوة في إبريم[1] (Ibrim)، وهي (١٤٥) ميلًا فوق الشلال الأول. عندها أبقى محمد علي على عدد كاف من القوات لمناوشة العدو المحبط، واستدعى معظمهما إلى القاهرة.

كان فيناتي من بين الذين استُدعوا. أبحروا في النيل في بوارج، وتوقفوا عند بني سويف[2]، حيث حدثت حادثة غريبة ومأساوية. خرجت فصيلة من أربعين جنديًا لتناول الغداء في بستان نخيل، تبع الغداء لعب الورق وطاولة الزهر. ارتفعت الرهانات ولم يكن عند الخاسرين استعداد للانسحاب.

---

(١) إبريم إحدى قرى الوجه القبلي الجنوبية.

(٢) بني سويف: إحدى قرى صعيد مصر.

وحينما جن الليل عُلقت القناديل على الأشجار، وكان الجنود الذين كوَّم كل منهم كومة ذهب صغيرة أمامه قد انشغلوا باللعبة، وأخفقوا في ملاحظة غرباء مثيرين للشك يحومون في الظل بعيدًا من دائرة الضوء. كان هؤلاء لصوصًا عربًا زحفوا عليهم فأوقعوا الأضواء، واستولوا على المال، وذروا الرمال في عيون اللاعبين، وأطلقوا سيقانهم للريح. حينها نشب خلاف بين اللاعبين. واتّهم كل منهم رفيقه بأنه سرقه وأهانه: لسوء الحظ كانت بنادقهم في متناول أيديهم، وبدأ الجنود المسعورون بالطعن والجرح بوحشية. ولم يكفوا عن ذلك حتى مات تسعة منهم وجرح كثيرون. بعد ذلك سمعوا من الناس الواقفين ما حصل، فأحسوا بالخجل والندم. كان حظ فيناتي من الجروح جرحًا بسيف حاد في الذراع. ويقول: «ما كان باليد حيلة لفعل شيء لما حدث، لذلك ندبنا على رفقائنا ودفناهم».

في غضون ذلك أصدر محمد علي الخائف من مؤامرات المماليك أمرًا بعفو عام وكامل، ودعا الزعماء والشخصيات الكبيرة أن يعيشوا في القاهرة في حمايته. استفاد من هذا العفو ما بين (٥٠٠٠ و ٦٠٠٠) شخص. لكن تناهى إلى سمعه همس بإحاكة مؤامرة ضده. عندئذ وكما فعل هاملت خطط أن يحفر مترًا تحت ألغامهم وينسفهم نسفًا.

كان همه الأول دعوة صايم بيك (Saim Bey) زعيم المماليك ليمثل بين يديه ليناقشا معًا الدور الذي سيقوم به المماليك في حملته القادمة على الجزيرة العربية. لم يكن كلام صايم بيك متزنًا، وهذا ما أقنع محمد علي بأطماعه. تلا ذلك دعوة عامة إلى كل قادر على حمل السلاح إلى القلعة في الجمعة التالية. علق أحد المماليك الذي يمتلك نفاذ بصيرة أكثر من صايم بيك: «تعرضنا لخيانة!» لكنه أُسكت بنظرة. جاءت الجمعة، ووسط دقات الطبول دخل (٥٠٠) مملوكي في موكب عسكري إلى القلعة فاستُقبلوا بالتحيات والترحاب، وقُدِّمت القهوة والغليون. عُقِد مؤتمر مطول بينهم وبين الباشا، حينما انسحب

محمد علي أخيرًا أمر بإغلاق البوابات، وأعطى تعليمات صارمة أخرى. حينما لم يعد، بدأ صايم بيك والجنرالان المملوكيان بالتساؤل عن السبب. كان يدور همس أنه دخل جناح الحريم؛ لذلك استعدوا للتوجه إلى أماكن إقامتهم. دخل صايم بيك إلى الفناء وكان يمتطي فرسه، حينما أُطلقت رشقة من الطلقات فوقه. في ذات الوقت وقف كل جندي في القلعة على أهبة الاستعداد وسدد بندقيته نحو أقرب مملوكي له. حاول صايم بيك أن يمتطي الفرس، ومع أنه كان يتمايل في السرج إلا إنه اندفع كالسهم إلى أقرب بوابة لكنها كانت مغَلَّقة وسقط مخرمًا بالطلقات. لاقى رفاقه المصير نفسه، باستثناء واحد وثب بفرسه فوق متراس ليسقط في جرف هار بعمق أربعين قدمًا. تمزق الفرس إلى أشلاء لكن الفارس نجا. انتشرت الأخبار في القاهرة. وخصصت مكافأة ثمينة لكل رأسٍ مملوكي. وكانوا يُقتلون أو يُطعنون دون رحمة حتى إن المنازل التي كانوا يختبئون فيها قد أُحرقت، ملأ النحيب والعويل أرجاء المدينة. وكان كثيرون غير مملوكيين. لكنهم قبض عليهم وقتلوا إما خطأ وإما حقدًا وإما من أجل السلب والنهب. لم يُرِقْ فيناتي دمًا. فقد تمركز في ممر لم يحاول أحد من الملاحقين العبور. كان نصيبه من الغنائم سرجًا مطليًا بالذهب والفضة، وأَمة جلبت معها من جناح الحريم أشياء لا قيمة لها، ونقودًا مخبأة داخل ثيابها. تزوج هذه الفتاة فيما بعد.

بعد تخلصه من المماليك فكر محمد علي بإنهاء الخلافات بين الأتراك والألبان بتوحيدهم في الحملة على الجزيرة العربية. كان تخليص مكة المكرمة الحافز الملهم إلى هذه الحملة. كان قائدها طوسون النجل الثاني لمحمد علي، وهو شاب في السابعة عشرة، لكنه يتمتع بخصال كثيرة. كان في رأي فيناتي لطيفًا وكريمًا ورقيقًا وأليفًا وقادرًا على فعل الخير حتى لأعدائه: في هذا الوقت، حينما تم اصطياد مماليك متخفين كثر وقُتلوا، استجارت عائلاتهم به فلم يتردد في إجارتهم. فقد أعان الأرامل وأصبح أبًا للأطفال. كان مفاد

الشهادة الأقوى لبوركهارت بأنه كان الأوحد من بين أسرته الذي كان يتسع صدره لكل شعور نبيل. صحيح أنه كان أقل ثقافة من أبيه وأخيه الأكبر إبراهيم لكنه تفوق عليهما في الخلق.

سنحت فرصة سريعة لاختبار رقته. كانت فرقة فيناتي تعسكر إلى الشمال من القاهرة. ذات صباح كان في نوبة حراسة قبل طلوع النهار، فلمح من بعد شكلًا يزحف ويتحرك بين الفينة والأخرى. كان الرقيب الذي تعود أن يصلي قبل ساعة من شروق الشمس، لكن فيناتي ظن خطأً أنه لص فأرداه قتيلًا. تملكه الرعب حينما اكتشف شناعة فعلته. في هذه الأثناء شاعت روايات مختلفة لهذه القصة في المعسكر، وظن بعضهم أنه اقترف جريمته عن عمد. وهو في هذه الضائقة سعى إلى خيمة طوسون واعترف له بكل شيء. فما كان من طوسون إلا أن برأه من المسؤولية، ودفع فدية لعائلة المقتول. وبذلك تحرر فيناتي من الخوف من الانتقام.

كانت وسيلة النقل التي أبحرت بها فرقة فيناتي من السويس غريبة الشكل بهيكل ضخم، وصارية واحدة، وعوارض وأشرعة ذات أشكال مختلفة وفقًا للريح، يقودها ربابين كسالى. تمركز بحّار على رأس الصارية لينبه على حواف الصخور وأسراب السمك، وليرفع صوته موجهًا إلى المسار الذي ينبغي توجيه السفينة إليه. في المياه الضحلة نبتت الطحالب والمرجانيات إلى حجم كبير، حتى بدت أشبه بالبساتين والحدائق، وترامت الأصداف الضخمة والجميلة على الشاطئ - وبذلك توفر الطبقة اللؤلؤية الداخلية للجزيرة العربية وفلسطين، وفي مكة تستخدم للسبحات، وفي القدس لأشكال القديسين وترصيع الصلبان.

كان الجو نقيًا إلى درجة أن مدى الرؤية يتجاوز الشريط الزراعي على طول الساحل فوق الواجهة الجافة الشاحبة للجزء الداخلي. لم تحدث حادثة

خرقاء بين السويس وينبع، ما خلا اصطدام المركب بضفة رملية، لكن تراخي الربان الحذِر جعل المد يرتفع ويطفو به.

حينما وصلوا إلى مقابل ينبع تقدم الجيش المصري أولًا ليقصف المدينة ومن ثم يهاجمها. تم تسلق الأسوار بسلالم تسلق، وقتلت قذيفة مدفعية كبير المهندسين السعوديين، وهذا عطل بطاريات مدفعيتهم. قرر العدو الانسحاب عوضًا عن الاستسلام[١]. حُمِل كل ما غلا ثمنه وخف وزنه من بوابة المدينة. وأصبح طوسون سيدًا على مدينة خاوية فحسب. وبحكم اتخاذه ينبع قاعدة له أوقع هزيمة ثانية بالسعوديين بعد بضع أشهر. فانسحبوا باتجاه المدينة (المنورة) وتمركزوا بقوة في ممر الجديد[٢]، وهو شعب ضيق بين جبلين منحدرين شاهقين: حيث لا يقدر أكثر من عشرة المرور جنبًا إلى جنب دفعة واحدة. وكان يتحكم بالطريق إلى المدينة المقدسة.

زاد السعوديون يوميًا من قوة موقعهم، فبنوا متاريس مؤقتة من الحجارة المفككة على جوانب الحصن. في السهل أسفل منهم كان طوسون يخطب في رجاله ويحثهم على أن يصبحوا مخلِّصي مكة، بعد مناوشات لبضعة أيام أمر بتقدم عام باتجاه العدو الذي ظهر بأعداد ضخمة على الجبال، فاندلعت نار متواصلة شديدة، فألقى طوسون بنفسه في أسخن بقعة قتال ونادى كثيرين بأسمائهم. فاتخذوه مثلًا وشددت القوات الخناق وأسرت بعض من كان مترسًا من السعوديين. لكنهم كانوا تحت إمرة قادة في متاريس أخرى بنيت

(١) كانت هذه المعركة أولى المعارك التي يخوضها طوسون بمساعدة القبائل التي انضمت إليه ضد القوات السعودية التي كانت تحت قيادة «جابر بن جبارة ومسعود بن مضيان» اللذين أسرعا بالانسحاب من مدينة ينبع وإخلائها لجيش محمد علي. (عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى، ج١، ط٥، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ص ٣١٣ - ٣١٤).

(٢) عين ضعيفة قرب بدر مما يلي المدينة. (انظر: عاتق البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٢، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ، ص ١٣٥).

على الجبال. فأمطر العدو وابلًا من الطلقات وهو محصن. عند الظهر بدأت هدنة استمرت عدة ساعات. جعل لهيب الشمس المنعكس من الجبال الجرداء من بذل الجهد مستحيلًا. إذ استلقى كثير من الجنود تحت أشجار النخيل في السهل وأكلوا التمر. لم يتمكنوا من اكتشاف الماء، واشتد العطش إلى درجة لا تطاق حتى إن إشارة تجديد العمليات عند الساعة الرابعة عصرًا كانت مثار يأس أشبه الفرح، وحمي الوطيس أكثر من ذي قبل، وبعد غروب الشمس بكثير كان حسم المعركة غير مؤكد. بعدئذ، ولسبب لم يجد له فيناتي تفسيرًا تغير التيار ضد الجيش المصري. ولّد النفور الذعر وأدى الذعر إلى هزيمة ساحقة وكارثة(١).

وحين انسحبوا إلى معسكرهم وجدوا من العبث محاولة التحصن به من دون خنادق أو تحصينات. تقدم السعوديون المنتصرون عبر السهل. وفي خضم هذه الشدة أمر طوسون بحرق الخيام، وترك المواقع العسكرية واتجه إلى مبروك(٢) [البريكة]، وهي أقرب نقطة على الساحل إلى ممر الجديد، حيث كانت ترسو السفن القادمة من ينبع. نجا فيناتي بأعجوبة لوقوعه في شرك العدو. وحالما استطاع تحرير نفسه تسلق مع رفيق له ربوة منعزلة. وإذ مشهد أشبه بالجحيم يبهر أبصارهما. فقد أوقد السعوديون النيران على المرتفعات المجاورة لإنارة المطاردة. تحت أشعة الإنارة والظل الذي كان يرتجف فوق الصحراء كانت فرق البحث تبحث في كل مكان لقطع الطريق على الفارين. في

---

(١) انظر تفصيلات هذه المعارك في: ابن بشر في كتابه: عنوان المجد في تاريخ نجد، ج١، مكتبة الرياض، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) الصحيح البريكة، يذكر ابن بشر أنه بعد انهزام العساكر المصرية ولوا مدبرين وتركوا المدافع وهي سبعة والخيام والثقل والرحائل وكثيرًا من السلاح، وما في محلهم جميع آلات الحرب والذخائر، ولا نجا منهم إلا أهل الخيل الذين أدبروا مع باشتهم ومات معظم خيولهم حقنًا وظمأ قبل أن يصلوا إلى البريكة ويتسلقوا السفن إلى ينبع. وقد ذكر أن القتلى أربعة آلاف رجل من العساكر المصرية، وست مائة من الجيش السعودي، وقد حدثت هذه الوقعة في العشر الأواخر من ذي القعدة. (انظر: ابن بشر، مرجع سابق، ج١، ص ١٥٧).

الغور ظهرت سحابة ضخمة من اللهب في إشارة إلى المعسكر المصري. في منتصف الليل، نزل فيناتي ورفيقه يرتجفان وهما على أربع بمحاذاة مجموعات معادية، لكنهما نجحا في الوصول إلى المعسكر بسلام وأنقاضه ما تزال تشتعل. كانا محظوظين أن وجدا بعض المؤن، وعلى مقربة منها بئر حيث رويا ظمأهما. ثم أخذا طريقهما إلى مبروك [البريكة]، ومرا على مشردين مثلهما، كلهم يعانون من الجوع والعطش والشقاء. جلست مجموعة منهم حول بئر يصعب الوصول إلى مائها العميق. في نهاية الأمر، وبعد حالة من اليأس رمى أحدهم نفسه في البئر ومات. حينما وصل فيناتي مبروك [البريكة] سبح في الماء حتى وصل إلى السفينة التي صادف أن طوسون كان على متنها.

بعد خسارته نصف العدد عاد الجيش إلى ينبع. كان فيناتي شديد الحمق عندما استحم في البئر الذي شرب منه في الليلة المرعبة في ممر الجديد. بدأ الآن يعاني آلامًا مبرحة من الروماتزم مع أنه في وقت كهذا لا يمكن الإبقاء على رجل واحد مريض، فقد سمح له بفضل طوسون أن يعود مع آخرين معطوبين مثله إلى القاهرة. وهناك علم أن زوجته اقترفت سلوكًا مشوبًا بالانحراف فطلقها. في هذه الأثناء أيضًا وصلته رسالة من فاطمة بخبر إنجابها طفلًا ذكرًا.

في غضون ذلك، غادر محمد علي شخصيًا إلى الجزيرة العربية. وجد ممر الجديد ضعيف الحراسة فقواه. ثم أرسل أمامه فصيلة عسكرية لاحتلال المدينة المنورة، أما هو فأبحر إلى جدة. فتحت مكة المكرمة أبوابها(١). كان

(١) ذكر عبدالرحيم في تاريخ الدولة السعودية الأولى: أنه في أعقاب فتح المدينة ظهرت حاجة جيش طوسون إلى مرفأ على البحر ليكون مركز تزويد لهذا الجيش في أثناء زحفه إلى مكة، فاتجهت أنظار القادة إلى جدة فراسل طوسون الشريف غالبًا على أمل أن يرخص لبعض القوات البحرية بدخول هذا المرفأ، وافق الشريف على ذلك على الرغم من تجديد عهده لآل سعود، فأسرعت قوات طوسون بدخول مرفأ جدة برًا وبحرًا في ١٢ من المحرم سنة ١٢٢٨هـ دون حدوث أي قتال، وبهذا أصبح الطريق إلى مكة مفتوحًا، وقد تمكنت قوات طوسون من الوصول إلى البلد الحرام بمساعدة الشريف غالب والبدو المؤيدين لهم، =

أول شيء فعله هو إرسال الشريف غالب المتهم بأنه عميل إلى القاهرة أسيرًا. جعلت أنباء هذه النجاحات ومنظر الجبايات الضخمة فيناتي يتحمس للرغبة في العودة إلى الخدمة العسكرية. تطوع مرة أخرى في فيلق ألباني وأُرسل إلى القنفذة - قرية إلى الجنوب من جدة - على مقربة من شاطئ البحر. في أحد الأطراف كانت قلعة من الطين، وتوحي من حيث الشكل بالضعف والهشاشة، لكنها مبنية بشكل صلب. وبما أن السعوديين أُخرجوا من القرية، فقد لجؤوا إلى القلعة. غاصت قذائف المحاصرين في الأسوار والمعاقل الطينية، بينما كانت النيران توجه إليهم من عدد لا يحصى من الفتحات الصغيرة. تحول الحصار إلى تضييق الخناق على السعوديين، لكنهم في النهاية وجدوا مخرجًا إذ استطاعوا شق طريق عبر الخط الأول للجيش المصري، فعلقوا بين نارين. استُولي على بوابة القلعة، لكن واصل السعوديون القتال وهم يائسون. نتج من صغر المساحة وشدة الالتحام مشاهد لمجزرة رهيبة. لم تستخدم السيوف والسكاكين فحسب، بل الأسنان والأظافر أيضًا. مُزقت أجساد كثير من المتقاتلين إربًا، وأبيد السعوديون على بكرة أبيهم.

تحول التيار بشكل قوي. على مسافة مسيرة ثلاث ساعات من القنفذة كان عين ماء بحاجة إلى حرس. أُرسل أربع مائة جندي من بينهم فيناتي لهذا الغرض. فجأة، راجت شائعات عن اقتراب قوة من السعوديين. لم يكن بالإمكان الحصول على إمدادات عاجلة في الوقت المناسب. نشبت معركة وهزم فيها السعوديون القوات المصرية، وأوقعوا فيهم خسائر فادحة. فر الباقي إلى الساحل ونشروا تقارير مبالغًا فيها عن نكستهم وأعداد السعوديين. كان هناك تدافع نحو السفن. وهجرت القنفذة ليسيطر عليها السعوديون الذين

= فدخلها بدون حرب، فانسحبت القوات السعودية إلى العبيلاء بالقرب من الطائف، فكانت فرصة المصريين كبيرة حيث يذكر الجبرتي أن القاهرة زينت خمسة أيام متواليات بخلاف ما ساد نجد من حزن نتيجة لهذه الهزائم. (انظر: عبدالرحيم، مرجع سابق، ص٣١٨ - ٣١٩).

لاحقوا فلول العدو حتى أعقابه. أبحر الجيش المصري هذه المرة إلى الليث، وهي قرية على الساحل شبيهة بالقنفذة إلى الشمال منها. بدأت الشائعات تروج بين القوات المصرية. وبدأت روح التمرد تستشري بينهم، ووُجِّه اللوم الشديد إلى القائد. طوق السعوديون الليث وجعلوا الخروج منها خطرًا. نجم عن ذلك معاناة شديدة من نقص الماء.

أُرسل أربعة ضباط إلى محمد علي في مكة برسائل قللت من شأن خسائر الجيش المصري. راقب الجنود رحيلهم آسفين، وفر عدد منهم. كان فيناتي حساسًا لمقترحات كهذه. ومن غير المدهش أنه فعل مثلهم. فقد كان رحيل الأجنبي وحده في بلد الأعداء قرارًا لا يتخذ إلا في حالات اليأس. لكنه وبينما كان يحمل جوده على عاتقه أحس بالتعاسة التي كان سيتركها وراء ظهره فحسب. فكر في إيطاليا وهو يسير ضجِرًا مُجْهَدًا متثاقلًا في الصحراء، وأحس بالشوق إلى وطنه. بدأ العطش ينال منه، لكنَّ السعوديين لوثوا الآبار. أخيرًا ورد بئرًا عميقة ظَن أنها لا تستحق التلويث لعمقها. فألقى بوشاحه وعمامته وخلع كل ثيابه، وجعل منها حبلًا، وربط جوده ونجح في ملئه بعد ساعتين من العمل المضني. روى ظمأه ليأتي دور التضور جوعًا. جدّ في السير في أثناء الليل كله دون أن يجد ما يسكته. لكن قبل الفجر تمامًا رأى نيرانًا موقدة على المرتفعات. كان معسكرًا للبدو. استقبله أبناء الصحراء استقبالًا طيبًا، وقدموا له الطعام، وأركبوه على جمل، ثم قادوه إلى مشارف مكة المكرمة.

ملأته الفرحة بنجاته، وكان في حالة نفسية يأخذ فيها انطباعات قوية. بدت مكة له لا كبيرة ولا جميلة، لكنها توحي بنوع من الجلال. كان وقت موسم الحج. ووصلت القافلتان السورية والمصرية، وتجمع (٤٠٠٠٠) حاج في مكة أو حولها. أدى شعائر الحج المتعددة، ورأى كيف كان وجه الحجر الأسود متأكّلًا بسبب قبلات المؤمنين. وعزا قلة عدد المسموح لهم بالدخول إلى الكعبة إلى صرامة القواعد التي يجب أداؤها تباعًا. يقول: «من

غير السهل أن تجد في الرجل نفسه الكفاءة الكافية بالصبر الكافي للإيفاء بهذه الشروط».

كان هدف فيناتي في مكة أن يقابل محمد علي. تمنى أن يخبره أنه نجا من مناوشات القنفذة، ويسعى الآن لنيل حمايته وتجنيده في جيشه. ولهذا السبب كان معه معروض (استدعاء) كتب بالتركية وقد انتظر أيامًا أمام شباك محمد علي. قرأ محمد علي المعروض، وغضب جدًا لسماع الكوارث التي حصلت هناك، ولم تظهر في المراسلات الرسمية، وطلب شرحًا وافيًا. لذلك قدم له فيناتي الشرح، وأُرسل على إثرها إلى الطائف بخمس مئة قرش ليدرج اسمه في الجيش على ألّا يتحدث عن نكسات الماضي.

في هذه الأثناء لم تتوقف العداوات. فقد هُزم طوسون القائد الشهم، التعس الحظ في تربة[1]. أُرسل فيناتي هذه المرة مع قوة قوامها ألف جندي للتخفيف عن بيشة، وهي حصن يتحصن به ضابط ألباني. جاءت الأنباء وهم في الطريق أن المدافعين عن بيشة قد رُدوا على أعقابهم من السعوديين. كما وصلت معلومات عن تقدم رتل الدعم. فهاجمه العدو الذي احتشد على المرتفعات في أحد الأودية، ثم انقض عليه من كل مكان، انسحب بعد تكبد خسائر فادحة. لم يقتل السعوديون من وقع أسيرًا في أيديهم.

أما الإحباط الذي سببته هذه النكسات، والأنباء المزعجة عن تعاون بين القوات السلفية في تربة وبيشة، فقد استبعدها جهاز المخابرات، وهذا الأمر حدا بمحمد علي أن يستلم قيادة الجيش. كانت لديه قوة فريدة لإذكاء الروح

---

(١) كانت هذه المعركة بقيادة فيصل بن سعود الذي اتخذ من تربة مركزًا له، وتمكن بمساعدة النجدات التي أتت إليه من بيشة من إنزال هزيمة ساحقة في جيش طوسون التي كانت تحت قيادة مصطفى بيك رئيس الفرسان والشريف راجح، وكانت خسائر هذا الجيش فادحة. (انظر: عبدالرحيم، مرجع سابق، ص ٣١٢، وكذلك عبدالله الصالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط٦، ج١، ص ١٩٦).

المعنوية في القوات، والتهدئة من روعهم من خلال الإغداق عليهم من كرمه. رافق يوم وصوله إطلاق نيران البنادق، وقامت فرقة من الجند بالمسير لمدة ساعتين على الطريق إلى مكة لملاقاته.

نشب الصراع الحاسم في هذه الحملة اليائسة في بُسل[1]. في سهل محاط بسلسلة من التلال، جمّع السعوديون مستودعات مؤن بكميات هائلة. فصلت بين التلال ممرات وشعاب ضيقة عليها حراسة مشددة. على القمم المحيطة تمركز المشاة، وعلى القاعدة الخارجية لمتراس الجبال كانت الخيالة. غادر الجيش المصري معسكره في سولة[2] عند منتصف الليل. وبعد مسيرة خمس ساعات وصل بُسل عند الفجر. كشفتهم الشمس المشرقة للعدو، وعلى الفور جرت استعدادات للمقاومة. خطب محمد علي خطبة حماسية رافعة للمعنويات. أكد لقواته أن عيون العالم الإسلامي منصبة عليهم، وأن أمن مكة مرهون بجهودهم. وهو نفسه لن يسمح بنكسة. حينما تقدم الجيش لمسافة معينة، أمر بمد بساطه على الأرض وأن يؤتى له بغليونه، معلنًا أنه لن يبرح الأرض إلا بالنصر أو الموت.

أخطأ السعوديون في فهم التوقف على أنه تردد. فنزلوا من الجبال، وتجمعوا في السهل، ووقعوا في كمين الخيالة الجزائريين الذين يمثلون طلائع جيش محمد علي، أما جناح الميسرة من الخيالة المصريين فلم يهزم فحسب بل عُزل عن الجيش وقاعدتهم الجبلية. واصلوا المسير ببسالة لمدة خمس ساعات، لكن القيادة المحنكة لمحمد علي كانت هي الغالبة. حدثت مذبحة عظيمة. استُولي على الموقع الجبلي، وسقطت الغنائم في أيدي المنتصرين.

---

(١) بُسل وادي ذو قرى ومزارع يقع جنوب الطائف سكانه من عتيبة.

(٢) سولة: عين ماء في وادي نخلة اليمانية أسفل الزيمة وهي الآن من القرى العامرة في منطقة وادي فاطمة.

أصاب السعوديين الذعر، وفي أثناء انسحابهم تخلوا عن الموقع تلو الآخر. في بيشة، وفي ممر ضيق بنوا سورًا من طين وحاولوا أن يوقفوا السيل، لكن سقطت قذيفة داخل سدهم فأشعلت النيران في أشياء قابلة للاحتراق وأخرجتهم. بعد مناوشات خفيفة وصل الجيش المصري القنفذة وأمنوا صلة وصل مع الأسطول. اتُّفق الآن على إرسال الخيالة برًا، والمشاة بحرًا إلى جدة. كان فيناتي من بين المشاة، لكن التأجيل المتكرر جعل الرحلة تستغرق خمسة عشر يومًا. وصلوا جدة، وعندما علموا بمغادرة محمد علي إلى مكة لحقوا به. كان وسام الشرف في انتظار كل جندي ليوضع على عمامته.

لكن مشاعر نشوة الفرح تبددت مع أنباء عدم قدرتهم على العودة إلى القاهرة كما كانوا يتمنون لأنهم كانوا سيحرسون المحمية في تربة. تناهت شكواهم إلى سمع محمد علي فوعد ألا تزيد المدة على ثلاثة أشهر. كانت هذه الشهور مثيرة للضجر، ومما زاد في مرارتها المرض وسوء التموين. وعند انقضاء المدة تعكر صفو الفرحة الطبيعية عند الجنود الذين كانوا سيغادرون إلى القاهرة بأنباء غير سارة. فالطاعون كان في جدة. لقد كان الموكب الذي انطلق من تربة محزنًا. وكانت مكة في خط المسير. لذا تسنى لفيناتي أن تطأ قدماه شوارع المدينة المقدسة. وقد لاقى الغمز واللمز حول الخطر المحدق وغير المبرر الذي أرسلوا فيه، استحسانًا حينما وصلوا إلى الساحل. قال أحد الضباط: «ألم يكن من الأحسن لنا أن نموت في ساحة القتال من أن نذهب هكذا لنموت كقطعان الماشية النتنة؟». وجدوا شوارع جدة خالية والدكاكين مغلقة. كانت الجثث تتناثر على الجانبين. ما عاد للشفقة والعفة مكان. لم يهتم أحد بدفن الموتى أو إزالتهم من الشوارع. أصيب فيناتي بالطاعون لكن معنوياته «وروحه المرحة والمتفائلة» قد أعانته، وتماثل للشفاء. وللمرة الأخيرة غادر شواطئ الجزيرة العربية. أدى الطاعون المتفاقم والأهوال الأخرى إلى هلاك رفاقه، ومن سرية قوامها (٥٥٠) رجلًا وصل السويس منهم (١٠٩)

فقط. انطلقوا في آخر مسير صحراوي، وحين بدت مآذن القاهرة هللوا بفرح عارم.

انتهت سيرة مغامرات فيناتي. تسلم رواتب ثمانية عشر شهرًا متأخرة وترك الخدمة. التقى الآن رجلًا إنجليزيًا اسمه ويليام جون بانكس (William John Bankes) كان قد رافقه بصفته مترجمًا في النوبة، وسوريا وفلسطين وأخيرًا إلى إنجلترا.

يُمسك بيرتون عن كل أنواع الإطراء والمديح لفيناتي باستثناء قوله: إنه كان رحالة غير عادي بكل المقاييس. سواء أوافقنا أم لم نوافق على هذا الحكم المستحيل أن ننكر أنه كان ذا خلق حميد مصدره الحقيقي رقة قلبه. يتمثل الخلق الحميد في محاكاة الدلالات الخارجية لحب الخير الطبيعي. ولا يتحلى بهذه الخصال بشكل ناجح إلا شخص أشبه ما يكون بممثل. لعل فيناتي حاز عليها أو لم يحز، لكنه تميز بها إلى درجة ملحوظة، لا أُلمح إلى تعطفه على فاطمة المسكينة، بل إلى المعروف الكبير الذي أظهره له سيده التركي، والمعاملة السمحة من شخصيات مرموقة مثل طوسون باشا، وحتى محمد علي.

يعزو بيرتون إفاضته في الروايات المتكرر لفراره وخيانته لفاطمة إلى غياب الإحساس بالخجل لا إلى الصراحة. لكننا قد نستنتج من هذا أيضًا أنه برأ نفسه بصفته إنسانًا في المعارك اليائسة الكثيرة التي شارك فيها. وإذا كان فيناتي هو مَن خط سيرته الذاتية فإنه لا شك تحلى بروح معنوية عالية وقدرة على التمتع بحياة أنموذج خاص به يحتذى على الدوام.

ليون روشيه (Leon Roches)
(١٨٤١ - ١٨٤٢م)
(حاج عمر)

قالت امرأة مؤمنة لروشيه: «سوف تستحق أشد العقاب إذا ما كففت عن السير في طريق الله بعد أن أراك آياته البينة في حفظك». وبناء على حقائق سيرته بما في ذلك نجاته مرتين من الموت بأعجوبة فليس أمامنا إلا أن نفكر مليًا بكلماتها.

ولد روشيه في مدينة جرينوبل[1] (Grenoble) في عام ١٨٠٩م سنة (١٢٢٤هـ). ماتت والدته حينما كان طفلًا، وهاجر والده إلى الجزائر حيث استثمر نقوده في شراء أرض. قضى طفولته مع إحدى عماته. كانت هذه الأم بالتبني نبراس أيامه العصيبة. على الرغم من أنه لم يحرم من الأصدقاء حتى في أوقات الشدة بسبب طبيعته العاطفية والمنبسطة، فإن روابطه المبكرة بقيت هي الأقوى دائمًا.

لم ترق لروشيه الدراسات القانونية التي انخرط فيها. أغرته التجارة وفرص السفر فيها. لكن طريق حياته تغير فجأة بدعوة والده له بأن يلحق به في الجزائر. كان في الثالثة والعشرين من عمره، وعانى مرارة شديدة عند مغادرته فرنسا. دام حنينه إلى وطنه مدة طويلة. وكان لديه أسباب أخرى للقلق. فعلى الرغم من عدم خبرته لم ير مستقبلًا واعدًا لأبيه وشركائه. فقد كانوا «أي شيء إلا مزارعين».

---

(١) جرينوبل: مدينة فرنسية تقع إلى الجنوب الشرقي من الجمهورية الفرنسية.

اقتُرح عليه الارتباطات الاجتماعية علاجًا لمعنوياته المتدنية. أُرسل لزيارة سيدة مغربية، وهي أرملة الحاكم السابق للجزائر. رجع مبهورًا بالحوار معها وبأخلاقها المتميزة. تكررت الزيارة، ولكن لم تكن هذه المرة وحدها. كان في رفقتها فتاة جميلة في الرابعة عشرة اسمها خديجة. كانت خديجة كالقوقازيات: زرقاء العينين بحواجب مقوسة سوداء. كانت ضجرة وغير مرتاحة إطلاقًا في حضور روشيه: كانت المرة الأولى التي رأت فيها نصرانيًا. في السنة التالية تقابلا من جديد، وأصابته الدهشة من نموها السريع. لامته على استحياء لعدم تعلمه العربية. وحصل ما لا بد منه. بعد مدة وجيزة تعرض لنوبة حمى، وفي أثناء هذيانه نادى باسمها. لكنه حينما نهض من فراش المرض وجد أن خديجة ليس لها أثر. أخذها والدها. بقي عزاؤها ما علِمته من حبه لها.

من هذه المشاهد الرقيقة والندم نهض روشيه ليحيا حياة مفعمة بالحيوية. أصبح ضابطًا في الحرس الوطني الذي استحدثه الحاكم العام للجزائر، دوس دو روفيجو (Duc de Rovigo)، ودخل في خضم المتع الاجتماعية التي أحاطت بهذا المنصب. فجأة لمع شعاع من النور من الماضي. ففي أثناء حفلة عشاء حيث كان ضيفًا عبَّرت سيدة عن اعتذارها لتأخرها في الوصول؛ وذلك لحضورها حفل زفاف في إحدى الأسر المغربية العريقة. من ملحوظاتها الأخرى فُهم أن العروس كانت خديجة فهبط قلبه. كما علم أنها أُجبرت على ذلك، وأنها كانت تحب شابًا فرنسيًا.

كرس نفسه الآن لتعلم اللغة العربية، وتغاضى عن نفوره الأولي من أصواتها الحلقية. تولى تعليمه أستاذ جامعي. كانت طبيعة روشيه نادرة، حيث كان يرى الخير في كل شيء وفي كل إنسان. غدا الأستاذ صديقًا له، وكان كاتم أسراره يفضي له عن خديجة. حظيت زوجة الأستاذ بمقابلة في حمام السوق مع مسعودة الزنجية التي كانت مرضعة خديجة.

ومع أن كليهما اتفق على استحالة اللقاء، فقد كانت مسعودة تحمل الرسائل الغرامية بين العاشقين. في نهاية الأمر جرى لقاء لخمس دقائق في الشارع الضيق الذي فصل بين ممشى قصر خديجة والمنزل الذي سعى روشيه للدخول إليه. تبادل العاشقان شد اليدين. قالت: «جزاك الله خيرًا على تعلمك لغتنا». منذئذ، ومن مقصورة على الممشى كانت تراقبه من خلال النظارات وهو يركب في أحد الطرق البعيدة المؤدي إلى المدينة. فترجل وجلس في ظل شجرة تين، وبادلها النظرات من خلال النظارات أيضًا. لقد كانت عاطفة روحية يمكن حدوثها مع رجل نقي القلب ذي مثل عليا مثل روشيه.

ولتقدمه غير العادي تعلم العربية، تسلم الآن منصب مترجم عند بائع الأراضي بين المواطنين والأوربيين دون أن يعيق هذا قيامه بواجباته العسكرية. انضم إلى حملة إلى مدية[1] (Medeah) بغرض تنصيب حاكم عام. لا شك أنه تمنى أن يكبر في عين خديجة ظنًا منه كما قال السير توبي بِلخ (Sir Toby Belch) بأن لا شيء في العالم قادر على أن يزكي رجلًا لامرأة أكثر من إبدائه الشجاعة والجرأة. عند عودته حظي بعدة مقابلات مع خديجة في قصرها في أثناء غياب زوجها: لقد كان هذا طريقًا طويلًا من المغامرات المحفوفة بالمخاطر. ثارت شكوك الزوج، وأخذ خديجة إلى مليانة[2] (Milianah).

كانت مليانة الحصن الحصين لذاك الرجل العظيم عبدالقادر الجزائري، وهو الشخصية البارزة في تاريخ المقاومة العربية للهيمنة الفرنسية. أما الحكم التركي الذي ضعف منذ زمن طويل، واعتمد في وجوده على إقطاعيات شيوخ العشائر العربية، فقد انهار أمام الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٢٤٦هـ (عام ١٨٣٠م). لكن مع الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة ومدن ساحلية أخرى كانت خاضعة للحكم الفرنسي بقي سكان الداخل والجبال والصحراء أحرارًا.

(١) مدينة جزائرية تقع جنوب مدينة البُليدة.
(٢) مليانة مدينة جزائرية تقع جنوب غرب البليدة.

أنعشت معاهدة تفنا (Tafna) الموقعة سنة ١٢٥٣هـ (عام ١٨٣٧م) الأمل بسلام دائم. في فرنسا حظي عبدالقادر بشهرة الرجل العبقري الذي تمنى أن يُحضِّر بلده ويجددها كما كان شأن محمد علي في مصر، وكان يحلم بالدمج بين العرقين الجزائري والأوربي. وجد روشيه فرصته السانحة. اعتاد على ارتداء اللباس الإسلامي لسنتين مضتا. عرّفته مهنته الترجمة الفورية بعادات العرب. أطلعه أستاذه وصديقه على آلاف التفصيلات عن العربية لا يعرفها الأوربيون. إذن لم لا يحاول لقاء عبدالقادر في زي رجل فرنسي مهتدٍ للإسلام ويسعى إلى كسب ثقته، ويصبح الوسيط في خططه الواسعة لإعادة البناء؟ لم يكن يكفر بدينه ظاهريًا. فتصرف كهذا كان سيغيظه مع أنه لم يكن ذا طبيعة دينية. وإذا ما نجح في كسب ود عبدالقادر فسوف يحاول إقناعه بأن السلام مع فرنسا سوف يوقظ الإيمان في أذهان شعب أصبح همجيًا بسوء الحكم التركي. أخيرًا، وبما أنه كان سيصبح قويًا جدًا بفضل صداقته للأمير فإنه كان سوف يحسن من أحوال والده، ويحظى بطلاق لخديجة، ثم يتزوجها.

يمكننا أن نصور الفرنسي الشاب «جسورًا في الحب، مقدامًا في الحرب»، أدار ظهره للحضارة، وصعد وحده أعالي جبال الجزائر. مر وقت قبل أن يصل إلى معسكر عبدالقادر، قضاه في معسكرات زعماء عشائر أقل شأنًا، معلنًا عن نفسه أنه مهتد للإسلام، وحاذقًا في شخصيته الجديدة. لم تكن مهمته سهلة على الإطلاق. لم يؤنبه ضميره فحسب حينما كان يؤدي الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام، بل خدشت روحه الوطنية بتعليقات رفاقه الجدد. إذ تفاخروا بقتل رجل فرنسي. وأخبروه بأنه لو أُعلن الجهاد فسوف يكون في صفوفهم، وعليه أن يضرب حتى والده. كما قالوا إن الفرنسيين جبناء لا يقاتلون إلا وهم مخمورون. في إحدى المناسبات تميز غيظًا من كلماتهم فتحدى عشرين من المتكلمين للنزال حتى الموت. لكن بسبب دخوله الإسلام حديثًا تجاوزا عن سلوكه الأرعن هذا. إلا أنه كانت له نتائج مهمة فيما بعد.

كان عبدالقادر المولود سنة ١٢٢٣هـ (عام ١٨٠٨م) أكبر من روشيه بسنة واحدة. كان مبدؤه الموجه لكل تصرف له هو إيمانه بالغيب. قال: إن المشروعات كلها معتمدة على إيمان أولئك الذين يتعهدونها. ادعى أنه من سلالة فاطمة ابنة الرسول ﷺ. حينما دخل روشيه معسكره في نهاية المطاف وحظي بالمقابلة الأولى أدهشه جدًا مظهر الأمير الشخصي بلون بشرته الشقراء، وزرقة عينيه بأهداب دكناء، وجفنين مقوسين، وأنف نسري معقوف، وشفتين رقيقتين. كانت يداه صغيرتين بعروق زرقاء. أما طوله فكان أكثر من خمسة أقدام بقليل، لكنه قوي العضلات ومفعم بالحيوية والنشاط.

تألف معسكر عبدالقادر من (١٥) ألف رجل، و(١٢) ألف جواد، و(١٠٠٠) جمل، إضافة إلى بغال وحمير. كانت خيامهم المخروطية موزعة في دائرة واسعة. كان الأمير يشن حربًا ضد القلوظيين[١] - وهم عرق ناشئ عن التزاوج بين رجال أتراك ونساء عربيات أو مغربيات - بحجة أنهم كانوا يتعاملون مع النصارى.

كان الأتراك أسيادًا في الجزائر ثلاث مئة عام، لكن باستثناء هؤلاء لم يكن هناك توافق بين المحتلين والسكان. لم تستقر النساء التركيات في الجزائر. وبما أن العرب والأتراك ينتمون إلى طوائف إسلامية مختلفة فإن الشحناء تزايدت بينهم بسبب الدين. لقي روشيه استقبالًا طيبًا من عبدالقادر، وسُمح له بالاشتراك في المعارك ضد القلوظيين. برأ ساحته بشكل ممتاز، وارتقى بسرعة في عين الأمير. وتولى عبدالقادر نفسه تعليمه الديني.

لا يمكن تجاهل رجل في مقام روشيه في تغييره بلده وهجره. كانت

(١) القلووظيون: كان الجنود الأتراك يخدمون في الجزائر دون أن تصطحبهم زوجاتهم، وقد تزوج عدد من هؤلاء من جزائريات فنتج عن ذلك مجموعة سكانية عرفت باسم «كولوغلي».

الروح العالية لعبدالقادر مترفعة عن الشكوك التافهة. لكنَّ الوشاة وناشري الشائعات والحكايات الملفقة لم يكونوا غائبين. إذ بعد أن تلقى أمرًا بالتحرك إلى مسكرة[١] في مهمة رسمية أُمر بالتوجه من هناك إلى تلمسان[٢] لإكمال دراسته للقرآن. أيقن أن الشكوك كانت تحوم حوله على أنه جاسوس.

أصبحت غرفة مساحتها عشرة أقدام مربعة في نُزُل عام مكان إقامته. عشية سفره وبينما كان يفتح بابه الذي كان يُطرق إذ رأى رجلًا نحيفًا طويلًا مضطربًا بلحية بيضاء. كان هذا معلمه الحاج بشير.

تمتع روشيه بطبائع مشرقة أدت إلى كل من يستظل بظلها أن يذوب بالطيبة. بدأ مع الحاج بشير على أسس من الصداقة الحميمة. لم يكن التغيير كله إلى الأسوأ. فقد تحرر من النظرات المريبة للعرب. لكن شُدد الخناق من حوله. كان الحاج بشير مثار شكوك بتحيزه، فنُقل. بدأت مشاعر الاكتئاب تنتاب روشيه، تبعتها الحمى. وبصفته منبوذًا ومريضًا وسط شعب غريب فإنه أوّل مرة في حياته لجأ إلى الصلاة.

عند هذا المفترق، انضم إليه خادمه الفرنسي الأمين إيزيدور (Isidore) الذي أخفى نفسه وراء الزي العربي دون أن يعرف كلمة عربية واحدة. وحينما شعر بأن وضعه الحالي لا يُحتَمل فكر روشيه جديًا في الهرب إلى وهران. امتطى السيد والخادم جوادًا وبغلًا على التوالي وشدوا الرحال. لكن بعد أن قطعا غابة مملوءة بالأسود أُلقي القبض عليهما وأعيدا إلى تلمسان بواسطة قوة قوامها مئة فارس أُرسلت في إثرهما. ولم ينقذ روشيه من الإعدام إلا حضور بديهته. فقد طلب أن يرى أمرًا من السلطان بذلك. كان عبدالقادر حينئذ في مدية. لذا أُرسل روشيه إلى هناك. وهو يدخل عنوة إلى غرفة الأمي، اقترب

(١) مسكرة: مدينة جزائرية تقع إلى الجنوب من مدينة المحمدية.
(٢) تلمسان: مدينة جزائرية تقع في غرب الجزائر.

منه غاضبًا وأقسم له أن سلوكه كان سلوك مؤمن حق، وأنه أسيئت معاملته من أولئك الذين يدعون أنهم مسلمون بالاسم فحسب. وذكَّر الأمير أنه ترك بلده وعائلته ووسائل الراحة، ظهر شعور بالذنب على وجه الزعيم العربي. فطلب من روشيه الصفح، ووعد أن يرد له مظلمته.

كان عبدالقادر غير مرتاح في مدية. إذ لم يسعده تبديل خيمته بجدران وسقف. قضى كثيرًا من الوقت يسأل روشيه عن السياسة الأوربية، وكان منزعجًا بالإجابات الصريحة التي تلقاها، وبخاصة فيما يتعلق بموقف فرنسا من الجزائر. مرة أخرى جدد روشيه قناعاته بأن السلام الدائم سيكون أفضل حل للجميع. رد الأمير بأنه ما زال يحاكم الأمور بعقل النصراني. شعر روشيه من قلبه أن الحرب وشيكة الوقوع، وقرر عند ظهور بوادرها الأولى أن يعود إلى أبناء بلده.

لم يهمل دراسة القرآن في هذه الأثناء. بيد أنه كان لها تأثير غريب. إذ لم يدرك روشيه في حياته من قبلُ الجمالَ الرباني للنصرانية حق الإدراك. لقد تذوق طعم سعادة لا توصف عند صلاته لربه المسيحي في المسجد. كان المسلمون هم الذين جعلوه نصرانيًا.

كان من الحوداث التي لا تنسى في مدية اللقاء الذي تم بين روشيه وأبيه. فقد اقترح عبدالقادر أن يكون روشيه الكبير وكيله في مدينة الجزائر. إذ كان وجود نجله معه ضمانًا للحماس والإيمان. أصبح روشيه ضليعًا في عادة إخفاء أفكاره. لذلك أخفى فرحته باللقاء المرتقب. وفعل الشيء نفسه حينما تم علنًا، ولم يطلق العنان لعواطفه المكتومة إلا في السر. لقد رأى في والده تجسيدًا لبلده، وأسرته، وأعزائه أجمعين. حدث مشهد مؤلم في حضور عبدالقادر. تحدث الأب عن وحدته وشعوره بالحزن الذي سببه غياب ولده. فرد عبدالقادر بأنه إذا ما عاهد الله أن يحيا حياة المسلم الحق فربما يعود. فما

كان من روشيه الذي كان المترجم بين الاثنين إلا أن غمره التأثر. خيم الصمت الذي قطعه صوت نحيب الرجل العجوز. بعد ذلك، وبعد أن استجمع قواه رفض روشيه. خلَّف هذا الفعل تأثيرًا عميقًا في عبدالقادر الذي زاد حبه له عشرة أضعاف ما كان عليه ابتداءً من ذاك اليوم.

نُوقش موضوع مهم آخر بين الأمير وروشيه في مدية. وبحيازته كنز أخذه من القلووظيين، فكر عبدالقادر بتنظيم بعثة إلى فرنسا. تمنى أن يرشي النواب، أو أحد الوزراء لكي يتحدثوا في البرلمان ضد الاحتفاظ بالجزائر. أقنعه روشيه بعدم جدوى ذلك. وأشار إلى أن خطباء مجانيين كانوا يجعجعون ضد ضم الجزائر إلى فرنسا. سوف نصدق هذا من فورنا بصفتنا عاصرنا ظاهرة تأييد الاستعمار.

كانت الطبيعة الهشة للسلام سبب روشيه الأوحد للقلق. لم تصله أخبار عن خديجة. كان زوجها قلووظيًا. وقام عبدالقادر بنفي القلووظيين من مليانة، وأجبرهم على التوجه إلى الداخل بحيث يكونون في مأمن من التأثير الفرنسي.

كان عبدالقادر تواقًا إلى توسيع سلطته على البلد الذي بين تونس والمغرب. لذا كان يخطط لحملة ضد العالِم المسلم سيدي محمد التيجاني. كانت عين ماضي معقل التيجاني في الصحراء. تجاهل عبدالقادر قدراتها على المقاومة. فقد عول على الاستسلام ولم يقم بأي استعدادات لازمة لمحاصرة مدينة محصنة. بعد مسيرة نحو يوم من عين ماضي توقف وهو في حيرة من أمره. عندها جاء روشيه وعرض أن يتقدم إلى المدينة في شخصية رسول سلام، وإذا ما دخلها فإنه يجمع أية معلومة تفيد في شن الهجوم. عارض عبدالقادر الفكرة؛ لأنها تعني موتًا محققًا. فرد روشيه: «ألم تعلمني أن ساعة موتنا مكتوبة في كتاب الله، وأن الإنسان لا يستطيع أن يقدم قضاءه

المحتوم أو يؤخره؟» عندئذ، سلمه عبدالقادر رسالة تخوله التعامل مع التيجاني.

شد روشيه الرحال على عين ماضي، وقبل أن يبدأ رحلة لساعات طويلة رأى أوّل مرة في حياته الأفق العظيم للصحراء يمتد أمام ناظريه. بعد مدة قصيرة لاحت له الواحة التي وقفت خضرتها بقوة في وجه اللون الشاحب والرتيب للأرض التي أحاطت بها من كل جانب. كانت المدينة مبنية على تلة صغيرة مطوقة بسور بارتفاع خمسة عشر قدمًا، وبعرض قدمين ونصف وتحصينات لحمايتها. كانت البوابة الشمالية مغلقة في رد نداءاته، أُعلم روشيه بمنع دخول الغرباء. فكان من الأفضل له أن يغض النظر عن رسالته. كان على وشك المغادرة حينما حدث أمر غريب. صاح بصوت بالفرنسية: «انتظر أيها السيد، سوف أحصل لك على إذن من العالم بالدخول». في الوقت نفسه أُلقي بحبل فوق السور. أمسك روشيه به، وصعد عليه، ونزل إلى المدينة. الآن انكشف سر الصوت الغامض كان صوت أحد الفارين الفرنسيين أقنع سيده بالسماح لروشيه بالدخول، لم يكن لدى المواطنَين الفرنسيَّين الوقت ليسلما بعضهما على بعض. طوق جمع من الناس روشيه وحملوه فورًا إلى القصر.

تُرِك في فناء القصر وحيدًا فرأى حاجزًا شبكيًا في الجهة البعيدة حيث كانت نساء جناح الحريم (الحرملك)، فجأة دخل غلام ووضع في يديه مسبحة. قال: إن هذا ما كان والده العالم يرسله إلى أولئك الذين أعطاهم الأمان. وكل من أعطي الأمان فلا يخاف شيئًا. مبديًا دهشته للتعاقب غير العادي للأحداث راقب روشيه رحيله، حينما دخل عصبة من الزنوج الأقوياء والأشداء وجرُّوه إلى المثول بين يدي التيجاني. في الجهة البعيدة من ردهة فسيحة مزدانة بفنون الزخرفة العربية البديعة رأى أريكة وعليها رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره يتكئ بين وسادات مذهبة. بدت على وجهه البرونزي علائم الكرامة والرفعة. أخبر روشيه بأنه خدم سيدًا ناكرًا للجميل

أرسله إلى حتفه. وكان عليه أن يموت إن لم يوافق على ترك سيده القديم وينضوي تحت لوائه. عندئذ سيحظى بالثروة والشرف. وزاد الطين بلة صراخ الغوغاء الذين تجمعوا في الخارج يطلبون رأس الجاسوس. فرد روشيه قائلًا: «لا التهديدات ولا الوعود ستجعلني أخون سيدي، دع خدمك يقتلون رجلًا جاءك من غير ما ريبة، ويحمل الضمان الذي أرسلت له علامة الأمان». ورفع السبحة فوق رأسه وهو يقول ذلك. فاق وقع ذلك توقعاته، وقف التيجاني مذهولًا، وبعد مرور مدة من الزمن سأل عن كيفية حصوله على السبحة، أجاب بقوله: «طلبتها من ولدك ولم يجرؤ على الرفض». فأكد له التيجاني أن حياته في أمان، وكانت هذه مشيئة الله. وليبرهن له أنه غير عابئ بتهديدات عبدالقادر، دعاه إلى تفتيش المدينة.

أصبحت سرية من الجنود السود مرافقة له لهذا الغرض. قدّر عدد السكان بثماني مئة. وأقنعته المخازن الضخمة للطعام داخل الأسوار بأن المدينة تستطيع الصمود في وجه حصار طويل. في أثناء جولاته الاطلاعية تبعه جيئة وذهابًا حشد من الناس كانوا يصيحون ويحدقون به ويضايقون مرافقيه من السود الذين يحمونه على مضض. ثم توجهوا به إلى القصر، ومن هناك وتحت جنح الليل إلى المكان الذي تسلق منه السور تزاحمت أفكار كثيرة في رأسه وهو ماضٍ في طريقه إلى معسكر الأمير عبدالقادر. ومع أنه لا شيء أكد ذلك اقتنع أنه يَدين بالفضل في نجاته إلى خديجة.

حينما رفض التيجاني أن يفاوض أعد عبدالقادر لفرض حصار على عين ماضي. لم يحالفه النجاح في جهوده الأولى إذ لم يفلح القصف. ورد المحاصرون عليهم القذائف التي لم تنفجر بازدراء. حاول المهندسون بث الألغام، لكن وجود خندق داخل السور جعل من ذلك أمرًا لا طائل منه. بدأت هيبة عبدالقادر تتلاشى. ونهبت القبائل المجاورة مبعوثيه، وتسبب الطعام الفاسد الذي أُرسل إلى قواته بتفشي الحمى والزحار بينهم. كما أن روشيه

الذي أنهكته الحمى قد جرح. عولج الجرح بدهنه بالسمن المغلي. وعزا شفاءه في معظمه إلى دعوات عبدالقادر. لم ير في حياته قط سيماء النشوة الدينية كالتي رآها على وجه الأمير وهو وحده في الخيمة.

سقطت عين ماضي أخيرًا بعد أشهر بمهارة هندسية من شخص هنغاري اخترع لغمًا تفادى الخندق المقام حول الحصن. بدأ الحصار في غرة يوليو عام ١٨٣٨م، وانتهى في ٢ ديسمبر من العام نفسه.

لم يكن روشيه بحاجة إلى استدعاء إلهامه الرباني الفطري بأن خديجة هي التي أنقذته من عواقب مأثرته البطولية الخطيرة. كانت المخاوف تنتابه في أثناء مدة الحصار بأنها في داخل المدينة. بعد أسر المدينة سعت زنجية مسنة إلى مقابلته. كانت مسعودة. أخبرته باختصار عن تاريخ حياة خديجة منذ مغادرتها مليانة مع زوجها. توجها في البداية إلى المغرب، لكن اتخذا من عين ماضي مقرًا مؤقتًا. لقد كانت خديجة هي من رأى روشيه يتسلق السور، وكانت هي التي دبرت الخطة التي أنقذت حياته. سأل سؤاله الملح: «أين هي الآن؟» جمَّد صمت مسعودة الدم في عروقه. ترى هل حصل الأسوأ؟ قد حصل. فقد ماتت من الهم الشديد في أثناء الحصار، وإلى روشيه تركت دعواتها بالرحمة.

في الأشهر التي تلت هذا الأمر المأساوي كان روشيه مع عبدالقادر في أسفاره في الصحراء. عاد مرة إلى عين ماضي ليزور قبر خديجة. كتب رسالة باسم عبدالقادر إلى ملك فرنسا وملكتها، وإلى تيرز وإلى المارشال جيرار لكن دون نتيجة. عندئذ أعلن عبدالقادر أنه ينوي الإقامة بتغْدِيْمتْ[1] (Tagdempt)، وأن على روشيه أن يقيم هناك أيضًا ويتزوج. فقد اختار له عروسًا، وكان يُعِد له منزلًا.

(١) تغديمت منطقة هضبية في جنوب الجزائر.

لم يكترث الآخرون كثيرًا بهذه الأخبار غير السارة. فقد خرقت فرنسا معاهدة تفنا. وغزت القوات الفرنسية سهول ميتيجة[١]. وعبر جيش بقيادة دوق أورليانز ومارشال فالي ممر بيبان (Biban) من قسنطينة[٢]، وكان يسير باتجاه مدينة الجزائر[٣]. اعتبر عبدالقادر مرور القوات الفرنسية على أراضيه إعلانًا للحرب. وعبر عن سعادته بأن من خرق المعاهدة هم الكفار، ورمى روشيه بنظرات التأنيب على نظراته الحزينة. أقر روشيه ببغضه للقتال ضد أبناء بلده، لكنه أُخبر أنه تحدث بكلمات تنم على عقوق. قال عبدالقادر بحزم: «يوم دخلت ديننا الحنيف قطعت ساعتها كل الروابط التي تربطك بالكفار». حينئذ انفجر روشيه وهو غاضب يائس باعترافه المميت: «إذا كان الأمر كذلك، فأنا لست مسلمًا إذن».

كان حدسه اللاحق صحيحًا أنه دان هذه المرة بحياته لمشاعر المودة التي يحملها عبدالقادر، كان على وشك استدعاء الجنود للقيام بإعدامه. لقد أخطأ. «فقد تمنى الأمير بأن يتيقن أنه لم يسمع هذه الكلمات المفزعة». ثم أردف قائلًا: «اذهب. أترك عقاب روحك لله. اغرب عن وجهي، اذهب، وإياك أن تكرر أمام مسلم الكفر الذي سمعته أذناي؛ لأنني عندئذ لن أكون أمينًا على حياتك، اذهب». هرب روشيه برفقة إيسيدور. عاش لمدة سنتين بين ظهراني العرب. لقد اشتاق الآن إلى أهل بلده. لم تجر محاولات لمطاردته، وتخيل أن الأمير الذي تأثر بشجاعته قد تظاهر بجهله بفراره. بعد أيام وليالٍ من تجواله وضلاله طريقه إذ رأى فجأة شعاعًا من نور الشمس على قمة الجبل فوق وهران[٤].

---

(١) سهول متيجة الغنية بثرواتها الزراعية وتضم ولايات الجزائر، البليدة، تيبازة، وبومرادس.
(٢) قسنطينة: مدنية داخلية تقع شرق الجزائر.
(٣) الجزائر: عاصمة الجمهورية الجزائرية الحالية.
(٤) وهران: إحدى المدن الجزائرية الشهيرة التي تقع في غرب الجزائر، وهي عاصمة ولاية وهران.

حينما دخل المعسكر الفرنسي وهو بثياب بيضاء رقيقة، وأسلحة جميلة وجواد أسود بديع مبهرج جدًا جعل الفرنسيين يظنونه خطأ أنه شيخ عشيرة عربي. لم يصدق الضابط قصته ووضعه رهن الاعتقال. لم يمسه أحد بأذى إلا ما اختلط عليه من شعوره بفرحة عارمة بعودته إلى الحضارة. ما لبث أن نجح بإثبات هويته، وغادر وهران إلى مدينة الجزائر في سنة ١٢٥٥هـ (١٦ نوفمبر من عام ١٨٣٩م).

تغيرت أحوال والده من سيئ إلى أسوأ. فقد باع أرضه الآن، وكان مثقلًا بالديون. بقي روشيه في الجزائر العاصمة حتى يناير من السنة التالية، ثم قام أول مرة في حياته بزيارة باريس. سبقته شهرته إليها، فأصبح حديث الساعة. تقاطر الجميع لرؤية أمين سر (سكرتير) عبدالقادر الشهير. قُدِّم لدوق أورليانز (Orleans)، والتقى السياسي والمؤرخ أدولف ثيير (Thiers)، ولم يكتمل أي تجمع عصري إلا بحضوره. قدر روشيه الاحتفاء به حق قدره. وكانت فرصته أشد برؤيته لعمته التي كانت بمنزلة أمه. كانت حياتها عاصفة منذ أن فارقها. ماتت ابنتها بالطاعون، فانهار إيمانها، ووجدت نفسها وجهًا لوجه مع الكلمة الخالدة. «لا»، حينما نجح كاردينال الكنيسة بإقناعها بالثقة بالله.

للمرة الأولى من بلوغه سن الرشد ذاق روشيه طعم الحياة العائلية. وتطلع قدمًا إلى اليوم الذي يصبح فيه دفء متع الحياة الأسرية ملكًا له. لذا خطب فتاة قبل عودته إلى مدينة الجزائر.

حطّ على أرض الجزائر في الرابع من إبريل وهو يحمل تعيينًا رسميًا يكون به مترجمًا فوريًا من الدرجة الممتازة. لكن تغير منصبه في الجيش. بدأت ألسنة السوء تنال منه، وبدا وكأن تقارير عن تعاملاته مع عبدالقادر ستنال من سيرته. وصفه مارشال فالي (Vallee) لدوق أورليانز بأنه مرتد عن دينه، وهذا ما اضطره إلى مغادرة هيئة أركان الدوق. تبع ذلك علائم برود رسمي أخرى

نحوه. لم يُطلَب منه النصح في أمور كان على علم متميز بها؛ وذلك لمعرفته بالبلد.

حينما استُدعي فالي إلى فرنسا وعُين في مكانه الجنرال بُوجود (Bugeaud) - الذي أصبح ماريشالًا فيما بعد - في سنة ١٢٥٧هـ (فبراير عام ١٨٤١م)، بدأت الغيمة تنقشع. كان بُوجود ميالًا جدًا إلى روشيه. لكن حينما عاد روشيه إلى الجزائر العاصمة في يوليو بعد الحملة وجد أن سمعته الطيبة لم تعد، وراجت أقاويل الشر حوله. فقد أصبح معلومًا عند الجميع أمر دخوله الإسلام وقبوله منصبًا تحت إمرة عبدالقادر. أما مآربه وفراره لتفادي مقاتلة أبناء جلدته فقد أُغفلت. في أثناء ذلك أتى خبر من عمته بأن يصرف النظر عن الزواج. وداعًا لآماله بسعادة أسرية.

كان روشيه حساسًا جدًا ومعولًا في سعادته على أن الدنيا بخير، فلم يقدر على تجاهل هذه الصفعات. بدأ يتمنى الموت. فقد تزاحمت الغيوم المتراكمة على أفق شبابه، وتكاثفت حتى تلبدت سماؤه كلها باللون الرمادي المعتم الرتيب. تخطى العقد المهلك، وهو ما بين العشرين والثلاثين، وفوت التيار الذي يأتي له بالثروة. فدمار والده، وموت خديجة، وعدم نجاح مهمته مع عبدالقادر، والشبهات الظالمة التي حامت حوله، وانهيار خطوبته، أسهمت هذه كلها في هز ثقته. نتج من ذلك حتمًا الانحدار في هاوية المعنويات الحيوانية المنحطة، والشك في أنه لن يواجهه إلا الإخفاق في أي شيء كان.

استخلص عبدالقادر آيات معينة من القرآن بهذا المعنى. اعتقد روشيه أنه في حالة احترام المحتلين لدين السكان فلا داعي لتوقع عواقب وخيمة. أيد رأيه التيجاني عدو عبدالقادر الذي تبادل معه وجهات النظر في هذا الموضوع. وأضاف التيجاني أنه لإقناع العرب المولعين بالخرافات ينبغي استصدار فتوى موقعة من علماء المسلمين.

صادق الجنرال بُوجود على الخطة، وأوكل إلى روشيه تنفيذها. دعمه بالأموال ومنح والده منصبًا بلديًا. كما تنازل روشيه عن راتبه بصفته مترجمًا إلى دائني والده في أثناء غيابه. ولم يفصح عن الهدف من مهمته لأحد. وعندما غادر مدينة الجزائر في سنة ١٢٥٣هـ (عام ١٨٣٧م) للانضمام إلى عبدالقادر شعر بالحزن لدى تركه أباه وبلده، لكنه أبقى على أوهامه، وكان يحدوه الأمل بلقاء خديجة. حلت الآن حقيقة مرة محل هذه الأوهام، وغادر وفي ذهنه ألا يرى بلده وأصدقاءه بعد الآن. لقد اختنق من جراء «عملية»الحياة وتنبؤات قاتمة عن المستقبل.

توجه روشيه إلى القيروان برفقة مندوب التيجاني الذي عُرف بالمقدم. حمل رسائل تعارف من التيجاني إلى علماء الجامعة العتيقة[1] والشهيرة التي أسسها سيدي عُقبة. فعل الذهب الذي كان يقدمه بُوجود بسخاء فعله. فإذا لم يكن اشترى ضمائر العلماء فقد ألان من عريكة تعصبهم. كُتبت الفتوى على بكرة طويلة من الورق المصقول السميك، وانتهت إلى ما يأتي: «إذا ما غزا الكفار بلاد شعب مسلم فقاتلهم على أمل إخراجهم، وإذا ما أصبح يقينًا أن استمرار الحرب لا يجلب إلا الويلات والخراب والدمار والموت للمسلمين، مع انعدام فرصة هزيمة الكفار من قبل هذا الشعب، وهو يحدوه الأمل بإزاحة نير الغزو بعون الله، له أن يختار أن يعيش تحت وطأة حكمهم بشرط صريح أنهم يحافظون على ممارستهم الحرة لدينهم، وأن زوجاتهم وبناتهم سيكونون في الحفظ والصون».

أُعلم روشيه أن مفعول هذه الوثيقة سيكون أعظم بعشرة أضعاف مما هي عليه لو صادق عليها علماء الجامعات الكبرى في الشرق. وكان أول هاجس لرحلته إلى مكة.

---

(١) الجامعة العتيقة هي جامع عقبة الشهير الذي أسسه عقبة بن نافع فاتح شمال إفريقية.

توجه من القيروان إلى مالطة[١]. هناك التقى روسبر ميريمي (Prosper Merime) الذي عاد إليه الفضل بالدرجة الأولى في إنقاذه. أعطاه ميريمي رسالة تعريف إلى عمه فلجينس فْريسْنيل (Fulgence Fresnel)، وهو القنصل الفرنسي في جدة، لكن كان آنذاك في القاهرة، كان فريسنيل مستشرقًا كبيرًا من مدرسة سيلفستر دي ساس (Sylvestre de Sacy)، وهو سيبويه زمانه في اللغة العربية وأدبها في عصره وربما في أي عصر. اعتمدت كتبه بالعربية في أفضل الجامعات في الشرق العربي. قال: إنه أنفق أربعين سنة من عمره للدراسة، ويحتاج إلى أربعين سنة أخرى للحصول على معرفة كاملة؛ أي: القدرة على الاستيعاب الأولي لأعمال شعراء كل العصور وكُتّابها. كان فريسنيل أحد تلامذته المتميزين. لكن تحقيقًا للغرض الحالي فمن المهم ذكر أنه كان صديقًا حميمًا ومقربًا من شريف مكة.

قابل روشيه فريسنيل وشخصيات مهمة أخرى كثيرة في القاهرة. تطور تعارف عرضي معه وكالعادة إلى مودة ومحبة، وكان يتطلع قدمًا إلى الرحيل المرتقب بألم. قُدم إلى محمد علي، وقارن بين مظهر محمد علي ذي القوة المادية، ومظهر عبدالقادر التقشفي ذي القوة الروحية غير العادية. تحدثا عن الحرب في الجزائر. وعبر محمد علي عن عجبه من المقاومة الصامدة للعرب، وقارن بينها وبين الاستسلام السريع لمصر. ذكّره روشيه بالاختلاف الكبير بين التضاريس الطبيعية للبلدين. فقد قطعت الجزائر جبال وعرة كان يحرس ممراتها القبائل منذ قرون، بينما تفادى البدو القساة والمحاربون المطاردة ولاذوا إلى الصحراء. أما مصر فكانت بلدًا منبسطًا يسكنها مقيمون وفلاحون. أثلج حديثه الصريح صدور الحاشية الحاضرين. أما محمد علي فلم يبد عليه عدم الارتياح إلا تقطيب حاجبيه المخيفين. تخيل روشيه أنه عكس في عينيه العريكة التي أمر بها بارتكاب المجزرة ضد المماليك. كانت مهمة روشيه في

---

(١) مالطة: إحدى جزر البحر المتوسط قريبة من الساحل الليبي.

القاهرة تقديم فتوى القيروان إلى علماء الأزهر. استمر المجلس من الساعة السادسة مساء حتى منتصف الليل. وجال اثنان من الأعضاء بين الحاضرين ودوَّنوا أراءهم جميعًا. قرأها الرئيس على الملأ بصوت عال، واستُشيرت كتب كثيرة. كان مشهدًا مهيبًا أن ترى الرجال المسنين الرقيقين، بلحاهم البيضاء الطويلة، ووجوههم السمحة التي أضاءها النور المتوهج للمصابيح المتدلية من أقواس مدببة. كان كل ما حولنا في المسجد يوحي بالعظمة. قامت أقواسه المزركشة بفن الزخرفة العربية البديع على مئات من الأعمدة برؤوس من الذهب.

للمرة الثانية يُصرِّح لروشيه بأن موافقة المجلس الأعلى لعلماء المدينة المنورة ودمشق وبغداد المنعقد في مكة المكرمة من أجل الحج، كانت مطلوبة. ولم تعد الرغبة في الموت من الأولويات عنده، ومع أنه لم تكن عنده رغبة في العودة إلى بلد عانى فيها الأمرَّين، بدا له المستقبل أقل سوادًا. لقد خفف حسن استقباله في مالطة ومصر واتصاله مع علية القوم من طبيعته المزاجية. كان تيهه من النمط الذي وصفه ليزلي ستيفن، والذي ينبع من السعي الحثيث إلى التعاطف والثقة بصدق رفقائه. بدت رحلة مكة لمعنوياته المنتعشة وسيلة لنفض غبار أعباء الحياة عنه أكثر مما هي تجربة مثيرة للاهتمام.

كان في انتظاره مهمة أخرى، لكنها أقل أهمية من مهمة الفتوى: تحسين ظروف الحجاج الجزائريين ومعاملتهم على متن بواخر البحر الأحمر. وكان شاهدًا على الأساليب البربرية للسلطات المصرية والتركية، وجمع عينات مدعمة بالحقائق ليقدمها إلى محمد علي، وإلى القنصليات الأوربية في مصر وجدة، وإلى الباب العالي عبر قنواتها الدبلوماسية الفرنسية.

تمت دراسة طرق الرحلة ووسائلها. قام أحد معارف روشيه من العرب الدهاة، وهو الشيخ التونسي بإخطاره أن أخا زوجته سيدي الحاج حسن بن

إبراهيم كان على وشك المغادرة إلى مكة مع زوجته وأربعة من العبيد. رحب روشيه بصفته أوربيًا مسلمًا بالفرصة للسفر بصفته حاجًا سابقًا. وقد اتُّفق على أن يدفع نصف نفقات الرحلة.

تمنى روشيه أن يزور المدينة المنورة، وأن يصل مكة المكرمة قبل أيام قلائل من الحج. لذا، بدلًا من الانضمام إلى القافلة المصرية، اتصل بممثليه في القاهرة من آل وَلْد بن علي، وهم عشيرة على الساحل الشمالي في جوار الإسكندرية. أُبرم عقد أمام القاضي مع أحد المقومين لاستئجار اثني عشر جملًا إلى ينبع مقابل ثمانين جنيهًا إسترلينيًا. في السادس من نوفمبر ٢٠ من رمضان سنة ١٢٥٧هـ (عام ١٨٤١م)، انضم روشيه إلى قافلة ولد بن علي، يرافقه مقدم التيجاني إبراهيم وزوجه، وعبدان زنجيان، وأمتان زنجيتان، والمقوم - وهو رجل ضخم جدًا مدجج بالسلاح - ومرافقة مؤلفة من أربعة نوبيين. تكونت القافلة من (٤٠٠) حاج و (١٠٠٠) جمل. استُقبِل روشيه بحفاوة بالغة من شيخ العشيرة.

كانت الحوادث الخارجية للرحلة قليلة. توارى روشيه المنشغل بمهمته عن الأنظار. ويعتذر عن التفصيلات الدقيقة التي وصف بها الفتوى بدعوى أنها قد تحمل قيمة تاريخية. هَبْ أن بطلًا مسلمًا هبّ في المستقبل ليهدد الهيمنة الأوربية، فقد تؤخذ العبر من الماضي عن أفضل وسائل مقاومته معنويًا وماديًا. حدثت مناوشات عرضية مع البدو قطعت عليه تأملاته. كما استوقفته التضاريس العجيبة لسهل أو جبل، منها سلسلة جبال العقبة الغربية: أوحى مظهر الصخور بصورة من الفوضى.

في ينبع تبادل روشيه أطراف الحديث مع بعض أصدقاء إبراهيم من التجار الذين أعطوه معلومات عن معاملة الحجاج الجزائريين. أصابته هو نفسه الصدمة عند ظهور المسافرين الذي وصلوا عن طريق البحر. زُج بمئتين

منهم في سفينة لم تكن تتسع لأكثر من خمسين، كانوا يُطعَمون بسكويتًا ناشفًا ويسقون ما يكفيهم من الماء لمنع الموت من العطش. أما أولئك الذين ماتوا من الجوع أو الاختناق فنُهبوا ثم ألقي بهم في البحر. انتهى الآن الاتفاق المبرم مع المقوم الأول واستؤجر غيره في ينبع مقابل (٤٤) جنيهًا إسترلينيًا لتزويدهم بجمال إلى المدينة ثم إلى مكة. حينما لاحت المدينة المنورة عن بعد، وبانت الأبراج المسننة التي تحمي الأسوار من خلال الشجر، ردد روشيه بجد ومثابرة أدعية إبراهيم نفسها، وقلده في أفعاله الورعة. ثم دخلوا المسجد ليلًا، ومشوا بمحاذاة صف الأعمدة حتى قبر النبي ﷺ. سلطت المصابيح المدلاة من الأقواس المقنطرة ضوءًا باهتًا على الأعمدة المطلية، والنقوش المذهبة، والسجاد. وكان روشيه الحاج الوحيد الذي يبدي إعجابه بهذه الزخارف الخارجية، ومع ذلك لحظ غياب الحماس عند المصلين وعزاه إلى تدهور أحوال المدينة، وتهدم كثير من منازلها.

بعد ثلاثة أيام بدأ رحلته إلى مكة المكرمة. في اليوم التاسع أي ٧ من ذي القعدة (٢٢ ديسمبر) وصلوا إلى ميقات الإحرام. عند دخول مكة تقدم إلى المسجد الحرام وأدى الطواف. رأى من بين الشعائر المألوفة إلصاق بعض الحجاج صدورهم بالكعبة بين بابها والحجر الأسود رافعين أيديهم يسألون الله غفران ذنوبهم. تلا الطواف شرب رشفات من ماء زمزم، ثم السعي، وبذلك انتهت العمرة.

مكث روشيه أسبوعين بمكة. أقام بمنزل مبني داخل الجدار الشرقي للمسجد الحرام، ويطل على الصحن. كانت غرفته في الدور الثاني، ودفع ثمانية فرنكات في اليوم أجرة. أوحى له مشهد الحجاج وهم يطوفون بالكعبة المشرفة ليلًا على ضوء المصابيح وهم يرفعون أصواتهم بالدعاء بأفكار ورعة لولا صيحات مئات الرجال والنساء وكذلك الأطفال الذين يكتظون تحت الأروقة وبين صفوف الأعمدة يلعبون ألعابًا مختلفة. كانت نسوة كثيرات

يطبخن في ممرات الأعمدة، ويباع الخبز والتمر والقهوة، ويزاول الحلاقون مهنتهم[(١)]. يقول روشيه: «بمقارنة غنى الأماكن المقدسة المسيحية وروعتها مع هذه الأماكن التي تعد أقدس الأماكن للمسلمين في العالم يُكِّون الإنسان فكرة عن الفوضى التي تسود الإدارة الإسلامية. لا شك أن إيمانهم قوي كإيمان النصارى، لكنه إيمان دون عمل»[(٢)]. يُذكر أن بوركهارت استخدم تقريبًا لغة مماثلة تصف مسجد المدينة (المنورة).

بعد انتظار ثلاث ساعات استطاع روشيه أن يدخل الكعبة المشرفة: «عليك أن تدفع نقودًا وأنت تصعد الدرج الذي يحرسه أغوات المسجد الحرام، وتدفع وأنت تدخل، وتدفع وأنت تغادر، وتدفع وأنت تنزل الدرج، تدفع باستمرار. كان مما يرثى له رؤية الطريقة التي يُعامل بها الحجاج البؤساء الذين لا يستطيعون إرضاء الموظفين الكثيرين جدًا في المسجد (الحرام)». كانت الأوعية (الدوارق) التي يوزع بها ماء زمزم وسيلة أخرى لابتزاز النقود. وبما أنها مدببة الشكل، فليس لها أن تقف، وكان على أحد الزمازمة أن يمسك بالوعاء الذي يشرب منه الحاج. كان الأغا الذي اختاره روشيه راضيًا كل الرضا بالأجرة التي أعطاه إياها إلى درجة أنه تطوع بمرافقته إلى أماكن أخرى. تفطن روشيه إلى أن عليه أن يحافظ على قناع الشخصية الوقورة والجدية، فرفض العرض.

وجه رسالة التعريف من القنصل فريسنيل إلى شريف مكة في الطائف، لكن لم يصل رد بعد. في ١٧ من ذي القعدة سنة ١٢٥٧هـ (الأول من يناير

(١) ما ذكر عن الطبخ داخل روضة المسجد فهذا غير صحيح، أما بيع الخبز والتمر والقهوة فكان ذلك من أماكن محددة في المسعى والحلاقون يزاولون مهنتهم عند المروة في آخر المسعى.

(٢) هذا حكم فيه انحياز ضد المسلمين والمقارنة التي قام بها المؤلف هنا غير دقيقة لعدم وجود مكان في أوربا يستقطب هذه الجموع الكبيرة في وقت محدد.

عام ١٨٤٢م) فكر كيف يُحتفَل بعيد رأس السنة الميلادية في أرجاء فرنسا والمستعمرات الفرنسية، وكيف كان والده وأمه بالتبني يذرفان الدموع على ولدهما الضائع، في الوقت الذي كان هو مطارَدًا بين أناس متشددين يقوم بمهمة محفوفة بالمخاطر يرى بأم عينه عاقبتها المحتومة، وهو وحيد لا أنيس له ولا جليس يفتح له قلبه. اعتقد أن «لا بد لمثل هذه الحالات من المعاناة الروحية من أن تكفر ذنوبًا كثيرة».

أخيرًا جاء رد من الشريف. في الثامن من يناير ارتحل روشيه إلى الطائف مع مقدم التيجاني. على عكس جدب مكة انبهر بخضرة واحة جبل كرا [الهدا] في تواضعها بين قمم جبال غرانيتية. وبما أنه صديق لفريسنيل، كان واثقًا من استقبال حار من الشريف. أخذ بنصيحة فريسنل بمجاملة رغبة الشريف بالقيام بدور سياسي بارز، ويستقطب أنظار الدبلوماسية الأوربية. أما بشأن معاملة الحجاج الجزائريين فقد وعد الشريف على الفور باستخدام نفوذه مع السلطات المصرية والتركية، وربان سفن البحر الأحمر.

بعد ذلك عرج على تدهور الحج. إذ في الماضي كان مئات الآلاف يتقاطرون إلى المدينتين المقدستين. كانت تصل إلى مكة ست قوافل من جميع الأقطار الإسلامية. وكان من بين الحجاج أصحاب سمو وأمراء يتبعهم الناس جميعًا. وعسكرت آخر القوافل العباسية في عرفات وكان قوامها (١٣٠) ألف جمل. كان الحج يعد عملًا أمر به الله ذاته. وما فكر الحجاج إلا بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن. أما الآن فهناك (٤٠) أو (٥٠) ألف حاج كحد أقصى وثلاث قوافل من سورية ومصر واليمن. خصص الحجاج وقتهم للتجارة، واستبدلوا التأمل بالتقوى والورع بالسلوك المشين في أثناء الفترة المقدسة للحج! أسأل الله أن يحفظ بصرك من رؤية أفعالهم المشينة.

أقر بنبرة حزينة بأن الأشراف ساهموا في تدهور الإيمان. فقد أثار

بذخهم وجشعهم عداوة السعوديين. ولكي نقاومهم كان لزامًا علينا استدعاء الأتراك. وبدل أن يكون الأتراك حلفاء صاروا طغاة. وقوض الخضوع للوصايات النصرانية أركان الإمبراطورية العثمانية. تقلد المرتدون مناصب رفيعة. لقد كان التدهور المحتوم لشعب ما وراء تضييعه للإيمان.

لم يكن إيمان الشريف نفسه قويًا. أجرى روشيه المقارنة المعتادة بينه وبين عبدالقادر. كان الشريف مسلمًا متمتعًا، أما عبدالقادر فكان محاربًا متقشفًا.

في هذه المدة يعقد علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد اجتماعًا في الطائف. وأثيرت قضية الفتوى. عارض أحد الأعضاء الفتوى بغضب شديد لكنه اُستبعد. وُقِّعت الوثيقة وخُتمت، ثم سلمت إلى المقدم التيجاني.

حينما عاد روشيه إلى مكة وجد أن آلاف الحجاج قد وصلوها. كانوا كلهم يرتدون حلة واحدة من الإحرام الأبيض. لكنه فوجئ بتعدد اللغات، والأجناس والملامح والمحيا. أدخل اجتماعه بإبراهيم من جديد السرور العظيم إلى صدره لأن الأواصر الحميمة من التعاطف قد نشأت بينهما في أثناء الرحلة، كما هي العادة دائمًا مع روشيه. رفع اللقاء من معنوياته المنهارة حينما هَمَّ بوداع الشريف، دهمته هواجس مرعبة.

بدأت القوافل بالتحرك إلى عرفات: القافلتان السورية والمصرية، ثم بقية الحجاج في موكب وهم يرفعون عقيرتهم بآيات من القرآن، كان يضيق الموكب ويتسع حسب عرض الأودية. توسطت السهلَ سوق ضخمة. نُصبت آلاف الخيام وأشعلت النيران أمامها، وهذا ما جعل الحجاج المتأخرين يتحركون جيئة وذهابًا يبحثون عن معسكراتهم. إن صيحات هؤلاء، والتضرعات والابتهالات الدينية، وأناشيد الفرح إلى درجة التصفيق وقرع

الطبول، والصرخات الشديدة لباعة القهوة وهدير (٢٠) ألف جمل، وصهيل الخيول، ونهيق الحمير. كل هذا مثَّل حفلة صاخبة. ظل روشيه والمقدم يبحثان عن إبراهيم ثلاث ساعات حتى وجدوه. كانت هناك محنة أخرى وهي البرد الشديد في تلك الليلة. نهض روشيه في الصباح الباكر ولحظ أن الخيام في خط مستقيم كما الشارع، حيث تجمع حشد مكتظ، بينما كانت الجمال تأتي على شجيرات في طور النمو على التلال المحيطة. رافقت هذا اليوم المشهود يوم الوقفة بعرفات (٢٢ يناير) أحداث غير لائقة. فجأة قابل وجهًا لوجه حاجين جزائريين كان بصفته مترجمًا سببًا في إيداعهما السجن لمدة سنة. شعر وكأنه داس على أفعى سامة. علاوة على ذلك ينبغي أن نتذكر أنه لم يكفر بالنصرانية كما لم يشهر إسلامه علنًا. كان مطلوبًا من الحجاج الآن إسباغ الوضوء الأكبر قبل الصلاة. بما أنه دون خيمة، كان عليه أن يذعن لهذه العادة أمام الملأ. وعلى الرغم من كل التحذيرات، تخيل أنه كان مراقبًا. ما حصل بعد ذلك سوّغ على ما يبدو مخاوفه.

مضى اليوم متثاقلًا حتى حانت الخطبة. كان خلف الخطيب شريف مكة على جمله. أحاط به الزنوج وهم يحملون رايات خضراء مهدبة بالذهب والفضة، تسببت الريح في أن تلفح رأسه ورأس الخطيب. كان معظم الحجاج في نشوة، بينما انتحب آخرون وانحنوا تذللًا. لكن لم يخل الأمر مما هو منافٍ للدين. تواصل لعب الميسر والتدخين والشجار في أماكن تناول القهوة دون رقابة، ودار أصحابها بين الحجاج يبيعون القهوة والكعك.

كانت الخطبة على وشك الانتهاء، وبدأ الليل يرخي سدوله، حينما بُترت تأملات روشيه بترًا. فجأة تعالى الصراخ: «أنت، يا نصراني! اقبضوا على النصراني! الكافر بن الكافر!». لم يكن لديه أدنى شك بالشخص الذي كان يشار إليه. بعدها ووسط الفوضى الرهيبة التي تلت ذلك، شق ستة من الزنوج الأقوياء طريقهم في الزحام وقبضوا على الكافر. رفعوه كالطفل بأذرعهم

المفتولة وكمموا فمه وقيدوه على الجمل، وأسرعوا به بعيدًا من المكان. ظن نفسه أنه ضاع: لقد أُنقذ. كان آسروه مبعوثي الشريف الذي عينهم لتتبع خطاه، والذين انتشلوه من غضب المتعصبين باعتقاله صوريًا.

بعد رحلة دامت ساعة على جمال سباق كاد روشيه أن يختنق في أثنائها بالكمامة وضيق مكانه والخرقة التي غطت وجهه وجعلت تنفسه صعبًا، نودي بالتوقف. دعا الله أن يموت، ومع ذلك يمكننا أن نتخيل الشعور بالاشمئزاز الذي انتابه عندما علم أنه كان بين أصدقاء. أُنزل من على الجمل، وحُلت قيوده، واقتيد إلى الكوخ. بينما كان يتناول الطعام الذي قُدم له رويت له القصة التي أدت إلى اعتقاله. أخبر الجزائريان القاضي بوجوده في مكة. نقل القاضي القصة إلى الشريف الذي كان حصيفًا جدًا، فأظهر علامات الغضب الشديد، لكنه أمر على الفور فرقة العبيد ليعيدوا روشيه إلى مكة. وبسبب ضخامة التجمع في عرفات، بحثوا عنه ساعات عبثًا، ولكن قبيل المغرب ولدى سماعهم صرخة «نصراني»، وملاحظتهم صخب الناس تدخلوا في اللحظة المناسبة، وأنقذوا حياته.

وعلى الرغم من حماية الشريف، فقد كان من المؤكد أنه سيغادر البلد على الفور. لذا انطلقوا بالجمال بأقصى سرعة ممكنة؛ وفي غضون سبع ساعات من مغادرتهم عرفات وصلوا جدة بزمن قياسي لا يصدق. في الأمسية نفسها غادر روشيه على متن باخرة إلى ميناء القصير[١].

وصلت مغامراته في مكة إلى نهايتها. لكن آثارها اللاحقة مملوءة بالإثارة الإنسانية جعل من نسيانها بسرعة أمرًا متعذرًا. وصل إلى الأقصر في السابع والعشرين من يناير وتوجه إلى قنا[٢] مع تاجر مغربي. ذات صباح

(١) القصير: أحد موانئ مصر على ساحل البحر الأحمر الغربي.
(٢) قنا: مدينة مصرية في الوجه القبلي، تقع على النيل في موازاة ميناء القصير.

استيقظ ليجد جيوبه خاوية ورفيقه مغادرًا. لكنَّ فريقًا من العرب صادفهم في طريقه عاملوه برفق وهدوه إلى بقية طريقه. في قنا باع جزءًا من ثيابه وجمع بعض المال بكتابة رسائل للفلاحين وقراءة الكف. كان المال كافيًا لرحيله إلى الإسكندرية عن طريق النيل.

صحيح أن إثارة مغامراته قد ولت، لكنه وقع من جديد فريسة للشك والاكتئاب. مرة أخرى تمددت الحياة أمامه في انبساط رتيب. «لن يضع الموت حدًا لحياته». أثارت فكرة العودة إلى الجزائر غضبه. لكن إلى أين يمكنه أن يذهب؟ لقد كان وجوده سلسلة من المغامرات التي لا تُكوِّن كلًا مترابطًا. بدأ يتأمل الاعتكاف في دير. لكن كان يتطلب هذا إيمانًا، لا ربوبية إلحادية كما هي حاله. ثم جالت في خاطره فكرة عمته: على أقل تقدير كان يستطيع العودة إليها. لم يكن راغبًا في شد انتباه العامة إلى مغامراته الأخيرة، فمر بالقاهرة دون المرور بالقنصل فريسنيل. أرسل خطابًا له ولبُوجود من الإسكندرية يستقيل من منصبه. كانت أغرب مغامرة له في الإسكندرية لقاءه غير المرتقب مع إيسيدور. بقي الخادم الوفي مصرًا على اعتقاده بأن سيده سيعود على حين غرة ورفض أن يسافر إلى الجزائر وحيدًا.

صعد روشيه وإيسيدور على متن سفينة إيطالية متجهة إلى سيفيتا فيشيا (Civita Vecchia). ثم توجه من هناك سيرًا على الأقدام إلى روما يرافقه شاب فرانسيسكاني وطالب قانون. بعد بالو (Palo) كان المسير مرهقًا على طريق ممل.

بدا ميلاد الإيمان على الأرجح يغير مجرى حياته. فكر في الدخول في نهج اليسوعيين. وأجرى عدة مقابلات مع الكاردينال فيروفانتي والبابا جريجوري السادس عشر. لكن بقي قدره جزائريًا بكل عناد. رفض بُوجود قبول استقالته، وضغط عليه من خلال السفير الفرنسي في روما. تعرض لخطر

اعتباره مرتدًا عن النصرانية. أضاف إلى الالتماسات الرسمية التماسات والده. أخيرًا كان قرار البابا في صالح عودته.

في سنة ١٢٥٨هـ (٣ يونيو عام ١٨٤٢م) وطئت قدماه مدينة الجزائر مرة أخرى. استقبله بُوجود بكل حفاوة ولطف. كانت مفاجأة له أن يجد ثيابه وأسلحته وكتبه وملحوظاته التي تركها وراءه في مكة المكرمة كما هي لم يمسها أحد. رأى روشيه يجرفه الإعصار، فقد تفطر قلبه من الحزن على ما اعتقد أنه قدره المأساوي. لكنه تحلى بالحكمة، وأبقى على اتصالاتهما سرًا. كانت فرحته من قلبه حينما علم بأن روشيه لا يزال حيًا.

جعل نشر الفتوى كثيرًا من القبائل يلقون السلاح، لكن عبدالقادر واصل المقاومة. في النهاية وبعد إخراجه من الجزائر لجأ إلى المغرب وجرَّها إلى حرب مع فرنسا. لكن هزيمة إيسلي (Isly) عام ١٨٤٤م جعل الإمبراطور يسعى إلى السلام. كان السلام مضمونًا شرط أن ينفى عبدالقادر. بعد لجوئه إلى الجبال ومواصلته حرب العصابات قبض عليه أخيرًا ورُحِّل إلى فرنسا عام ١٨٤٨م. وُضع في السجن في باو وأمَبْوَا (Pau and Ambaose)، ثم أُطلق سراحه سنة ١٢٦٩هـ (عام ١٨٥٢م)، لكنه منع من الرجوع إلى الجزائر، وقضى بقية حياته في بروسا (Broussa) والقسطنطينية ودمشق. استمرت مراسلاته مع روشيه حتى سنة ١٣٠١هـ (عام ١٨٨٣م).

بعد الحملات الجزائرية والمغربية تقلد روشيه مناصب رسمية في طرابلس وتونس، وأصبح سفيرًا في اليابان، ثم عاد أخيرًا إلى فرنسا وعاش حياة المتقاعدين فيها. عاشت معه تجربته القابضة للقلب في عرفات أكثر من خمسين سنة. في سنة ١٣١٣هـ (عام ١٨٩٥م) سمع من شفتي جيرفيه كورتيلمون (Gevvais - Courtellemont) قصة رحلته الأخيرة إلى مكة.

جورج أوغسطس والين (George Augustus Wallin)
(١٨٤٥م)
(ولي الدين)

منعت ظروف غير مواتية رحالة مولعًا بالشرق ولعًا شديدًا وماهرًا حريفًا في التنكر من تدوين انطباعاته عن المدن المقدسة بالدقة نفسها التي طبقها في بقية أسفاره العربية.

ولد والين عام ١٢٢٦هـ (١٨١١م) في جزيرة آلاند[١] (Aland) على مدخل خليج بوثينيا (Bothenia). هاجر والده بعد ذلك بقليل إلى أبو[٢] (Abo) في فنلندة، حيث تلقى تعليمه المدرسي. ومذ أن كان صبيًا تميز باستقلالية وبساطة وتجاهل العرف، ومظهر خارجي رزين، يحمل في جوفه قلبًا مملوءًا بالدفء، وحب المغامرة. كما كان سباحًا ماهرًا وبحارًا جسورًا. دخل بحماس شديد حياة رفاقه، وكان قائدًا في كثير من مشاغبات الطلاب التي جرَّت له عقوبة الطرد من المدرسة.

لم يهمل دراساته إذ بحلول سنة ١٢٥٢هـ (عام ١٨٣٦م) أتقن تسع لغات. وأكثر ما اجتذبه اللغات الشرقية والقديمة، وعلى رأسها الفارسية والعربية. لكنه اكتسب أيضًا معرفة الآداب الألمانية والسويدية والفرنسية. كما

---

(١) جزيرة آلاند: تقع في مدخل خليج بوثينيا، القسم الشمالي من بحر البلطيق، والجزيرة هي جزء من الأملاك الفنلندية.

(٢) أبو: مدينة فنلندية تقع في الجنوب الغربي من البلاد وتعرف باسم (Turku).

نمَّى حبه الفطري عند وفاة والده عام ١٨٣٧م، ذهب إلى سنت بطرسبيرج[١]. درس سنتين في الجامعة ومعهد الدراسات الشرقية حيث اكتسب طلاقة في التركية والعربية والفارسية. عندئذ ارتسمت في ذهنه خطة الرحلة إلى الجزيرة العربية، وحصل من الجامعة على منحة للطلاب الشباب الذين رغبوا في السفر. كما هي حال بيرتون كانت نيته أن يظهر في الشرق بصفته طبيبًا. لهذا عاد إلى فنلندة وأكمل دورة في الطب. وكبيرتون أيضًا كانت الجزيرة العربية «الأرض التي أُولع بها».

انطلق في أسفاره في يوليو من عام ١٨٤٣م، لكن لم يصل إلى القاهرة حتى يناير سنة ١٢٦٠هـ (عام ١٨٤٤م) لتأخير في باريس بسبب مرض ألَمَّ به بعد اعتداء وسطو كان فيهما الضحية. في القاهرة تنكر في زي مسلم، وفي إبريل من سنة ١٢٦١هـ (عام ١٨٤٥م) شد الرحال في رحلة صحراوية عبر شمال الجزيرة العربية. رافقه في البداية بدويان، ولكن فيما بعد دليل واحد. سلك طريق حجاج مصر، وبعد جهد جهيد وصل إلى حائل. هناك أُحبطت نيته في عبور صحراء نجد إلى الخليج العربي لافتقاده إلى المال، ولتقاتل القبائل كما سنرى في حالة بيرتون أيضًا. لذا قطع رحلته ورافق قافلة الحج العراقي والفارسي إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة.

حتى ذلك الحين دوَّن ملحوظات كثيرة ودقيقة لكل ما رآه. لكنه كان مضطرًا لتعليق هذا الأمر في أثناء الحج. وكما قيل غالبًا، فإن رجلًا في ثقافة والين كان سيضيف تفصيلات لها وزنها. فوصف الخطر بين الحجاج، والمسير المرهق والسريع، والطبع المتكتم للعرب الذي لمسه أوَّل مرة، والذي كان يعزى إلى هموم الحجاج الأفراد ومآسيهم، وللحضور الممقوت للفرس «المزعجين والمتعبين» جدًا في رحلات الصحراء كل هذا منعه من طرح أسئلة

---

(١) هي مدينة لينيغراد سابقًا.

أو تدوين ملحوظات. أُنجزت الرحلة من حائل إلى المدينة في غضون (٨٩) ساعة: وكان هذا مسيرًا سريعًا جدًا للجمال بشكل غير عادي. تابع والين رحلته من مكة إلى جدة. كان بجلاء مسلمًا متشددًا إلى درجة مقت الفرس.

عاد إلى القاهرة وعاش في الوسط الإسلامي. في السنة التالية قام برحلة عبر شبه جزيرة سيناء إلى دمشق وبيروت. في سنة ١٢٦٣هـ (عام ١٨٤٧م) شد الرحال من جديد بنية عبور صحراء نجد. مرة أخرى أخفق مشروعه المنشود. فقد اكتُشف حقيقته بصفته نصرانيًا متنكرًا (في زي مسلم) وهذا ما عرض حياته للخطر. فسافر عبر فارس ووصل بعد جهد جهيد إلى البصرة على الخليج العربي. وهناك أبرز سندًا غير مدفوع وكان على شفير الموت بسبب الجوع فأنقذه ربان بحري إنجليزي نقله إلى بغداد.

عاد والين إلى أوربا وزار لندن حيث عانى الاكتئاب الشديد، أولًا بسبب صحته المتدهورة، وثانيًا لعدم معرفته بالعادات الأوربية بسبب إهماله لها لأمد طويل، وثالثًا من تعطشه الشديد إلى الشرق. كما أن الضائقة المالية زادت من همومه. على أية حال عمل بجد لكتابة وقائع أسفاره بالإنجليزية في مقالات بحثية قرأها أمام الجمعية الجغرافية الملكية. فجلبت له على الفور اعترافًا به بصفته رحالة جريئًا وناجحًا. ومن خلال هينري رولينسون أصبحت عيون الدوائر العلمية العالمية موجهة إليه. كما كرَّمته جمعيات ثقافية في فرنسا وألمانيا. وعند عودته إلى فنلندة في سنة ١٢٦٧هـ (عام ١٨٥٠م) اختير لأستاذية في جامعة هيلسينجفورز (Helsingfors)[١].

لمدة من الزمن قام والين بواجباته بشكل مُرْضٍ، لكنه لم يكتف بها. فقد كانت الجولة المنظمة للحياة الأكاديمية بديلًا فقيرًا للآفاق الواسعة للصحراء. صحيح أنه كان أوربيًا من الشمال، لكنه تاق إلى ترك الرطوبة والضباب في بلده

(١) هي مدينة هلسنكي الحالية عاصمة فنلندا.

الأم من أجل روعة الطقس المشمس للشرق، وبساطة طرائق حياة سكانه. من هنا تنبع الشفقة التي تحيط بموته. في عام ١٨٤١م تفاوض بنجاح مع الجمعية الجغرافية لسانت بطرسبيرغ لتنظيم حملة استكشافية إلى جزيرة العرب بغية استكشاف تلك البلاد برمتها. وكان قد حصل على إذن بسحب راتبه بصفته أستاذ جامعة خلال ست سنوات. لكن لم ينجح المشروع بسبب خطأ فاضح في الوثائق؛ إذ لم يحصل على المنحة سوى مرة واحدة في ست سنوات. انقضت خيبة الأمل المريرة على ذهن والين، وزادت من شكواه من القلب، حيث مات من جرائها عام ١٨٥٢م (سنة ١٢٦٩هـ).

السير ريتشارد بيرتون (Richard Burton)
(١٨٥٣م)
(شيخ حاج عبدالله)

إن أكبر اسم ارتبط بمكة هو السير ريتشارد بيرتون. روى بنفسه قصة مغامرته في ثلاثة مجلدات من الحجم الكبير، وبسير ذاتية عدة للمؤلف كان هو محورها جميعًا. لكن قصة كهذه جديرة بأن تروى مرارًا وتكرارًا، وحينما يوضع جنبًا إلى جنب مع رجال من أعمار وأعراق وظروف مختلفة، يكتسي شيئًا من النضارة.

عند إعادة إصدار كتابه في سنة ١٣١١هـ (عام ١٨٩٣م) هللت المجلة الدورية آثينوم (Athenaum) للسحر الفائض في فن الرواية الرائع. يشير كاتب حديث بين قوسين إلى كتاب بيرتون «الحج» «المزهو به جدًا» بصفته أحد أسوأ الكتب وأكثر إثارة للضجر. أما أصدقاء بيرتون الحميمون فقد ترددوا في كيل المديح لكتبه. ويبوئ أحد النقاد الموثوقين كتاب «الحج» المكانة الأولى بين كتبه الأخرى، مع تحفظه على أن قراءته ليست سهلة على الإطلاق. الفجوة بين هذه الأحكام ليست بواسعة جدًا إلى درجة عدم إمكانية رأبها. فقد يخرج القارئ العام بعد تمحيصه صفحات بيرتون بشعور من خيبة الأمل. إذ لا يتصف الأسلوب بصفة تدعى «التفوق». لكن عندما يتقد اهتمام القارئ في مكان آخر سوف يعود إلى بيرتون بربح يتزايد دائمًا. وكما هي الحال مع كتاب كارلايل «الثورة الفرنسية» تعد المعرفة المسبقة للخلفية شرطا لا غنى عنه لتقدير أعماله حق قدرها.

كان بيرتون في الثانية والثلاثين حينما انطلق في أول رحلة له تعد أحيانًا أكثر رحلاته أهمية وإثارة. اعتزم القيام بأسفار موسعة في جزيرة العرب. وبعد أن زار أولًا مكة المكرمة وضمن لقب «حاج» صار في نيته عبور الصحراء الجنوبية المرعبة للجزيرة العربية التي لم يعرف عن أحد آخر أنه عبرها ولا حتى بدوي. وكان رفض شركة الهند الشرقية البريطانية منحه إجازة لثلاث سنوات بلا راتب أول عقبة في وجه مشروعه. وأقلع عن الفكرة نهائيًا حينما بلغته أنباء وهو في مكة عن الاقتتال بين العشائر التي جعلت الطريق غير مأمون. ومع ذلك لا أستطيع الموافقة مع السيد هوجارث (Hogarth) أن رجلًا في غرور بيرتون العلمي لم ير جدوى في زيارة المدن المقدسة حيث لم يُبْق له باديا وبوركهارت شيئًا ليصفه إلا قليلًا، اللهم إذا ما استثنينا مشروعه السالف الذكر. فقد أولى بيرتون اهتمامًا بأمور أخرى غير علمية تتعلق بالأخلاقيات والسلوكيات الإسلامية وبالإسلام بصفته دينًا. لقد كان يتظاهر بأنه مسلم من الأعماق بحيث لم يرفض الإذعان لأمر النبي ﷺ بزيارة مركز عقيدته.

إن الحقائق الخاصة بحياة بيرتون قبل سنة ١٢٧٠هـ (عام ١٨٥٣م) معروفة جدًا إلى درجة أنه لا حاجة بنا إلا إلى نبذة مختصرة. ولد سنة ١٢٣٧هـ (عام ١٨٢١م) وتعلم بطريقة غير نظامية. وكان مقدرًا له أن ينضم إلى الكنيسة لكنها كانت بغيضة له على عكس فيناتي، لم يقرر اختيار سيرته العسكرية بالإكراه. إذ لكي يبلغ هذه الغاية ادعى أنه أُرسل من أوكسفورد. كان وقت الحرب الأفغانية، وقُبل بصفته طالبًا متطوعًا في الفيلق الثامن عشر للمشاة الوطنية لبومباي. لسوء حظه الشديد لم ير الخدمة الفعلية على الإطلاق. كانت محطته الأولى بارودا[1] (Baroda) حيث بدأت معرفته بالحياة الشرقية. وتحول فيلقه تباعًا إلى السند مركز الإسلام في شبه القارة الهندية. كانت بالنسبة إليه تغييرًا في حقبة زمنية مهمة كان لها التأثير الثقافي التكويني في حياته. فقد

(١) مدينة هندية تقع في جنوب شرق ولاية جوجارات.

اكتسب معرفة دقيقة بالأخلاقيات والسلوكيات الإسلامية، وفكر آنذاك للمرة الأولى بمشروع الحج. بعد مضي سبع سنوات شارفت إقامته في الهند على الانتهاء لتدهور في صحته في إثر صراعات مع السلطات، وخيبة أمل في الخدمة في حرب السيخ. عاد إلى إنجلترا سنة ١٢٦٦هـ (عام ١٨٤٩م). وكان قد نشر عدة كتب ومقالات في دوريات جمعيات علمية، وأتقن عددًا من اللغات أيضًا. أما الآن في مدينة بولونيا[١] (Boulogne) الفرنسية فقد مارس لعبة المبارزة بجد ومهارة، وتأهل إلى أن أصبح معلمًا في السلاح. لكن الحضارة ما لبثت أن فرضت نفسها عليه وانشغل فكره بإحياء فكرة الحج. مُنح إجازة سنة بلا راتب اللازمة «لمتابعة دراساته العربية في أفضل الأراضي التي يمكن للمرء تعلم اللغة العربية فيها». كان بيرتون رجلًا عاطفيًا بقلب دافئ. وكان يمقت كلمة «وداعًا». ولم تدر عائلته بنواياه إلا بعد مغادرته ميناء ساوثامبتون[٢] (Southampton) الإنجليزي.

في رسالة لوالدته أعطى فيها نبذة من خطته، وأشار إلى أنه في حال موته تقسم ممتلكاته الثمينة بينها وبين أخته.

قبل شد رحاله شعر بحاجة إلى «صديق صامت». لهذا وجَّه مجموعة من الأسئلة إلى والين. لكن لم يكن هناك آنئذ. إن الصداقة الصامتة التي أُنكرت عليه وهبها بحرية للآخرين. فهو يسجل كل تفصيل قد يكون مفيدًا لحاج المستقبل. إذ يخبرنا أنه حينما غادر القاهرة أخذ معه (٨٠) جنيهًا إسترلينيًا، منها (٥٠) جنيهًا كدولارات ماريا تيريزا[٣]، وهي العملة المفضلة في الجزيرة العربية. أما الباقي فكان بالليرات الذهبية الإنجليزية والتركية. خبَّأ الدولارات والذهب في حزام من الجلد، واحتفظ بقطع نقدية صغيرة لدفع

(١) بولونيا: ميناء في شمال غرب فرنسا.
(٢) أحد الموانئ المهمة في جنوب بريطانيا على القنال الإنجليزي.
(٣) دولار نمساوي كان الناس في مكة يتعاملون به.

النفقات الآنية في محفظة نقود من القطن في جيبه. كانت لوازمه على النحو الآتي: مسواك، وصابونة، ومشط من خشب، وهي أدوات حمامه. وتكونت خزانة ملابسه من بدلة أو اثنتين من الثياب. وكانت لوازمه الأخرى جودًا من جلد الماعز، وسجادة فارسية، ووسادة، وبطانية، وشرشف، «ومظلة قطنية ضخمة شرقية الصنع، صفراء فاقع لونها توحي بفكرة قطيفة زخرفت أكثر من المعتاد»، وخادم، وخنجر، ومحبرة نحاسية ومقلمة ملصقة بالحزام، ومسبحة كبيرة. حُزمت الخزانة في خِرَجة، والسرير في حزمة، وصندوق أخضر بمنزلة صيدلية.

ويخبرنا أيضًا بالتفصيل الممل كيف كان يُدوِّن الملحوظات في رحلته. يحمل كثير من الحجاج معهم قرآنًا صغيرًا في حقيبة مغربية حمراء، موثوقًا بحبال من حرير على الكتف اليسرى. ولإتمام مظهره التنكري بشكل كامل فعل بيرتون ما فعلوا. لكن بدل أن تحوي الحقيبة القرآن المقدس كانت مقسمة إلى جيوب. وضع في أحدها مطواة وأقلام رصاص وقصاصات ورق صغيرة جدًا بحيث يمكن إخفاؤها في بطن الكف. ومنها جعل مبيضة في مفكرته، وهي دفتر طويل رقيق يدخل في جيب في الصدر. رسم رسوماته بالقلم الرصاص، أما الخطوط المهمة فقد حددها بالحبر. حين انتهى قصَّ الورق إلى مربعات، ورقمها، وأخفاها في علب من الصفيح مخصصة لأدويته. قام في الواقع برسم جوف الكعبة على إحرامه الأبيض.

قبل مغادرته إنجلترا جلس يتخيل كل حالة طارئة قد تحدث ويدونها. تعلم مما تعلم صنعة حذاء الخيل الحادي وكان يحذو جواده بنفسه. غادر لندن في الثالث من إبريل متنكرًا في زي فارسي واستقبله في الإسكندرية جون ثيربيرن (John Thurburn) الذي استضاف بوركهارت أيضًا. ولكي يتفادى إثارة الشكوك سكن في بيت منعزل، وفي أثناء الشهر الذي قضاه في الإسكندرية تلقى العلم على يد أحد المشايخ في الصلاة والدعاء والركوع

والسجود والركعات وقراءة القرآن وغير ذلك. ما لبث أن تخلى عن شخصية الفارسي حينما قيل له إنه يُنظر إلى الفرس على أنهم هراطقة، وفي الجزيرة العربية يُجلدون ويدفعون الرسوم ثلاثة أضعافها. فتقمص شخصية الدرويش هذه المرة لأنه تنكر مأمون، ويتأثر به كثيرون من مختلف الطبقات والأعمار. لكن تخلى عن ذلك أيضًا، فالدرويش الذي يجمع إحصائيات قد يكون مثارًا للشك. كان تنكره الأخير في زي أفغاني. ولكي يجنب نفسه الحرج وصف نفسه أنه ولد في الهند حيث عاش حياته كلها. وهو من أبوين أفغانيين. بالإضافة إلى ذلك يسمح لابن كابول أن يتقول بأشياء غريبة.

كانت الخطوة التالية أن يؤمن جواز سفر، وهذا أمر ليس بالسهل. كان قاصد الحج يقضي الساعات الطوال وهو ينتظر على أبواب موظفين عديمي الشفقة. أخيرًا، وبعد أن اطمأن على أن الأمور تسير على ما يرام غادر إلى القاهرة. نزل هناك في خان حيث دفع أربعة بنسات في اليوم لغرفتين. كان الشهر رمضان. جعل من نفسه طبيبًا ذا شهرة عالمية، وتعامل مع أحوال الرجال من كل الأنواع. من بينهم حاج والي الموقر كثير الأسفار الذي طرح جانبًا أحقاد قبيلته. تجول في شوارع القاهرة القديمة في الليل، ووصف عددًا من المساجد وزار قبر بوركهارت. تعرف إلى شاب مكي مرح في الثامنة عشرة من عمره ويدعى محمد. وقد اشترى منه الإحرام والكفن[١] اللذين لا يمكن للمسلم أن يقوم بالرحلة إلى مكة من دونهما أبدًا. كان الغلام في طريقه إلى بلده مكة، واقترح على بيرتون أن يرافقه. لكنه زار الهند ورأى رجالًا إنجليزيين وأظهر بشكل عام علائم «الحكمة الفائضة»، لذا رفضت عروضه. أحضر بيرتون أيضًا مؤنًا وحزمها في قفص وسحارة. في هذه الأثناء برزت صعوبات أخرى تتعلق بجواز سفره. فقد تطلب جواز السفر من الإسكندرية تأشيرتين،

(١) الكفن ليس من شروط الإحرام وإنما يقوم بجلبه البعض إعتقادًا من أنفسهم بمباركة بماء زمزم وهذا ليس من الإسلام.

من قسم الشرطة ومن القنصلية. أهمل هذه الأخيرة، وبعد طرق عدة أبواب دون طائل سُوّي الأمر عن طريق رئيس الكلية الأفغانية مقابل رسوم يسيرة. وهكذا انتهى «شهر البركات».

حدثت حادثة طريفة عجلت في مغادرة بيرتون القاهرة. كان يقيم في الخان نفسه ضابط ألباني من القوات غير النظامية. قيل: إن طيش هؤلاء يرهب حتى بدو الحجاز. فحينما يتشاجر اثنان منهم، يشهر كل منهما مسدسه ويضعه في صدر خصمه. وإذا ما أطلق أحدهما النار على صاحبه فسوف يقتله المتفرجون الواقفون. رأى هذا الشخص في بيرتون طبيبًا مسالمًا وجد فيه هدفًا لإرهابه. يقول بيرتون «أمال بقبعته على رأسه في إشارة إلى المشاكسة المثيرة. أما أنا ففتلت شاربي مبديًا رغبة في التحدي». ثم حاول الألباني جرِّي إلى مباراة مصارعة، لكنه عرض نفسه للسقوط على الأرداف، وكاد رأسه ينكسر لولا أن حماه فراش. وبما أنه أخفق في إخافة بيرتون كما سيخفق أي شخص آخر في هذا الكون[1]، حكم عليه بأنه يستحق شرف معرفته. وتم ترتيب جلسة شرب بينهما فما كان من الألباني الذي كان ثملًا إلا أن تخطى كل الحدود فقد أصبح متأججًا بالأحاسيس وشرسًا. وحاول إفساد حاج ولي البريء بشرب الخمر. وبما أن الراقصات كن محرمات في الخان، هب من مكانه مندفعًا، وأقسم بأن يجعل الباشا نفسه يأتي ويرقص ليسلي عنه. يردف بيرتون قائلًا: «تبعته إلى الردهة الخارجية وأنا أدفعه وأتوسل إليه كما تفعل زوجة يائسة مع زوج سكران ليعود إلى البيت». أخيرًا تم التغلب على الألباني وحُمل إلى الغرفة. لكن في صباح اليوم التالي أفاق بيرتون ليجد أن شخصيته بصفته إنسانًا خطيرًا قد اختفت. لم يتحدث الناس طوال أسبوع إلا عن نفاق الطبيب الهندي الوقور! [أي بيرتون].

لم يستطع إنكار الشعور بانقباض في القلب حينما انطلق في رحلته

(١) هذه إشارة إلى الشخصية المغرورة لبيرتون.

الصحراوية إلى السويس وحيدًا. سبقه خادمه الهندي الشيخ نور بالأمتعة. في منتصف الطريق بين القاهرة والسويس انضم إليه الغلام المكي محمد الذي لن يلقى رفضًا هذه المرة، وبالفعل لم يفارق بيرتون تقريبًا طوال مغامراته اللاحقة. في السويس انضم الاثنان إلى مجموعة أكبر من الأصدقاء. كان أهمهم الشيخ حامد بقميصه الطويل الأصفر البرتقالي، المتسخ جدًا، والمحزم بزنار من الجلد. لم يُصلِّ لعدم رغبته في إخراج ثياب نظيفة من صندوقه، وكان يدخن من تبغ غيره فقط.

سَبّب اكتشاف آلة السُّدس الفلكية نوبة من الإثارة في هذه الصحبة الغريبة. في خلوة مهيبة أعلن الغلام محمد عنه أنه كافر. لكن لم يؤخذ بهذا الأمر لعدم إمكانية إثباته، وأعيد إلى رشده ثانية، لكن أسف بشدة لاضطراره إلى ترك الآلة البغيضة خلفه.

بقيت تجربة مرة واحدة قبل الصعود إلى متن السفينة: أُعلن أن جواز سفره غير نظامي. هذه المرة انبرى القنصل البريطاني لإنقاذ الموقف، وخاطر وأعطاه على مسؤوليته جواز سفر جديدًا إلى الجزيرة العربية مؤكدًا أنه كان مواطنًا بريطانيًا.

في ٢٩ رمضان سنة ١٢٦٩هـ (٦ يوليو) ركب على متن سمبوك يدعى «السلك الذهبي». كان قاربًا مفتوحًا، حمولته خمسون طنًا دون توافر إمكانية ثني الشراع، ولا بوصلة ولا جهاز لقياس السرعة، ولا خط السبر، ولا جدول بياني. احتشد سبعة وتسعون حاجًا على متن الزورق في حين لم يكن يتسع لأكثر من ستين على مؤخر السفينة حيث أمّن بيرتون مكانًا له، تكوم ثمانية عشر شخصًا في بقعة مساحتها (١٠ × ٨) أقدام. استدعي صاحب السفينة فعرض أن يعيد النقود لمن يشاء أن ينزل من السفينة. فلم يفعل أحد، فأبحر متوكلًا على الله الذي سيجعل كل أمر سهلًا.

كان كثير من المغاربة من بين الحجاج على السفينة. ليس لديهم ما يغطي نفقاتهم، لاعتمادهم كليًا على الصدقات لإنجاز رحلتهم. نظَّم هؤلاء مجموعة انقضاض ضد مؤخر السفينة. لكن الجالسين فيها تسلحوا بهراوات غليظة كرسغ يد الرجل، كانت فعالة في وجه عصي النخيل والخناجر التي كانت مع المعتدين عليهم. فما كان من بيرتون الذي كالعادة رمى بنفسه في المقدمة حينما كانت الضربات تتطاير، إلا أنه قلب جرة ماء تزن نحو خمسين كيلو جرامًا على المهاجمين ووضع حدًا للشجار.

كانت الرحلة مملة إلى درجة لا توصف. تبعد السويس عن ينبع (٦٠٠) ميل في خط مباشر، أما الطريق الدائري الذي سلكه الزورق «السلك الذهبي» فقد جعل المسافة مضاعفة. استغرقت الرحلة اثني عشر يومًا؛ لأن الزورق حسب العرف عند العرب لا يسير ليلًا. كان الحر رهيبًا، إذ هبت الريح من الساحل الصحراوي للجزيرة العربية كلفحة فرن كلس: «تفرض أشعة الصباح عليك شعورًا بالغثيان. فتوهجها الثابت الذي تعكسه المياه المضيئة يعمي البصر، ويُقرح الجلد، ويُنَشف الفم، وهذا ما يجعلك مصابًا بالهوس الأحادي. لا تفعل شيئًا سوى قيامك بعدّ الساعات البطيئة التي يجب أن «تنقضي دقيقة تلو الأخرى» قبل أن ترتاح. لم يكن الرجال نائمين بقدر ما كانوا عديمي الحس، وكانوا يشعرون وكأن بضع درجات أخرى في الحر قد تعني الموت».

كان على متن المركب طفل تركي مسكين مريض، لحظ بيرتون الاهتمام بالأم. تناوب الرجال على رعايته. وإذا ما حصل أحدهم على حلوى كبضع تمرات أو رمانة أعطوا جزءًا منها إلى أبناء الأم الآخرين. مرت الأمسيات بشيء من المتعة. كان ينزوي المركب في خليج صغير، ويخرج الربان إلى الشاطئ ليزوروا نقاط الأعلام المجاورة، ويطبخوا وجباتهم، ويدخنوا، ويرووا الحكايات حول النار. أحيانًا كانوا ينامون على الرمال. استمتع بيرتون بهذه الحياة وكأنه واحد منهم.

قضوا إحدى الأمسيات في جوار مجموعة من الصيادين«لآكلي السمك» وهم قبيلة من العرب، نصف عراة، ولا يحملون سلاحًا إلا ملامحهم القاسية، كانوا يعيشون في كهوف من الحجارة الكلسية، ويقتاتون جميعًا السمك. في مناسبة أخرى كانت المجموعة كلها معكرة المزاج بسبب نقص الماء العذب. قام أحد العبيد بحركة بهلوانية حيث أخذ يمشي على يديه ورجليه، ولكن لسوء حظه اصطدمت رجله بوجه غلام نائم، فجفل العبد وانفجروا بالضحك فما كان من الرجل إلا أن قوقع نفسه كالكرة كما يفعل القنفذ وأخلد إلى النوم. وقد صحب نومه شخير شديد استمر طوال الليل.

أخيرًا اقترب المركب الواهن من ينبع، وهي «صف طويل من العمارات البيضاء، على حافة سهل أحرقته الشمس. كانت خلفها الأراضي المنبسطة السمراء الدكناء. أحس بيرتون بحياة جديدة، وهو يودع زورق «السلك الذهبي». كان بإمكانه تفادي المشقة باستئجار زورق خاص، لكن كانت الكلفة بين (٤٠ و٥٠) جنيهًا إسترلينيًا، ومن ثم كانت بقية رحلته ستسير على المنوال نفسه بالضرورة. كما تمنى أن يشهد بعض المشاهد على متن سفينة حجاج. وهو يقطع البحر إلى اليابسة عضه قنفد بحر سام، وهذا ما جعل من المستحيل عليه أن يسافر إلا على نقالة أو (شقدف). بدأ على الفور التفاوض من أجل الجمال. استأجر بيرتون جملين، أحدهما للشيخ نور والأمتعة، وثانيهما للغلام محمد ولنفسه. راجت عدة شائعات مثيرة للقلق: كانت القبائل «ترابط» بين ينبع والمدينة، وترتب على المسافرين أن يقاتلوا يوميًا. لكن لم يكن القتال مرعبًا لبيرتون، ولم يأبه كثيرًا بنظرات الشك من مجموعة من الرجال الذين شاركوا جماعته الغرفة في أثناء وجودهم في ينبع. لقد أظهر بسهولة منتهى اللامبالاة التي يمتاز بها المؤمن الحق.

قُضيت الليلة في ينبع في الغرفة العليا الشرِحة في خان يطل على البحر. إن معرفة عابرة بالسكان كانت كافية بكشف النقاب عن طبيعتهم المتشددة

والمشاكسة. كان بعضهم يروحون ويجيئون وهم مدججون بالسلاح. كان من بينهم بدو متجهمون «كصحرائهم اليباب، وبكل ما أُتوا من عزة نفس وبساطة».

عند ظهر اليوم التالي ١٨ يوليو (١٠ شوال) كانت الجمال جاهزة على بوابة الخان. تواصلت مهمة تحميل الجمال وسط صيحات أصحاب الجمال حول الوزن غير المعقول، واحتجاجات أصحاب الأمتعة بأن طفلًا يقدر على حمل هذا الوزن. نحو السابعة مساء أطلت قافلة مؤلفة من اثني عشر جملًا من الشوارع الباهتة، وانطلقت في الصحراء. تقدموا في رتل هندي حيث ربط رأس الجمل بذيل الجمل الذي أمامه على ضوء القمر وهو بدر التمام. هذا وقد سهل ركوب بيرتون في نقالة من مهمته في تدوين كل ما رآه.

ألحقت هذه القافلة نفسها بقافلة حبوب قوامها مئتان من البهائم، وواصلت طريقها معها على هذا المنوال. «جف كل شيء من الشمس، كان القيظ ينشف سائل الأرض وعصارتها». اقتصر المسير على الليل فحسب. أما النهار فمضى بالنوم أو في شبه خمول. لقد أعطت السهول الرملية الفسيحة مجالًا لبادية «رائعة في وحشتها». تعثر الطريق بكتل الغرانيت المنهارة، وكانت الأرض مملوءة بالشقوق كآثار الجروح، تتوسع داخل الكهوف المملوءة بالرمل المنجرف. كانت السماء فوقهم كصحيفة فولاذ أزرق مصقول. لا أثر لحياة لا في العراء ولا في الهواء حتى إن حشيش الجمال لم يجد التراب الكافي لنمو جذوره.

عند الحمراء في منتصف الطريق انضموا إلى قافلة مكة التي كانت تحميها فرقة الخيالة. عند السحر في ١٦ شوال (٢٤ يوليو) وصلوا إلى ممر ضيق خطير يدعى «ممر الحج». حل صمت مطبق بالجميع، وفي اللحظة التالية ظهرت تعرجات زرقاء من الدخان من بين الصخور وسُمعت طقطقات بنادق الفتيل. ظهر عدد من البدو «يندفعون كالدبابير على قمم التلال وهم يحملون أسلحة ضخمة ويتسلقون كما لو كانوا قططًا». كان كل ما بوسعنا فعله إطلاق

النار عشوائيًا لإحداث سحابة من الدخان. بلغت خسائر القافلة اثني عشر رجلًا وبعض الجمال.

بما أن المدينة المنورة تقع على هضبة، كان الطريق كله إليها من ينبع في صعود مستمر. في ١٧ شوال (٢٥ يوليو)، وبعد أن عبروا طريقًا عبر الصخور البركانية الدكناء تكحلت أعينهم برؤية المدينة المنورة مكافأة لهم. انعطف طريق متعرج عبر السهل إلى أسوارها البيضاء. ظهرت في الحي الشرقي المنائر الأربع الشاهقة، والقبة الخضراء المتلألئة التي يرقد تحتها رفات الرسول ﷺ.

لقي بيرتون رعاية كريمة من الشيخ حامد في المدينة المنورة. أول واجب يقوم به الغريب إسباغ الغسل وزيارة المسجد (النبوي). تأثر سلبًا بمظهره المبهرج. «إنه ليس كالحرم المكي، الكبير والبسيط، والمعبر عن فكرة سامية واحدة، كلما أطلت النظر إليه أوحى إلي بأنه مكان مملوء بالزخارف، ومزدان بروعة مبهرجة»[١]، زار مع الشيخ أحمد كل زاوية من زوايا المسجد وهو يكرر الصلوات في أماكن محددة. جاب الروضة الشهيرة جيئة وذهابًا ورأى أن الشمعدانات المصنوعة من كريستال مقصوص كانت من عمل دار لندنية. وقد رأى كل ما يمكن رؤيته من قبر الرسول ﷺ، أي الستارة التي قيل إنها تغطي مبنى مربعًا من الحجارة السوداء. وقارن بينها وبين سرير ضخم ذي أربعة أعمدة وبين قضبان القبر من شبكية من النحاس اللماع الأخضر. تليت الأدعية عند قبور النبي ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والسيدة فاطمة الزهراء[٢]. وهذه عينة من هذه الأدعية الموجهة إلى الخليفة الأول: «السلام عليك يا أبا بكر، أيها الصديق، السلام عليك يا خليفة رسول الله على أمته، السلام عليك يا

(١) كان المسجد النبوي يحوي كثيرًا من الزخارف والتعاليق والتحف الفنية وغير ذلك مما كان يُهدى من العامة والملوك والرؤساء.

(٢) كان بيت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها خلف القبور الثلاثة في السابق. أما قبرها فهو بالبقيع.

صاحب الغار ورفيق السفر: السلام عليك يا علم المحرومين والمساكين. أشهد أنك ثبتّ على الحق، وكنت قاهرًا للكافرين ومحسنًا لأمتك، غفر الله لك. نسأل الله تعالى أن يكتب لنا ميتة في صحبتك، وأن يحشرنا في زمرة رسوله وزمرتك، وهو (سبحانه) الذي أسبغ علينا هذه الزيارة».

عند مغادرة الحجرة الشريفة دعا بيرتون وجماعته دعاء آخر، وحرصوا على ألا تكون ظهورهم بالتوازي مع وجه الرسول الكريم. بما أنهم خرجوا من المسجد مقدمين الرجل اليمنى، في حين قدموا الرجل اليسرى عند دخوله[1]. كان هناك السرب المعتاد من المتسولين المُلحِّين. لكنَّ الغلام محمدًا انبرى في قمعهم. فقد أظهر «تقشفًا محمومًا» وهذا قد يجعل بيرتون ينفق أكثر في مكة عندما لا يكون معه.



الطريق الرئيسية في المدينة، والمؤدية إلى المسجد (من صورة لجيرفيه كورتيلمون من «مجلة المصور» الفرنسية، ٣ أوكتوبر، ١٩٠٨م)

---

(١) العكس صحيح، السنة أن تقدم اليمنى في الدخول وتقدم اليسرى بالخروج.

تغير تأسيس المسجد بشكل ملحوظ عما كان عليه أيام بوركهارت. بلغ عدد الحراس (الأغوات) الآن (١٢٠)، وقُسِّموا إلى ثلاث فئات: الحمالين، والمنظفين وحملة الشمسيات الذين غالبًا ما يستخدمون العصا. أضف إلى ذلك أربعة خدم أحرار لمسح الغبار عن المصابيح وتعديلها والاهتمام بها «يعملون كل شيء بكل جد وكد». وكان هناك السقاؤون ليكملوا قائمة الخدم. كما كان هناك أيضًا هيئة العلماء التي تتألف من القاضي والمفتين والأئمة، وغيرهم. أما مكتب المطوف (أو المزور) فكان يتولى العمل به بكل سرور كل مواطن لا عمل له تقريبًا.

حينما زار بوركهارت المدينة المنورة كانت هناك حالة حرب فتناقص عدد السكان ودمرت منازل كثيرة. أما بالنسبة إلى بيرتون فقد بدت مدينة مريحة ومزدهرة. يصف شوارعها بالعميقة والمعتمة والضيقة، مبنية بناء جيدًا من حجارة الحمم البركانية والقرميد المحروق وخشب النخيل. وكانت الشرفات المشبكة سمة عامة في المدينة. وفصل طريق عريض الضاحية الجنوبية عن المدينة. كما فصل فضاء مفتوح ضخم الضاحية الغربية عنها. وكانت كلتا الضاحيتين مسورة جزئيًا بسور طيني واطئ. وبصفتهما مبنيتين على طراز عشوائي فقد غطتا رقعة أكبر من مساحة المدينة المنورة، وتكونتا في معظمهما من ساحات وشقق من دور واحد، بحدائق ومزروعات وأشجار في ما بينها.

كان عدد السكان (١٦) ألف نسمة. ادعت أربع أسر أنها من سلالة النبي ﷺ. «أما الباقي فكانوا أفخاذًا من أمة من أمم الإسلام الأخرى». ومع ذلك اكتسب هذا الخليط من السكان ملامح وسيماء عربية. كانت سلوكياتهم وقورة ومتسمة بالأبهة، والتزامهم بقواعد الآداب الظاهرية مشوبة بالمراءاة. كانوا يحتقرون العمل اليدوي. ولم يكن يوجد سوى عدد قليل من أصحاب الدكاكين، بينما كان الرقيق السود يقومون بواجبات الخدم المحليين. وكانت الطبقات العليا تدير شؤون أملاكها، أو كانت تقوم بشؤون المسجد النبوي. أما

الطبقات الوسطى فكانت تتاجر بالذرة والقمح والمؤن. وكانت السلع الكمالية بما فيها الثوب الرائع الذي يفضله أهل المدينة تُجلَب سنويًا مع القافلة السورية. ومع ذلك اكتشف بيرتون في سكان المدينة المنورة رجولة لا يمتاز بها أي شعب شرقي آخر. وبقي فيهم من الخصال العربية الحميدة الفخر والشراسة والشرف وحب الانتقام.

مكث بيرتون خمسة أسابيع بالمدينة. وقلما فوَّت يومًا لم يزر فيه المسجد. كان يقضي العصر وحده بحجة القيلولة. كان وهو مستلقٍ على سجادة في ممر مظلم ينقل إلى دفتره المعرفة التي انتزعها بشق النفس. وقضى الأمسيات في مقهى، أو في الشارع خارج باب حامد حيث كانا يجلسان على فرش، ويستقبلان الزوار، ويرويان القصص، ويمرحان.

في أواخر أغسطس وصلت قافلة دمشق ونصبت خيامها في فضاء مفتوح بين أسوار المدينة والضاحية الغربية. رأى بيرتون من نافذته مدينة الخيام التي نُصبت. اكتسى السهل حلة من الألوان المتنوعة الأشكال وانبهرت العين بتغير التفصيلات التي لا حصر لها ولا عد. كان عليه أن يسافر مع القافلة على الدرب الشرقي عبر صحراء نجد، حيث لم يُر أثر للماء قبل مضي ثلاثة أيام. إنه أكثر الطرق الموغلة في الشرق من بين الطرق الأربع بين مكة والمدينة، ويعود الفضل في شهرته إلى الخليفة هارون الرشيد والسيدة زبيدة. بدا حامد الذي زود بيرتون بهذه النبذة مذعورًا. لكن لم يكن أي نذير بالخطر ليقض مضجع بيرتون. على العكس من ذلك كانت تغمره الفرحة لأنه لم يسافر أوربي على هذا الطريق من قبل.

بدأ بيرتون والغلام محمد بسرعة بترقيع الجِوَدة (قِرَب الماء) التي أتلفها الجرذان، أجهد الشيخ حامد نفسه لاستكراء قادة جمال مخلصين لرحلة «كانت فيها السرقات كثيرة والطعنات نادرة». فعاد ببدوي بلغ الرأس منه شيبًا وولده

مقابل عشرين دولارًا وافقا على نقل بيرتون وخادمه، والغلام محمد إلى مكة، ثم إلى عرفات للحج. لكن رفض الرجل المسن رفضًا قاطعًا أن يأخذ صندوق بيرتون الخشبي، فتركه في المدينة. أما السلة الكبيرة (السبَت) فقد تحطمت من قبل في الرحلة البحرية. حذر حامد ضيوفه الراحلين بألا يدعوا أبدًا أربعًا وعشرين ساعة تمر دون أن يغمسوا أيديهم في الطبق نفسه الذي يأكل منه سائقو الجمال، وبذلك «يأكلون معهم خبزًا وملحًا» وحينما حان موعد سداد الفواتير تخلى بيرتون عن الجنيهات الخمسة التي استقرضها حامد منه في السويس عرفانًا له بمعاملته المضيافة.

عند الساعة ٩ صباحًا يوم ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٢٦٩هـ (٣١ أغسطس). بدأ الموكب العظيم وقوامه (٧٠٠٠) بالتحرك عبر السهل باتجاه الخط الرفيع للتلال الدكناء الواطئة التي تطوق المدينة المنورة من جهة الشرق. كان الحجاج متدرجين عدة تدرجات. «فأدناهم كان يعرج بعكاز؛ فالراكبون على حمير وجمال وبغال؛ ثم المتربعون على جمال عربية رشيقة وهم يجرون خيولًا؛ ثم الراكبون على نقالات (أو محفات)؛ فالشقدف الذي ركب فيه بيرتون؛ ثم التختروان للأثرياء والنبلاء». لم يكن المشهد أقل جمالًا من روعة تنوع تفصيلاته: لم يكن رجل واحد يلبس ثيابًا كجاره، ولا جمل واحد بغطاء مزركش مبهرج، ولا جواد واحد ببزة إذا جاز التعبير. ولا شيء أغرب من المفارقات. مجموعة من الأتراك نصف عراة يسيرون مع عربة الباشا بتجهيزاتها، وفرس ملتحون بقبعات متطاولة، يتبادلون أطراف الحديث مع الترك الحليقين، وأصحاب الطرابيش». حمل هؤلاء الحجاج التكروريون أواني خشبية وملؤوها بالماء من التسول. وعرج كثيرون إما من الإعياء وإما من التسول. وارتسمت معالم الموت على أشكالهم وملامحهم.

ألقى بيرتون نظرة وداع من وراء ظهره على المنارات والقبة الخضراء المهيبة للمدينة المنورة مهنئًا نفسه على زوال الخطر. كان المظهر العام للبراري

التي سافروا عبرها هذه المرة بركانيًا إذ تراكمت صخور الحمم البركانية، وتكونت الممرات الحجرية وأشجار الأكاسيا الشوكية[١]، ومماشي الحمم البركانية. وفي أحد هذه المماشي الوعرة ذات المنعطفات الحادة بين تلال جرداء شديدة الانحدار بدأت البهائم تنوء بأحمالها. كانت الفطائس متناثرة على جانبي الطريق، وكانت طعامًا للنسور أو للحجاج التكروريين. استغرقت مسافة (٢٥) ميلًا عربيًا تقريبًا مسيرة يوم كامل. نسي بيرتون مشاقه من خلال المفعول المهدئ للغليون الذي كان يقدَّم ويدخَّن عند كل توقف. حتى إن الغليون فُضِّل على فنجان القهوة. عند الساعة الثالثة في الصباح الباكر أُطلقت طلقة الرحيل المقيت، وتواصل المسير لعدة ساعات قبل أن تتفجر الشمس القرمزية الضخمة من خلال السديم الأرجواني فوق المشهد المضطرب. وقعت حوادث صغيرة في الممرات المظلمة. إذ سقطت جمال، وارتطمت ناقلات بعضها ببعض. وفي بعض الأماكن انفصلت نقالات بمن فيها من الحجاج وهم يصطرخون عن ظهور الجمال متعثرة بصخور الحمم البركانية فأدى إلى كسرها على الأرض. في الصباح الباكر عبق السهل بالبخار من ريح السموم، لكن خيّم وهج أبيض في أثناء النهار. لم ير بيرتون قط وحشة وقفرًا كهذا الذي في الجزيرة العربية. فوق سلسلة متعاقبة من الأراضي المنبسطة الصخرية أو سهول من الحصى والغضار تحيط بها التلال تقدمت القافلة. قُسمت السهول بالممرات المحاطة بأسوار حديدية من البازلت الأسود، نزلت الجمال الارتفاعات الطويلة الضيقة، متنقلة من كتلة إلى كتلة كما يفعل متسلقو الجبال، لكنها أنّتْ أنينًا يقطع القلب عند المنعطفات المفاجئة والفجوات المفتوحة بين الصخور. كما كان هناك زوابع من الرمال يدعوها العرب «جن الصحراء». وحدث أن جملًا انقلب بها مرة.

تدبر بيرتون أمر نسخ ملحوظاته في غياب الشيخ مسعود وسائق جمله والغلام محمد. فقد كان يرسلهم في أماكن التوقف للبحث عن الماء. إذ غالبًا

---

(١) شجر السلم الشوكي.

ما كانت الآبار على مسافة عدة أميال، يحرسها الجنود. كانوا يتقاضون ثمنًا باهظًا مقابل هذا السائل الثمين.

أما تفصيلات مشهد الجزء الثاني من الرحلة فقد أصبح أشد ضراوة ووحشية. لقد كانت صحراء مأهولة بالأصداء لا غير، وساحة للموت. وفتلت أعمدة الرمال كالإعصار فوق السهل، ووقفت أكوام منعزلة ضخمة من الصخور على الجانبين على سطح من الرمل والغضار. «تقشرت الصخور وانسلخت، وكشفت عن هيكلها المستور لأعين الناظرين». عند حلول الليل زلت الجمال وتعثرت فاهتزت النقالات «كمراكب تجديف في بحر ضيق». في أسفل المرتفعات المنحدرة أمسك السائقون بخطام البهائم، وحثوها على المسير بصيحات وإيماءات غريبة. فتحركت الأشكال المريبة والضخمة للجمال التي تبدو كالأشباح على سهل بازلتي أسود. أضاءت الشرارات أو الدخان الناري المتصاعد من المشاعل من جراء هبات عاصفة من الريح الساخنة، أضاءت بالأشعة الحمراء الحشد المعتم.

لكن حدث المشهد الأهم في المضيق على مسيرة يومين من مكة. دخله الحجاج المحرمون في حدود الخامسة مساء. تطوقه كتلة صخرية (جبل) بارزة وشديدة الانحدار وموحشة وجرداء إلى درجة أنه على رغم أن النهار ما زال يضحك على القمم فإن المنحدرات الأوطأ والمعبر المتعثر الضيق كانت في الظلمة. فجأة دوَّت طلقة تدحرج جمل رشيق فعم الذعر. حاول الجميع حث بهائمهم على الفور لعبور الممر بسرعة، وأصبحت القافلة بكاملها مرتصة في كتلة صلبة. وعند كل تقرير تلا ذلك كانت الأجساد ترتعد خوفًا. وإذ جماعة من السعوديين يفرقون اللصوص بإطلاق النار في الهواء فوق رؤوسهم، ثم اندفعوا بأعداد كبيرة نحو أعالي التلال، وهذا ما أثار إعجاب بيرتون الذي طلب عشاءه وسط دهشة المشاهدين قائلًا: إن الرجال في بلده دائمًا يتناولون عشاءهم قبل هجوم قطاع الطرق عليهم؛ لأنهم سيجعلونهم ينامون دون عشاء.

لكن تصاعدت وحشية المشهد. تشاهقت الجروف الوعرة حتى تشابكت مع ظلمات الليل. أسرع الجمع الخطى على طول الشق وهم يصرخون ويطلقون بنادق الفتيل. ومن فوقهم خيمت سحابة كثيفة من الدخان في وسط الطريق فوق الصخور الشاهقة. أما في الوادي فقد أُطلقت ومضات حمراء مزرقة في الهواء أو خبت. وكانت الجمال المنبهرة والمعمية تتعثر فوق الصخور التي أعاقت الطريق، أو تنزلق في رقائق من الطين. تقاتل الحجاج والسائقون وتوعدوا بعضهم بغضب شديد. كانت الفرقة كلها «متوحدة في التنافر».

كان أشد المشاهد جهنمية التجربة المريرة الأخيرة للرحلة المرعبة. مر اليوم التالي هادئًا نسبيًا. وقبيل الغروب لاحت عن بعد إلى الجهة اليسرى القمم الزرقاء لجبال الطائف. في صباح اليوم التالي، ٧ من ذي الحجة سنة ١٢٦٩هـ (١١ سبتمبر) في نحو الساعة الواحدة صباحًا، وإثر تعالي الصيحات والعويل، أطل بيرتون من نقالته فرأى «بمعية ضوء النجوم الجنوبية مخططًا باهتًا لمدينة ضخمة، ظلًا أعتم من السهل المحيط بها»، هذه المدينة هي مكة المكرمة. أمضوا اثني عشر يومًا في هذا المسير المميت. أقلع الغلام محمد عن أسلوبه المرح وأصبح مضيفًا وقورًا ومصغيًا. بعد استراحة ساعة أو ساعتين في بيته زار بيرتون المسجد (الحرام). يكتب في وصف الكعبة قائلًا: «هناك أخيرًا تقبع، غاية حجي الطويل والمرهق، وتحقق خططي وأمانيّ لسنوات وسنوات. لا وجود لآثار عملاقة غارقة في القِدم كما في مصر، أو بقايا لجمال متسم بالبهاء والتناغم كما في اليونان وإيطاليا، أو الجمال الهمجي الفتان كما في عمارات الهند. ومع ذلك كان المنظر غريبًا وفريدًا، يمكن القول بكل صدق إن من بين العُبّاد الذين تمسكوا بقوة بأهداب كسوة الكعبة، أو أولئك الذين ألصقوا قلوبهم النابضة بالحجر (الأسود)، لم يشعر أحد منهم تلك اللحظة بتأثر أعمق مما شعر به الحاج القادم من الشمال الأقصى (يعني بيرتون). بدا وكأن الأساطير الشعرية للعرب كانت تنطق بالحق، والأجنحة المرفرفة للملائكة،

وليس نسيم الصباح العليل، كانت تؤجج الكسوة السوداء للكعبة وتنفخها لتعترف بالحقيقة المتواضعة وهي أن شعورهم كان الشعور السامي بالحماسة الدينية، أما شعوري أنا فكان شعورًا بنشوة الفخر الباعث على الرضا».

أدى بيرتون الطواف برفقة الغلام محمد. كانت الأشواط الثلاثة الأُوَل هرولة، أما الأربعة الأخرى فكانت مشيًا بطيئًا. كان الناس يدعون عند نقاط متعددة، منها أركان الكعبة الأربعة، وفي المسافة بين الحجر الأسود وباب الكعبة (الملتزم)، ومقابل الميزاب، وعند أماكن أخرى كثيرة. وكان الحجاج يتناولون ماء زمزم بكميات كبيرة في الدخول والخروج. كتب بيرتون يقول: «طعمه مُرٌّ مالح، أشبه ما يكون بملعقة صغيرة من ملح الإنجليز في كوب ضخم من الماء الفاتر». كما وجده «ثقيلًا على الهضم». كان هناك صعوبة في تقبيل الحجر الأسود نظرًا للحشد الذي يطوقه. أخيرًا، قام الغلام محمد مع ثلة من أصدقائه بفسح الطريق لبيرتون الذي احتكر الحجر لمدة عشر دقائق حسب قوله: «بينما كنت أُقبِّله وأفرك يديَّ وجبهتي عليه لم أدقق الملاحظة به تقريبًا، وابتعدت عنه وأنا مقتنع بأنه حجر نيزكي».

عند المساء قام بزيارة ثانية للمسجد (الحرام). كان القمر بدرًا تقريبًا رسم خطوطًا من الكهرمان الفضي على الكعبة. لقد انتصبت شامخة في استرخاء أجرأ مما كانت عليه في النهار. اختفت «العمارات والقبب الشبيهة بمعبد باغودا البوذي» من حولها، وتبدو الكعبة في عزلتها مجسدة لعظمة التوحيد التي قام عليها الإسلام برمته.

كانت جموع من الناس تطوف بالبيت: فمن المرأة البدوية «بثوبها الأسود الطويل كبذلة الراهبات، وغطاء وجه شديد الحمرة مشقوق ليكشف عن مقلتين لماعتين حادتين»؛ إلى التركي الأشقر «الذي يبدو باردًا وبغيضًا». فتارة جثة على نعشها الخشبي محمولة عبر الساحة، وتارة حاج مسكين يظهر

متعلقًا بأستار الكعبة وهو يبكي بكاء مرًا. أو زنجي إفريقي اعترته نوبة دينية، مطلقًا صيحات حادة يلقي بيديه من حوله، وهازًا رأسه وجسده. إما أن جماعة هؤلاء الرجال ذوو حس مرهف، وإما أن خيالاتهم قد أحيلت للتقاعد[1] من جراء «المشاق والحرمان والإعياء وهم يقطعون مرهقين البراري القفراء النفراء والبحار المحفوفة بالأخطار» ليصلوا إلى هذا المكان.

شاهد بيرتون من ساحة المسجد جزءًا من المدينة المترامي على إحدى التلال القفراء. قارنها ذهنيًا بمدينة باث الإنجليزية أو بفلورنسا. في ضوء القمر المنير غدت منارات الحرم أعمدة من فضة. الأروقة «المخططة بشكل باهت بمصابيح الزيت» هي وحدها التي ألقت بظلال من الخطوط الأفقية، وهذا ما أضفى إطارًا معتمًا على مشهد مفعم بالحياة». من نحو الساعة الثانية صباحًا توجه بيرتون ومطوفه إلى البيت عبر الشوارع حيث كان الناس نائمين على أَسِرّة أمام أبوابهم المفتوحة.

في اليوم التالي، ٨ من ذي الحجة (١٢ سبتمبر) رأى النزوح الجماعي إلى عرفات. كان الطريق مغطى بالحجاج بحلة قشيبة من البياض، مشيًا على الأقدام أو ركوبًا على البهائم. كان مسيرًا بطيئًا لمدة ست ساعات تقريبًا. ماتت بهائم كثيرة وخمسة رجال على أقل تقدير. والموت السهل ربما يعزى إلى شدة الحرارة على الرغم من أن أسباب الوفاة غير معروفة. عند الوصول إلى عرفات وجد مخيمات ضخمة على السهل الأصفر الأجرد. تحول الشارع الرئيس لهذه المدينة من الخيام إلى سوق مفتوح (بازار). في زحمة الفوضى والضجيج والصياح بحثًا عن أفراد مفقودين من الحملات، نشط اللصوص نشاطًا محمومًا. قام الشيخ مسعود سائق الجمل بتفحص دقيق للحشد الخليط من كل الأجناس والألوان من الحجاج والبالغ (٥٠,٠٠٠) باستغراب بادٍ للعيان.

---

(١) لا شك أنه الحس المرهف الذي يشعر به المرء في ذلك المكان المهيب، وهذا إحساس لا يشعر به إلا من تجردوا لهذا النسك من العبادة.

استيقظ بيرتون في صباح اليوم التالي على صوت المدفع، وتقدم لاستكشاف جبل عرفات الصغير[١]: «كتلة من الغرانيت الخشن منشطرة إلى كتل ضخمة، بطبقة رقيقة من الشوك الذابل». صعد الدرج الذي شُق على جانبيه، وكان يضيق به كلما تقدم نحو المصطبة الجصية والمسلة في قمة الجبل. ثم نزل إلى السهل، وعند الثالثة والربع عصرًا راقب موكب الشريف البطيء والمهيب. أخذ صاحب المقام الرفيع مكانه في موقع عالٍ على الجبل على مقربة من الخطيب. وكان خلفه ركب المحمل الشامي والمصري المزخرفة جدًا. ووراءهم كان البحر العظيم من الحجاج، وقد غطوا أطراف الجبل وسفحه، وفاضوا في شكل دوائر دائمة الاتساع فوق السهل.

شأنه شأن كثير من الحجاج، لم يسمع بيرتون شيئًا من الخطبة. وعند الغروب تفرق الجمع العظيم. «حث كل حاج دابته على المسير بكل ما أوتي من قوة. عج السهل بأوتاد الخيام وسحقت الشقادف تحت الأقدام، وتعثر المشاة، وتشقلبت الجمال، واندلعت الشجارات بالعصي والأسلحة الأخرى. فها هنا امرأة، وهناك طفل، وهناك بعدُ حيوان، كلهم تاهوا. في الطريق الضيق «تصادم رتلان مضاعفان من الجمال المكتظة بالشقادف[٢] فأصدرا قوة صدمة أكثر ضجيجاً من تقابل تيارات مضطربة». وزاد في الطنبور نغمًا هدير البنادق وانفجار أصواتها.

قُضي الليل في مزدلفة، لكن استُبدلت العادة الورعة بالسهر في مسجدها (المشعر الحرام) بضرورة حراسة الأمتعة. على أية حال تم جمع سبع حصيات غرانيتية لرمي جمرة العقبة، ولُفت بالإحرام. في اليوم التالي، في منى حاول بيرتون للمرة الأولى رجم الجمرة. كان الجمع عظيمًا إلى درجة أن حماره قلب به ليجد نفسه تحت جمل عربي هادر ساحق،

(١) يقصد به جبل الرحمة الواقع وسط سهل عرفات.
(٢) مفردها شقدف، وهو صندوق خشبي يوضع على الجمال حيث تجلس فيه النساء.

«وباستخدام حكيم للسكين» تمكن من النجاة هو ومرافقه الغلام محمد الذي كان أنفه ينزف دمًا، ولم يدس عليهما الجمل، وانتظر فرصة أفضل مع الغلام محمد. أتت هذه الفرصة بعد قليل، ورمى الجمرة، وكان من المشروع بعدها حلق الرأس وفك الإحرام.

عند إكمال هذه الشعيرة عاد بيرتون إلى مكة. وكان موفقًا في اختيار وقته المناسب: كانت الكعبة مفتوحة. أخبره بذلك الغلام محمد في حالة من الإثارة التي تحبس الأنفاس. غُطيت الكعبة بكسوتها الجديدة، وحينما اقترب بيرتون منها انطلق صوت: «افسح الطريق للحاج الذي سيدخل البيت». لم يُسمع صوت للخطوات التي كانت تتحرك على زحافات، لكن رفعه مكيان بين أذرعهما، وسحبه ثالث من الأعلى. وقف عدة موظفين سود (أغوات الحرم) حول الباب، فسأل رئيسهم بيرتون عن اسمه وجنسيته. عندئذ سمح له بالدخول. يعترف بأنه حينما نظر إلى الجدران الخالية من النوافذ، وإلى الموظفين عند الباب، وإلى الحشد من الطائفيين حوله، وإلى المكان الذي يعد مكان موته لو عُرف من هو، كان شعوره شعور الجرذ الذي وقع في الفخ. مهما يكن من أمر فإنه راقب المشهد بدقة، وذكرت من قبل كيف سجل انطباعاته. كانت كلفة هذه الزيارة ثمانية دولارات قبلها الموظفون وهم يتذمرون ويتأففون نتيجة عدم حسن تصرف الغلام محمد الذي جعلهم يتوقعون المزيد.

على الرغم من عودة بيرتون إلى منى، لم يقدر على شراء شاة للفدية. لذا تفرج على جيرانه وهم يقومون بهذا العمل الديني. تم ذبح من (٥ – ٦) آلاف حيوان، وبما أنه كان يُفَضل أن توهب الذبيحة دون أكل من لحمها، التهمها الحجاج الفقراء بشكل رئيس. تلبدت السماء بالحدأة والعقبان وحطت أسراب من الذباب على الفطائس، وانبعثت روائح كريهة من الأرض الملطخة بالدم، وكان الحر شديدًا. قُضي يومان آخران في منى لإكمال رمي الجمرات. بعدها عاد بيرتون إلى مكة للمرة الأخيرة.

كان مشهد مؤثر في انتظاره. إذ كانت خطبة على وشك أن تلقى في ساحة الحرم. «كان صحن المسجد مزدحمًا بالمصلين الجالسين في صفوف طويلة، وكلهم متوجهون إلى الكعبة المشرفة. وفاقت ألوان ملابسهم المبهرجة ألوان أجمل زهور الحدائق وأزهاها. وما كان لهذا التنوع الشديد من الألوان والتفصيلات مجتمعة أن توجد في أي مبنى آخر على وجه الأرض». ألقى الخطبة رجل مسن جليل بلحية بيضاء كالثلج. أطل على الناس من على منبر مدبب طويل بقمة مخروطية مذهبة تلتهب تحت أشعة الشمس. أُنصت إلى كلماته بانتباه شديد، وعند نهاية الجمل الطويلة ردد الحجاج «آمين». كانت أكثر مناسبة دينية مهابة شهدها بيرتون في حياته.

بقيت العمرة، أو الحج الصغير والسعي بين جبلي الصفا والمروة. أُديت هاتان الشعيرتان دون حوداث تذكر. دعيت الأدعية المطلوبة بكل ورع، وأعطيت القروش اللازمة لحراس الأماكن المقدسة وإلى المتسولين.

أُمضيت الأيام المتبقية في مكة في تواصل مع الأصدقاء، وزيارات للمسجد (الحرام) وتدوين ملحوظات. كان المنزل الذي سكن فيه بيرتون ملك أم الغلام محمد وخاله. كان خاله «مكيًا عجوزًا لينًا، من طراز قديم أصيل، بوجه بملامح النسر وأظافر كمخالب الحدأة، وضحكة كضحكة الضبع، وجسم كهيكل عظمي لا أكثر. وقد أجر كل زاوية في المنزل. وقبل مغادرته إلى عرفات عانى بيرتون من ازدحام المستأجرين. ولكن في إثر عودته أقنع مضيفته التي كسب ودها بإطرائه ولدها السمح، ولد العائلة المدلل بأن تفرغ له غرفة مؤونة صغيرة في الطابق الأول، حيث كان يختلي بنفسه بين الساعةالعاشرة والرابعة. حتى في تلك المدة لم يستطع نسخ ملحوظاته دون إبقاء عينه على الباب. كان الحر لا يطاق في أثناء النهار.

منعت التلال التي كانت تطوّق المدينة الريح من اجتياحها. كانت

منازلها القوية والمتينة والخالية من وسائل تبريد أشبه بالأفران. وكان التراخي والضجر النتيجة الحتمية لهذه الظروف. كان أعلى المنزل السطح مكان النوم الجماعي.

تختلف الملحوظات القليلة التي يبديها بيرتون عن أهل مكة بعض الشيء عن ملحوظات بوركهارت. كان من أسوأ أخطائهم التكبر، والتعصب الأعمى، وقلة التدين وجشع الكسب، وسوء الأخلاق، والتفاخر[(١)]. ويعدل الكفة خصالهم الطيبة المتمثلة بالشجاعة، وحسن الأدب والسلوك، وأواصر عائلية قوية، والذكاء. يعدون أنفسهم سلالة مقدسة، وينظرون باحتقار لأهل البلاد والمدن الأخرى. كان الإسراف النتيجة الطبيعية للحج. فقد كان الأثاث، ووسائل الترفيه، والمناسبات والاحتفالات في أعلى درجات البذخ. وقد أثقلت «الولائم» التي أقامتها النساء كاهل أزواجهن بفاتورة باهظة مع نهاية السنة. كان أهل مكة «أكثر تحضرًا وأكثر شرًا» من أهل المدينة حسب رأي بيرتون. ومع ذلك، كان حكمه على الأخلاقيات إيجابيًا وأن لا شيء يذكر يخدش الحياء في مكة، على خلاف رأي بوركهارت وروشيه والآخرين. وقد عزا اللون الأدكن للمكيين إلى عدد السريات الحبشيات. كانت إحدى زياراته الأخيرة لسوق النخاسة، وهو شارع ضخم مسقوف بنسيج محبوك، ومملوء بالمقاهي. جلس الرقيق في صفوف، يرتدون ملاءات قطنية رقيقة وخمارات شفافة. كانوا إريتريين وإثيوبيين وصوماليين وسواحليين وما شابه. وكان أعلى سعر سمعه (٦٠) جنيهًا إسترلينيًا.

الآن وبعد انتهاء الحج بدا على الحجاج الحنين إلى الوطن: «وجوه متعبة»، «وآهات متواصلة». بدأت الاستعدادات للرحيل. اصطفت في أطراف المنزل سلال من أواني الصفيح بها ماء زمزم وهدايا للأقارب البعيدين، فيما

(١) رأي بيرتون هذا ربما نتج عن تعامله مع بعضهم وأصدر هذا الحكم العام وهذا غير دقيق.

عدا أداء المناسك لا ينحصر موسم الحج بشيء آخر سوى أن الحجاج يعتقدون أنه غفرت لهم ذنوبهم.

ليس هناك ما يستحق الذكر في رحلة بيرتون إلى جدة. في ٢٢ من ذي الحجة سنة ١٢٦٩هـ (٢٦ سبتمبر) «منهكًا من الإعياء والحر الشديد القاتل» ركب السفينة إلى السويس. رافقه الغلام محمد إلى جدة. وهناك «وبعد أن استودع مخزونًا ضخمًا من القمح اشتراه بنقودي، وأمَّن على كل أدواتي الجاهزة للاستعمال، ولمَّح بعد عودتي من الهند أن عشرين دولارًا ستكون في انتظاره في مكة طلب المغادرة، وفارقني ببرودة لم أستطع فهمها». شرح لي الغموض الشيخ نور الذي أصبح الآن الحاج نور. على متن السفينة في ميناء جدة ساور الغلام محمد الشك في بيرتون وقال لزميله الخادم: «الآن فهمت، سيدك صاحب من الهند، لقد ضحك على ذقوننا»[1].

ملحوظة: أتحفظ على ملحوظة تخص القصة المكررة باستمرار عن عربي كشف أمر بيرتون على الطريق بين المدينة ومكة، ولكن لحسن حظه وُجد هذا الرجل مطعونًا حتى الموت في صباح اليوم التالي. لم تنته القصة بعد إذ على فطور عرس بيرتون وجه له دكتور السؤال الآتي: «كيف تحس بعد قتل إنسان؟ فأجاب بقوله: «أحس أنني مسرور جدًا»؛ وكيف تحس أنت؟».

(١) ملامح بيرتون ولباسه كان يوحيان بأنه هندي الأصل نظرًا لمكوثه مدة طويلة بالهند ومعرفته بعدد من لغاتها والكثير من طبائع سكانها.

إينريك فريهير فون مالتزان (Henrich Freiherr Von Maltzan) (١٨٦٠م)
(سيدي عبدالرحمن بن محمد السكيكدي)

حينما عاد بيرتون وهو لا يزال في تنكره بصفته عربيًا من حجه سنة ١٢٦٩هـ (عام ١٨٥٣م) قابل شابًا ألمانيًا وتحدث معه في فندق شيبَرْدْ في القاهرة. لقد كان فون مالتزان. وجدت بذرة رحلة مشابهة في ذهن مالتزان، لكن الذي حركها حديث بيرتون. بيد أن الأمر تطلب منه سبع سنوات من السفر في بلاد الشرق لكي يتعرف إلى العادات الإسلامية، وأتقن اللهجة المغربية. وسافر إلى مكة في شخصية مغربي.

ولد فون مالتزان قرب دريسدن[١] (Dresden) سنة ١٢٤٢هـ (عام ١٨٢٦م). درس القانون في جامعة جينا[٢] (Jena). لكن في سن الخامسة والعشرين اعتلَّت صحته، وأصبح رحالة. وبما أنه ورث أملاك أبيه في عام ١٨٥٢م فقد أصبح بمقدوره أن يتوسع في أسفاره، ويزور بلادًا كثيرة في شرق المتوسط. بدأ سحر الشرق يأسره، وتملكته رغبة متحمسة لزيارة مركز الدين الإسلامي. قضى معظم السنوات التي تلت حديثه البالغ الأهمية مع بيرتون في المغرب والجزائر.

تعد خطة فون مالتزان مثيرة للاستغراب. ففي مدينة الجزائر قابل مغربيًا

---

(١) درسدن: إحدى مدن شرق ألمانيا، تقع بالقرب من حدود التشيك الحالية.
(٢) جينا: مدينة ألمانية جنوب غرب ليبزيج (Leipzig).

مغرمًا جدًا بالحشيش. أصبحا صديقين. ومقابل جواز سفر إلى مكة واستعمال اسمه تعهد فون مالتزان بتقديم مبلغ كافٍ من المال هدية تسمح له بتعاطي مخدره المفضل لمدة ستة أشهر. تمت الصفقة. وجه مالتزان وجهه إلى مكة. أما المغربي فتلاشى في نشوة من الذهول في منتهى السعادة.

على عكس بيرتون لم يعانِ فون مالتزان من صرامة نظام الحصول على جواز سفر. ومع أنه لبس الزي المغربي وقلد تمامًا تقريبًا المظهر الخارجي للرجل الذي انتحل اسمه، كانت هناك فوارق جسدية كلون العينيين إلا إنه تفادى رقابة الموظفين دون صعوبة تذكر. أبحر من مدينة الجزائر إلى مرسيليا، ومن هناك إلى مالطا حيث تقمص تنكره النهائي، وأبحر في سفينة إنجليزية إلى الإسكندرية.

بدأت الآن مغامراته بصفته حاجًا. تجنب الأوربيين وأقام صداقة مع مصري عجوز يدعى الشيخ مصطفى كان متوجهًا على غراره إلى مكة. أصبحا رفيقي طريق وسكنا معًا في القاهرة في حي النحاسين. وفي ٣٠ رمضان سنة ١٢٧٦هـ (٢٣ إبريل) أبحرا على متن أحد قوارب النيل إلى قنا. ضُم إلى المجموعة رقيق أسود اشتراه فون مالتزان. وصلوا إلى قنا في ٢١ شوال (١٣ مايو). وبعد بضعة أيام أتموا الرحلة الصحراوية على الجمال إلى ميناء القصير على البحر الأحمر، أُريح مالتزان من عناء الملل في رحلة ساحلية قدم لها بيرتون وبوركهارت وصفًا بيانيًا تفصيليًا. وعلى الرغم من أن العرب يتشاءمون من الإبحار ليلًا إلا أنه أبحر القارب مباشرة عبر البحر إلى ينبع. قُضيت ساعات الظلام بالتضرع المخلص إلى الله. ولحسن حظ الحاج المتنكر مالتزان لم يكن على متن السفينة مغاربة.

تقدموا من ينبع بموازاة الساحل إلى جدة. قبل مغادرة السفينة لبس الحجاج الإحرام، لذا كان من المستحيل إخفاء نقودهم في أجسامهم.

فاضطروا إلى إيداعها في صناديقهم. وبما أن الوضع المالي لكل منهم كان لا بد أن يكون مكشوفًا لأعين موظفي الجمارك المحدقة، فقد غُرِّم حسب طاقته. يلمح فون مالتزان إلى العادة أيام بوركهارت والمتمثلة بحمل المحرمين نقودهم في محفظات نقود معلقة حول أعناقهم. صادف جواز سفره الفرنسي مشكلة، سُوِّيت بدفع مئة قرش. في الوقت نفسه سرق منه لص غير رسمي خمس مئة قرش أخرى.

كانت أهم مغامرة له في جدة السهولة غير المتوقعة في إيجاد سكن في الميناء المزدحم. كان السكن شقة محترمة شبيهة بمنزل خاص في ساحة بيركلي الذي لم يؤجر مدة طويلة على الرغم من موقعه الممتاز. ولم يكن صعبًا معرفة السبب الذي هو الرغبة في أن يكون بعيدًا عن أنظار العامة. وبما أنه نهض من نومته الأولى من جراء الولولة المقطعة للقلب، أدرك أن جيرانه كانوا من رجال الدراويش الصاخبين. فيما تبقى من أيام إقامته في جدة كان مسرورًا بمشاركة غرفة مع الشيخ مصطفى.

رأى مكة أول مرة قبيل الفجر، عند ذاك الوميض غير الأكيد الذي يدعى السَّحَر، وهو ليس بليل ولا بنهار. إنه الوقت الذي يسمح فيه بتناول الطعام في شهر رمضان. وهو لا يستمر إلا لدقيقة واحدة. ولكن خلال هذه الدقيقة حيث يتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض في الضوء الخافت رأى مقابل التورد الدقيق في السماء كتلة رمادية بخط غير واضح المعالم. لقد كان أشبه بركام من الصخور أكثر مما هي بحر من البيوت. انطلقت صيحة فرح مدوية مرحبة بطيف المدينة المقدسة التي يعد كل حجر فيها مقدسًا، وهي أمنية المسلمين أجمعين: إنها مكة المكرمة، حيث الكعبة، أقدس شيء في العالم، بيت الله في الأرض. يكتب قائلًا: «لم يوجد ولا رجل واحد لم يناد بأعلى صوته «لبيك» تخرج من أعماقه. فالأصحاء والأقوياء رفعوا عقيرتهم بها. أما المرضى والضعفاء فقد قالوها بجهد جهيد مستخدمين

أنفاسهم الضعيفة، في هذه اللحظة المقدسة خرّ كثيرون على ركبهم رافعين أيديهم بلهفة نحو الكتلة السوداء من البيوت. وألقى آخرون بأنفسهم على الأرض ساجدين يقبلون رمال الصحراء بحماسة شديدة، أطلق الجميع العنان لعواطفهم وحماستهم بكل وسيلة متاحة، لكن ليس كالأوربيين الذين يعانق بعضهم بعضًا حينما تغمرهم الفرحة. في لحظة كهذه ينسى المسلم كل العالم من حوله بما في ذلك أصحابه. إذ لا يفكر إلا في الأشياء المقدسة، الحاضرة والغائبة التي تكون نصب عينيه».

حرك منظر الكعبة المشرفة وجموع العباد من حولها أحاسيس غريبة لدى فون مالتزان، كما كانت الحال مع باديا من قبل. قارن المسجد (الحرام) بقلعة عظيمة. وبعد الصدمة الأولى بدت له الصلوات والسجدات مجرد أفعال مكررة. لم يرتح لحالة الحجر الأسود الذي قبّله بشق الأنفس. ويتحدث عن الحجاج الذين رآهم وهم يسعون: «كان بالتأكيد مشهدًا لم يكن ليرى خارج مكة. فكل هؤلاء الناس نصف العراة الذين غطاهم التراب والأوساخ يلهثون، ويتصببون عرقًا، ويئنون، ومحمومون من حر الشمس الذي تعرضت له رؤوسهم الحليقة لساعات، ومتعبون حتى الموت بالشعائر الدينية، ومنتشون مع ذلك نشوة عارمة - كل هؤلاء الناس الذين بدوا وكأنه أصابهم الذهول من جراء النشوة الدينية - يهرولون في الشارع (المسعى) جيئة وذهابًا وهم يلهثون، ويصرخون صراخًا شديدًا بالتلبية والدعاء».

خلال الأيام العشرين التي مكثها فون مالتزان في مكة سكن في بيت على سفح إحدى التلال في الحي الشمالي الغربي[1]. لم يكن هذه المرة جماعة الدراويش الصاخبة كما في جدة هي التي شغلت الشقة المجاورة له، بل كان حريم صاحب البيت. فأتيحت له فرصة نادرة لدراسة النساء العربيات. كان

---

(١) هذا الحي هو حي السليمانية.

يقطن الحي المذكور أو جناح الحجاج الأفغان. وبهذا لم يكن فون مالتزان ليلتقي مغاربة قد يكشفون حقيقته. وكان من السهل عليه المرور بين الأفغان على أنه مغربي. وللسبب نفسه جعل من نفسه حنفيًا في حين كان في جدة مالكيًا. وبما أن المغاربة كانوا مالكيين كان عليه أن يبقى على اتصال دائم معهم خلف مقام مذهبهم (في الحرم) بمحاذاة الكعبة. وهو يلمح إلى تنكر بيرتون بصفته أفغانيًا وسكنه في الحي نفسه. وللحالة المضطربة لأفغانستان آنذاك، أرسلت عددًا قليلًا من الحجاج. ولو كان العدد كالمعتاد لما تسنى لبيرتون الحفاظ على تنكره بشخصية أفغاني.

رأى فون مالتزان الكعبة من دون كسوتها. أحجم عن السعي إلى الدخول إلى جوفها. لم يحاول تدوين انطباعاته. لذا كانت التفصيلات الكثيرة والمثيرة للوصف الذي حوته صفحاته مخزنة في مخيلته. ذات مرة وفي مخاطرة بحياته رسم نقشًا بالخط الكوفي على أحد أعمدة المسجد (الحرام). ولكن أصيب بخيبة أمل حينما فكت رموز النقش التي ما كانت سوى الجملة الإسلامية «لا إله إلا الله محمد رسول الله». متع ناظريه بالمناظر الخارجية للمهرجان الديني العظيم في تنوع السيول العرقية المتشابكة وتعددها الهائل، والتغيرات الطيفية الملونة على سطح النهر البشري الذي تدفق من أمامه. وقارن المدينة الأوربية العادية وحياة السكان المملة مع الجنسيات الست أو السبع المتباينة التي تتلاحم في أفضل مدينة شرقية تنظيمًا، تبهر العين ويمكن تمييزها من بعضها من خلال الدين والعادات ولون البشرة، والزي، والتدرجات الطبقية التي لا تنتهي للمركز الاجتماعي، وغالبًا من خلال أغرب المفارقات الاجتماعية. في مكة كان عدد الجنسيات أكبر بكثير، على أن الجميع يدينون بالإسلام، اللهم باستثناء الهنود وجنوح بعضهم إلى الوثنية.

تمت إنارة المخيمات في عرفات بمصابيح صغيرة جدًا ومناطيد ملونة واللهب المحمر للنيران التي لا تكاد تعد أو تحصى أمام الخيام. في الصباح

التالي راقب فون مالتزان الأشعة المتوهجة للشمس التي عكستها الأطراف الغرانيتية للجبل المقدس. وبدت الكتلة الجرداء للصخر المغطاة على بكرة أبيها بالحجاج أشبه بفرن حار أحمر. كانت تتدهور صحة صديقه الطبيب الشيخ مصطفى بالتدريج. لكن رغبته في سماع خطبة عرفات وحصوله على شرف لقب حاج جعلته يتحمل حتى الآن إلا إنه لم يُقدَّر له أن يبلغها فقد مات قبل بداية الخطبة بساعات قليلة ودفن على الفور. يُتوج كل من يموت في أثناء الحج بتاج الشهادة الذي أصبح الشيخ مصطفى صاحبه.

في هذه الأثناء ما كان يُسمع شيء إلا كلمة «لبيك». لقد ملأت الآفاق، ورددت صداها جنبات عرفات. وبينما كانت الخطبة تلقى ارتفع زخم الحماس أكثر فأكثر. أما فون مالتزان الذي مع شعوره بالملل كالعادة فقد تظاهر بالتأثر برفع منديل كبير إلى عينيه. ومع مرور الزمن شعر الحجاج قليلو الورع كما شعر هو. بدأت الجموع تتناقص رويدًا رويدًا، ودب التثاؤب وضرب الأقدام في إشارة إلى الخطيب لكي يختم الخطبة. عند كلماته الأخيرة هلل الحجاج بصوت عال «لبيك» اندفع الحجاج نازلين من الجبل كشلال من الماء. وكان مصير أولئك الذين لم يستطيعوا إسراع الخطى الموت تحت الأقدام. في الطريق إلى منى اشتعلت النار بإحرام فون مالتزان القطني من أحد المشاعل، أنقذ معظمه ليتسنى له من الآن فصاعدًا وصف نفسه بأنه ربع عار بدلًا عن نصف عار.

بعد رجم العقبة، كان تواقًا إلى العودة إلى مكة ليستمتع بحمام. وبدد دهشة مطوفه بسرعته الزائدة حين عزا ذلك إلى ازدحام محلات الحلاقين (في منى). رافقه إلى مكة مطوف أسبغ عليه لقب «أمير الجزائر». ربما لأنه أغدق عليه المال، فكلنا يعلم أن لقبًا فخمًا يستخدم بين ظهراني الأصدقاء دون تجريح يكون مثيرًا للشبهات. تملّك فون مالتزان الرعب عند وصوله الحمامات لأن حملة من الجزائريين كانت قد سبقته إلى هناك ليسمعوا مطوفه يعرفهم

بلقبه الزائف. حدقوا به وكانوا على قناعة بأنهم لا يعرفونه، وبما أن الجزائريين قادرون على اكتشاف اللكنة الأجنبية بسرعة فإنهم بدؤوا الحديث معه. أثارت إجاباته المقتضبة مزيدًا من الشكوك حوله من جديد. ودارت النقاشات السرية «ما ظنكم بأمير الجزائر هذا؟»، «كيف يمكن لهذا الرجل البائس أن يكون نجلاً لباشا الجزائر؟»، «في الأمر إنّ!»، بما أنه حظي بهذه الإمكانات الضخمة فما كان ليتنكر في زي متسول. لا بد أنه نصراني! كان سمع فون مالتزان حادًا جدًا. لقد تناهى إلى سمعه كل المحادثة ووقف شعر رأسه حينما سمع الكلمة المهمة إلى درجة مرعبة «نصراني». بينما كان الجزائريون يتوجهون إلى الحمامات، وقبل أن يسلموه للسلطات سارع في الخروج من مكة مخلفًا وراءه ممتلكاته وعبده. شد الرحال إلى الضواحي، ثم استأجر بدويًا وحمارًا إلى جدة ووصلها في غضون (١٤) ساعة. كان في الميناء سفينة بريطانية من غلاسكو. وأمّن عبورًا إلى بومباي. كان مضطرًا إلى التخلي عن رحلته إلى المدينة المنورة. لكنه أرسل جواز سفره في حينه إلى صاحبه في مدينة الجزائر. وبقي هذا الرجل طوال حياته وهو في شك فيما إذا قام هو نفسه بالرحلة إلى مكة المكرمة أم غيره.

سافر فون مالتزان ليرى لا ليعرف. تمنى أن يزور مكة، ولكن كان بإمكانه تمامًا أن يرضى بصورة في ذهنه عن المدينة الحرام وهي ملتفة بالتلال الغرانيتية، وصورة الكعبة المشرفة بالأمواج البشرية المتعددة الألوان المتلاطمة من حولها. إن الحماس القليل الذي دخل به الشعيرة، واعترافه المتكرر بأن الصلوات والركعات والسجدات قد أصابته بالملل يجعلنا نشك أنه تحلى بحماسة حقيقية للجوهر.

أمضى بقية حياته في أسفار ذات طابع تقليدي في معظمها. كانت نهايته مأساوية. إذ بما أنه كان يتعذب من آلام شديدة في الأعصاب فقد مات منتحرًا سنة ١٢٩١هـ (عام ١٨٧٤م).

هيرمان بيكنيل (Herrman Bicknell)
(١٨٦٢م)
(حاج عبدالواحد)

يقال إن هيرمان بيكنيل هو الحاج الإنجليزي الوحيد الذي لم يُخْفِ جنسيته إذ ذهب إلى مكة علنًا بصفته مهتديًا للإسلام، ومكنته معرفته بالدين الإسلامي وعاداته أن يمر بين حشود الأمم كلها دون لفت نظر أحد.

ولد المؤلف والمستشرق والرحالة بيكنيل سنة ١٢٤٦هـ (عام ١٨٣٠م). تلقى تعليمه في باريس وجامعة هانوفر (Hanover) وكلية الجامعة ومستشفى القديس بارثولوميو (Bartholomew). أصبح جراحًا في الجيش، واستكشف أجزاء من جاوا والتيبت وجبال الهيمالايا. سافر إلى فارس وترجم حافظ[1]، وانضم إلى حملة استكشافية إلى المناطق القطبية وجبال الأنديز في أمريكا الجنوبية. مات قبل أوانه في سنة ١٢٩٢هـ (عام ١٨٧٥م) من المشقة وتقلبات المناخ ودرجة الحرارة، ومات عند صعوده جبل ماترهورن (Matterhorn) (بين إيطاليا وسويسرا).

أمضى بيكنيل الأشهر الأولى من سنة ١٢٧٨هـ (عام ١٨٦٢م) في القاهرة، وفي ٢٣ من ذي القعدة (٢٢ مايو) أبحر من السويس على متن سفينة تنقل كسوة الكعبة. وفي الخامس والعشرين لبس الإحرام. انتقص قدر معين من المرح الصاخب من جلال المسير: وفي أثناء تنقل هؤلاء الحجاج من

---

(١) حافظ الشيرازي له ديوان شعر مشهور.

مكان إلى آخر كانوا يرفعون أصواتهم بالتلبية. في اليوم التالي، وفي جدة صعق بالجدب الصارخ للجزيرة العربية بكثبانها الرملية وتلالها. لوّن اللمعان الشديد للماء في الميناء أشرعة قوارب السمك الصغيرة التي تجوب الميناء بسرعة باللون الأخضر الزمردي.

بعد رحلة دامت عشرين ساعة وصل إلى مكة. تقدم على الفور نحو المسجد (الحرام). «هناك مستطيل فسيح غير مسقوف» في المركز حيث شمخت الكعبة المشرفة: «هيكل مربع من الحجارة الضخمة» بظلها الأسود الذي يمكن مقارنته مع أسوار المدينة وكتلها الصخرية المضاءة بأشعة الشمس. تقدم واستلم الحجر الأسود وأدى الشعائر الأولى للحج. ثم وصف عرفة بسهل تحيط به الجبال وتنتشر على جنباته خيام ثمانين ألف حاج على مساحة ميلين أو ثلاثة من البرية. بعد رمي الجمرات والذبح غادر بيكنيل إلى جدة «غير آسف على ترك درجة حرارة في الظل حيث تبلغ (١٢٠) فهرنهاتية[١]»، وبعد أن أوصى بعض إخوانه الحجاج أن يدعو له عند قبر النبي ﷺ في المدينة المنورة. يختتم قصته الهادئة بشكل ملائم بتزكية مطوف موثوق وكيّس لأهل بلده الذين قد يأتون إلى مكة من بعده.

يعلق قائلًا: «في خط هذه السطور، إنني تواق لتشجيع إنجليز آخرين، خاصة من الهند بأداء الحج دون الاكتراث بالتقارير المبالغ فيها عن مخاطر المشروع». ويضيف قائلًا: من الضروري أن تكون مسلمًا، على الأقل في مظهرك الخارجي، وتحمل اسمًا عربيًا، وتجيد الحديث عن الصلوات والدعاء، وصيغ الذكر وعادات المسلمين. ويعترف بأن السلطات ستكون عاجزة عن حماية من يعلن عن نفسه أنه كافر، وأن يهوديًا رفض في الآونة الأخيرة ترديد الشهادتين فصلبه العامة.

---

(١) تعادل ٤٩ درجة مئوية.

مات بيرتون في أكتوبر من سنة ١٣٠٨هـ (عام ١٨٩٠م)، وفي سنة ١٣١١هـ (عام ١٨٩٣م) خرجت إلى النور طبعة مذكراته عن «الحج». وقد أثارت جدالًا في مؤسسة أثينوم العلمية بين زوجة بيرتون وشقيق بيكنيل عن المزايا الخاصة بالحجاج. في ملحق كتاب بيرتون أعيد طباعة وصف بيكنيل لرحلته دون ذكر لاسمه. عزا شقيق بيكنيل ذلك للغيرة. وجادل بأن تنكر بيرتون قد عرَّضه لمخاطر كان في غنى عنها، وأن صعوباته هو التي اختلقها وظهر في نظر العالم بطلًا مثل دون كيشوت الذي يصارع طواحينه الهوائية التي صنعها بيده، متحدثًا عن أخطاء لا وجود لها. وأضاف أنه آن الأوان لناقوس الخطر المزعوم حول مهالك الرحلة الاستكشافية إلى مكة المكرمة، يجب أن يقدر بقدره الحقيقي كما صوَّره أخوه بتواضع ودقة. ردت السيدة بيرتون بأنه كان يُنظر إلى الداخلين في الإسلام شزرًا في الحجاز، وتُمنع عنهم المعلومات، ويُحرم عليهم الدخول إلى الأماكن المقدسة الداخلية. وأكدت أن بيكنيل عبر عن شعوره بالحسد لتجربة زوجها الأوسع، وختم بالقول: إن والده قد قطع عليه المصروف لتخليه عن دينه. فما كان من شقيق بيكنيل إلا أن شكرها على بوحها بهذه «الأسرار عن والده وأخيه الراحلين».

لم تكن دقة السيدة بيرتون فوق الشبهات. فلا نجد في أي مرجع آخر إثباتًا لوجهات نظرها عن الوضع المشكوك فيه للداخليين في الإسلام. كما أدلت مرة بتصريح مثير للذهول مضمونه أن لدى حجاج مكة كلمات سر لاكتشاف الدجالين. لكنها محاولة منها لتعليل موقفها في الجدال المذكور أعلاه، علينا أن نتذكر أن رواية بيكنيل لحجه كانت في صيغة رسالة موجهة إلى صحيفة التايمز اللندنية. ووقع عليها باسمه المنتحل العربي. وأعيد ذكر هذا الاسم في طبعة بيرتون المعادة لكتابه. أنهى الجدال شقيق بيكنيل - وهو ضابط سابق - الذي أنكر أن يكون الحاج بيكنيل قد ادعى أي مفخرة مذ ذهب مرتدًا. ووصفه بأنه كاثوليكي في الغرب، ومسلم في الشرق. ومع أنه كان رجلًا قوي

الشخصية وحاد الذكاء فإنه كان يفتقر للمبادئ الثابتة، وكان ذا طبيعة عاطفية وتجريبية. أكد أخيرًا صدق مقولة السيدة بيرتون وضعه المالي في وصية أبيه قد تأثر من جراء دخوله الإسلام.

جون فرِايار كين (John Fryer Keane)
(١٨٧٧ - ١٨٧٨م)
(حاج محمد أمين)

يعد كين أول حاج أوربي على قيد الحياة[١]. ولد في مدينة ويتبي[٢] (Whitby) في سنة ١٢٧١هـ (عام ١٨٥٤م)، وهو نجل وليام كين، الكاهن الأكبر لكتدرائية كلكتا أحيانًا. يعود تاريخ سيرته مع المغامرات إلى سن الثانية عشرة حينما فر إلى البحر. أهّلته سبع سنوات قضاها بين ظهراني المسلمين لأداء الحج. إن ملحوظاته الشخصية المدونة في المؤلفات التي جسد فيها تجاربه تجعل من تمحيصها متعة.

غداة وصوله إلى جدة فوجئ كين على الفور بعجز الحجاج وسهولة انقيادهم وخداعهم. فبالإضافة إلى الرسوم الباهظة على أمتعتهم فإنهم غُرموا بروبية سلفًا قبل أن ينزلوا إلى اليابسة لسبب غير واضح. كان محظوظًا في ضم نفسه إلى بطانة أمير هندي متوجه إلى الديار المقدسة، وبهذا تذللت كل الصعاب الصغيرة.

لبس الإحرام، وبطبيعة الحال وجد نفسه واحدًا من حشد يخرج من الباب الشرقي لجدة بين اثنين من الحرس التركي. استأجر الأمير جمالًا وبدوًا. شارك خادمًا رفيقًا في شُقدف، وما لبث أن وجد نفسه يحبو فوق سهل

(١) كان ذلك وقت تأليف هذا الكتاب عام ١٩٠٨م.

(٢) ويتبي مدينة ساحلية ومنتجع سياحي في منطقة يوركشير شمال بريطانيا.

رملي. وبما أنه كان بحارًا قديمًا فقد مرض من جراء ضربة عنيفة وجهها إليه الجمل.

كانت المسافة ثمانية وعشرين ميلًا إلى حدّا. وصلوا إليها عند الفجر، ولم تواصل القافلة الرحلة حتى الغروب. لكن لم يكن بالإمكان الخلود إلى النوم إلا قليلًا بسبب الإنشاد غير الموسيقي والمتواصل للحجاج. كانت الليلة الثانية للرحلة أشق وأصعب. فقد صعدت الجمال طلعات أشد انحدارًا عبر أرتال من الصخور الأكثر وعورة حيث تردد صدى أنينهما وصرخات الحجاج ذات التأثير الغريب. عند فجر اليوم الثاني وصلت القافلة إلى مكة المكرمة. ترجل الحجاج ومشوا في شوارع عريضة أولًا، ثم ضاقت كلما تقدموا في نزول التلة إلى المسجد (الحرام) المسور.

كان البيت المعد للأمير أحد البيوت المبنية الداخلة بجزء منها بين أروقة المسجد الحرام. وكان له ثلاث نوافذ فجوية ضخمة تطل على صحن الحرم والكعبة. يمكن تخيل مشاعر كين «البريطاني» وهو داخل جنبات «قلب الكون». لكن لم يتسن له الوقت للتأمل إلا قليلًا. كان من الضروري الطواف والسعي وشرب ماء زمزم. أدهشه تشعب الأجناس، وقارن الموكب حول الكعبة بتماثيل متحف الشمع في لندن التي تمثل عدّة ملامح لأشخاصها.

أنكر كين بشدة القول بأن التجارة والربح يؤديان دورًا أكبر من الدين في الحج. وأكد أن هؤلاء الذين تكبدوا عناء هذه الرحلة ما فعلوا ذلك إلا لإنقاذ أرواحهم. في البداية شعر بوخز الضمير بشأن موضوع انتحال شخصية. لكنه مثَّل الكذبة بدقة متناهية إلى درجة أنه ما لبث أن صدَّقها هو نفسه. أصبح تأنيب النفس غير ذي بال نظرًا لانتهاك قاعدة تافهة مثل «لا تطأ العشب» في حديقة عامة. حضر مرة موعظة ربانية في كنيسة منشقة منذ بضع سنوات فبدت له بغيضة من قبل أكثر بكثير من ذلك. اعترف أن حملته الاستكشافية الحالية

كانت طائشة وغير مدروسة بعناية، لكن لا سبيل إلى التراجع الآن. ربما كانت مكة مملوءة بالمراقبين الفضوليين والجواسيس العاملين لمصلحتهم الخاصة، لكنه كان حافظًا «لآلاف الآيات والعبارات الإيحائية القصيرة من الأذكار الدينية الخاصة». كان يزعم للمعارف أنه من «بلد يدعى الشمال»، لكن في مناسبات قليلة عندما كان يجد الوقت ملائمًا ليكون صريحًا فإنه اعترف أنه دخل الإسلام حديثًا. فلم يجلب له ذلك إلا المديح.

بعد ستة أسابيع شعر وكأنه في بيته مسلم طوال حياته. كان هناك قليل من المشاحنات والغيرة بينه وبين رفقائه من أسرة الأمير، واكتسب عادة الأكل معهم من طبق واحد.

وجد الرز، وهو المادة الدارجة للوجبة غير كاف، وغالبًا ما يشتري من الجنود الأتراك بقايا حصصهم. في الأسواق المفتوحة (البازارات) لم يثر لون بشرته الشقراء فضول «الجماهير المتنوعة»، ولا معرفته المحدودة للغة العربية بين الجنسيات المتعددة. تزايد تدفق الحجاج يوميًا. وكان يسعد بمشاهدة صلاة المغرب المقامة عند الغسق جماعة. يكتب قائلًا في قطعة فصيحة: «لقد كان مشهدًا مهيبًا أن ترى هؤلاء الآلاف من الملتحين، وأصحاب العمامات، والأشداء، والمنحدرين من العالم كله وهم واقفون، دائرة تتسع بعد أخرى حول كعبتهم المقدسة». غالبًا ما جلست في فجوة نافذتي وأنا غارق لا شعوريًا في هذا المشهد الذي أمامي، كل ثوب زاهي اللون، أو عمامة براقة بمنزلة إسهام في مزيج الألوان الذي لم تقدر العين أن تستوعبه، وكل سجدة وهي تموج في الساحة ذات ألوان قوس قزح، محدثة تقلبات أشبه بالشفق». كانت الكعبة «شبه منحرف مستو وخال من الزينة وبناء حجري مشذب بدقة، وضخم، ومن طراز حجري قديم». أخذ قياسات للكعبة بأداة متواضعة وهي عصا خيزران بطول ياردة واحدة. «لا أحد سيشك بمؤمن ورع أخذه الحماس وهو يحبو على يديه وركبتيه في الليل حول الكعبة المقدسة، ويتظاهر بالدعاء وهو يتمتم عدد

المرات التي نقل فيها العصا». أصبح على قناعة أن الحجر الأسود كان قطعة من الحجر البركاني الأسود، خاصة عندما سمع بالاعتقاد أنه يطفو على الماء. أما أكثر الأساطير شعبية فقد اعتبرته الملك الذي وُكل بمراقبة آدم وحواء في جنات عدن، والذي مُسخ إلى حجر لأنه سمح للأفعى بأن تخدعهما[١]. كان هناك (٢٨٦٠) مصباحًا في المسجد (الحرام) توقد بعد الغروب، بالإضافة إلى المصابيح الملونة الخاصة التي تحلق حولها مجموعات من الحجاج.

ذات مرة صعد جبلًا (أبو قبيس) حيث يمكن الإطلال على مكة كلها. كان الوادي برمته «مكتظًا بالمباني من كل الأشكال والأحجام، وغير مرتبة بشكل معين، وتبلغ في علوها السفوح المنحدرة للتلال المحيطة، مع وجود منزل مبعثر هنا وهناك على قمة صخرة يبدو وكأنه واقف مكومًا هناك يترقب الفرصة السانحة للانقضاض والانخراط في المعمعة التي في الأسفل، وهو كتلة رمادية زائدة، مستوية السطح». «كثير من البيوت مرتفعة جدًا وضخمة وأشبه بالمصانع، ومملوءة بالنوافذ الصغيرة (أو الطاقات). ونادرًا ما تتشابه واجهات المنازل المتجاورة أو ارتفاعاتها. لا شيء يشبه نسقًا أو شارعًا يمكن للخيال أن يكونه من هذا التنوع في البناء». ومع زحف الجموع القائمة في هيئة أسراب في أزقة وشوارع المدينة المعتمة تبدو لنا المدينة كخلية عملاقة للنمل.

ما لبث أن حدث تغيير في الأسرة التي كان كين أحد أفرادها. غادر الأمير في حجة إلى القدس. وترك مع أفراد حاشيته الذين لم يأخذهم معه مبلغًا كافيًا من المال ليغطي نفقاتهم إلى حين عودته فاحتفلوا بالحدث من خلال تنظيف ضروري جدًا لشقته، واصلوا إمتاع أنفسهم كما يحلو لهم. تأقلم كين من قبل مع مكة. الآن، وبصفته راعيًا للأسرة فإنه شعر بنفسه أنه شخص ذو

(١) هذه خرافات لا أساس لها من الصحة.

شأن، فارتدى ثيابًا جميلة، ولبس عمامة وقميصًا لمّاعين. فجأة تبددت ثقته بضربة. إذ كان يتمشى في ضواحي مكة فمر بمدرسة كان الطلاب يلعبون فيها، وإذ طفل هندي صغير يصرخ متعجبًا: «انظروا إلى النصراني!» سيبقى الغموض يكتنف الإجابة عن السؤال عما أوحى له بالفكرة». التقط الطلاب الآخرون الصرخة، وتقدم عربي جلف وطلب منه إقرارًا بالإسلام، فكان كين شديدًا بما فيه الكفاية فأمسك بالرجل من كتفيه وأداره وركله ركلة قوية وهذا ما جعله يصيح: «يا نصراني!» بعد ذلك بلحظة مر حجر بمحاذاة أذنه، بينما أصابه آخر على رأسه، وكان من القوة ما يكفي لكسر جمجمته لولا أنها احتمت بالطيات السميكة للعمامة. تحلقوا من حوله، وتطايرت الحجارة أسرع فأسرع، فأُصيب بضربة على الركبة وأخرى على مستدق الظهر، وثالثة على يده التي كان يحمي بها وجهه. كان الهرب الملاذ الوحيد. وكان على مقربة منه منزل حرس أتراك ليحمي نفسه. لكن تجمع مجموعة من العرب والزنوج، وأصبح الأمر خطيرًا، رمقه الجنود بنظرات عابسة، واستدعاه ضابط على عجل وخاطبه بالفرنسية. على أية حال لم يفارق كين حضور البديهة إلا قليلًا. فأجابه: «لا أستطيع أن أتحدث التركية»، ونطق بالشهادتين، واستعار عصًا، واندفع نحو الحشد من الناس في الخارج وهو يكيل لهم سيلًا من الشتائم. أمالت طلاقته في الشتائم بالعربية الكفة لمصلحته. ساعد الجنود على تفريق الغوغاء، وأروه طريق العودة إلى بيته ليكون فيه في منأى عن المضايقات.

بعد هذه التجربة المشؤومة لزم كين غرفته ثلاثة أسابيع. أمّن لنفسه غرفة صغيرة (٨ × ٤) أقدام، ومكث فيها تلك المدة، وكان يخبر رفاقه أنه كان مريضًا، لكنه كان في واقع الأمر تحت تأثير الأفيون. تملكه الرعب خشية أن ينكشف الأمر للسلطات، وكان على علم بأنه في حال إجراء تحقيقات جادة سوف لن يقدر على إعطاء وصف مقنع عن نفسه. عند عودة الأمير توقف عن تعاطي المخدر، فألفى أعصابه قد تأثرت بذلك. كان يجفل من جراء دخول

غريب عليه ويكره كل من يمر من خلفه. على أية حال كان وجود الأمير صِمام أمان له.

اجتمع في مكة آنئذ (٢٠٠٠٠٠) حاج. يعزى ذلك العدد الضخم إلى أن شعيرة عرفات صادفت يوم جمعة: وكان يعرف بالحج الأكبر. من بين الأجناس المتعددة، عدّ كين الترك متفوقين على أبناء دينهم الشرقيين، كما كان الأوربيون له. إذ لم ير قط جنديًا تركيًا ببذلته وتجهيزاته العسكرية الأوربية، وذقنه المحلوقة دون أن يحس برغبة في مصافحته. ذات مرة خاطب بالإنجليزية حارسًا أحمر الشعر وأزرق العينين، لكنه لحسن حظه رمقه بنظرة محدقة فارغة فقط في معرض رده عليه. كان الأفغان والفرس موضع شك: الأفغان لميلهم للاعتداء والسرقة؛ أما الفرس فكالعادة بسبب معتقداتهم البدعية. أما الماليزيون فكانوا «إسكتلنديي الشرق» ملتزمين جدًا إلى حد أنهم لم يرغبو إفساد حجهم بعمل بعض النقائص، لذلك لم يتسولوا قطّ. أما عرب شمال إفريقية فكانوا مشاكسين ويتجاهلون الممارسات الدينية، خاصة الوضوء. أما السوريون سنّانو السيوف فقد تكبدوا مشقة رحلة عبر الصحراء من دمشق وهم يحملون آلات سن السكاكين على ظهورهم[1]. أما التتار والبخاريون فأتوا من آسيا الوسطى سيرًا على الأقدام في رحلة تستغرق من ٥ - ٦ أشهر. أما الدراويش البدائيون في مظهرهم فيدفعون للناس بنصف قرعة يقطينية لا يرفض أحد إيداع صدقة فيها إلا إذا كان مسلمًا سيئًا.

يوم الخميس ٨ من ذي الحجة سنة ١٢٩٤هـ (١٦ ديسمبر)، بدأ السيل البشري بالتدفق إلى منى حيث أمضى كين وأصدقاؤه الليل يرقبون من نوافذهم موكبي الشريف والباشا. ركب الباشا عربة الباروشة الفخمة يجرها جوادان كستنائيا اللون وكأنهما يلمعان في حديقة الهايْدبارْك اللندنية. ارتدى حلة من

(١) هذه الأحكام على المسلمين فيها تعميم غير صحيح لأن المؤلف واجه موقفًا من شخص معين ومن جنسية معينة لا يعني وصف جميع أبناء تلك الجنسية بوصف واحد.

بذلة سوداء، وبدا غريب الشكل بأجوائه العربية المحيطة به. في صباح اليوم التالي استيقظ كين على مشهد مصالحة عامة. إذ أخضع الحجاج رقابهم، يتذكرون ويعترفون بتجاوزاتهم، ويسألون المغفرة وهم يذرفون الدموع. يكتب كين بأسلوبه الخفيف الظل قائلًا: «اعتمدت في البداية على مخيلتي لانتقاء الأدوات، لكن ما لبث رفقائي أن ذكّروني بالعديد من الطرق التي أهنتهم بها شعوريًا أو لا شعوريًا. بدوا صادقين، وباحوا بما يختلج في صدورهم. وجدت أن أعدادًا من الأدوات الصغيرة قد اختفت من صرتي. أحدهم استولى على مطواة، وآخر على جوارب. أنا بالطبع أعطيت وعفوت بأقصى ما لدي من روح التسامح».

بدؤوا من منى في النصف الثاني من الرحلة. أصبح الوادي أوسع بين التلال الصخرية، مما قلل من ضغط الحجاج. تناثرت جثث حيوانات كثيرة على الطريق، إحداها حصان كستنائي كان يجر عربة الباشا الفخمة. أما عن المشهد في عرفات فيكتب قائلًا: «لن أندهش إذا ما جال في خاطري وأنا على فراش الموت». حينما صعد الجبل شعر وكأنه على خشبة مسرح عظيم بجمهور على مد البصر لمسافة أميال أمامه. كانت جوانب عرفات مغطاة بكثافة بالرجال، ومن هناك امتدوا ميلًا ونصف الميل جنوبًا، ومثلهما عبر «بحر مائج من الرؤوس السوداء والأجساد البيضاء». لقد امتلأ إجلالًا من مجيء هؤلاء من بلاد نائية، والغاية التي جاؤوا من أجلها. «هل يمكن أن يكون كل هذا باطلًا وبلا طائل، ويكون هذا الإيمان عبثًا؟ إذا كان الأمر كذلك فلا إيمان بشيء من أي نوع كان على الإطلاق».

كان حماس الجمهور في أثناء الخطبة، والتلويح بالإحرام كما ذكر بوركهارت وبيرتون، والعاطفة الجياشة التي يبديها الأفراد، كان ذلك مشهدًا مروعًا ومرعبًا لمراقب غير مشبوب بالعاطفة. ومع ذلك تظاهر بالنشوة والخشوع مع أفضلهم. انفض الجمع، ولم يكن هناك حوادث، والحوادث

اليسيرة كانت على الأرجح من جراء إطلاق نار البنادق، وسقوط بعض الصخور بطول (١٢) قدمًا على الجماهير المزدحمة. لقد استهلك سيده أكثر من خمسين طلقة من الخرطوش الكروي أطلقها في سهل عرفات.

بعد قضاء ليلة في مزدلفة اندفع كين من فوره مسرعًا إلى مكة. كانت الشوارع مهجورة والدكاكين مقفلة. قرب المسجد (الحرام) اضطجع بضع متسولين، بعضهم في المراحل الأخيرة من الضعف، وآخرون موتى. بعد أداء الطواف والسعي، والتجول بين الأزقة والممرات التي لا حياة فيها رجع كين إلى منى لرجم الجمرات والتضحية بكبش. رُمي زهاء ثلاثة أطنان من الحصى على مسلات الجمرات. وكان لحم الجزارين وافرًا في اليومين التاليين. كان من المشاهد المألوفة نسر شبعان لم يشأ أن يفارق المكان.

لم يدخل كين الكعبة المشرفة إلا بعد عودته من منى. وانتظر ساعتين ليتمكن من شق طريقه إلى الدرج. لكن الحر في الداخل كان شديدًا والجو لا يطاق. لذا شق طريقه بسرعة بين الزحام وقفل راجعًا وكأنه يصارع للوصول إلى سطح الماء بعد غطسة خطيرة.

ما زال في مكة المكرمة مفاجآت مخبأة له. في أحد الأيام وهو يركب في زقاق ضيق رأى منظرًا كاد يوقعه من على حماره. رأى لوحة سوداء ضخمة كتب عليها باللون الأصفر «شقق سكنية». حقق في الأمر واكتشف أن المالك ماليزي من رأس الرجاء الصالح تعلم الإنجليزية في المدرسة. جفل الرجل حينما خوطب بلغته، وحذر كين من أن أشخاصًا إنجليزيين دخلوا الإسلام ليروا الحج، ثم ألفوا كتبًا حوله: وكان هناك ثلاثة منهم مطوقين بالأغلال حول أعناقهم، مقيدين بين الجبال. علق كين على ذلك بقوله: «لم أخبره أنني ظننت أن ذلك كان كذبة». لكن بما أنه لم يحب الرجل فإنه لم يبح بجنسيته. قضيا

الصباح معًا. لكن كان الماليزي يعرف أشياء كثيرة، فلم تَرُق صحبته لكين. ولكي يتخلص منه لجأ إلى الوسيلة التي لا تخطئ، التسول. إذ بدأ يخمن كلفة سلسلة ساعته، ويعجب بخواتمه، ويقارن ذلك بفقره. فاستحضر الماليزي فجأة أمرًا يخص عمله فانصرف إليه وترك كين.

لكن أشد مغامرات كين إدهاشًا كان اكتشافه لامرأة إنجليزية مقيمة في مكة، واسمها «السيدة زهرة». أخبره حلاق كان من عادته أن يتحدث معه بوجودها، ورتب له لقاء معها في بيت أخي زوجته. كانت فكرة امرأة ريفية إنجليزية مدفونة في مكة صدمة غير سارة لرجل في مركز كين. كان هو نفسه راضيًا عن تواصل مغامرته في مكة، لكنّ اثني عشر شهرًا منها كادت تقتله. لم يلق كثيرًا من الصعوبات في الوصول إلى مكة، ولكنه قد يجد صعوبات أكثر في مغادرتها! كان لقاؤه الأول بالسيدة زهرة مؤلمًا بعض الشيء. وكان حديثهما مراقبًا. لكن كان واضحًا أن دموعها كانت تسيل من خلف حجابها. كان قريب الحلاق الرقيق رجلًا مسنًا بوجه سمح، يوحي خطأً بالمتآمر على شبابه. ومع ذلك كان متمردًا هنديًا، ولافتًا للنظر في مدينة لكهنو الهندية، ثم منفيًا من بلده. استقبل كين في بيته، ودعاه إلى العشاء ثم صرفه بإكرامية قدرها دولار واحد. جرى لقاء ثان بين كين والسيدة زهرة في ظروف أفضل، «يا للحديث الذي جرى بيننا! تارة كنا نضحك حتى القهقهة، وتارة أخرى كانت تبكي». كانت آخر كلماتها: «لا أستطيع أن أخمن من أنت يا صغيري». مضى وقت طويل قبل أن يلتقيا للمرة الثالثة حيث كانت السيدة زهرة قادرة على الكشف عن وجهها. كانت في سن الأربعين تقريبًا، وصار لها عشرون سنة بين المسلمين. كان مظهرها يدل على امرأة شابة واهنة. أُسرت عند حصار مدينة لكهنو بالهند، وزُوجت مكرهة إلى أحد قادة المتمردين. لجأ هذا الرجل إلى مكة لأن رأسه مطلوب من الحكومة الإنجليزية، شأنه شأن أخي زوجة الحلاق. توفي منذ سنوات مضت. عاشت حياة متقلبة من خلال تطريز طاقيات. كان

اسمها ماكينتوش، وكان أبوها طبيبًا، وقضت جزءًا من شبابها في ديفونشاير[١] (Devonshire). لم يكن سهلًا على كين استخلاص هذه المعلومات الشخصية عنها. بدت المرأة المسكينة مستضعفة ومضطهدة، وآلمتها الإشارات إلى حياتها الماضية. ومع ذلك كانت تعابيرها مفعمة بالحيوية وسارة، لكن دموعها نادرًا ما ذرفت من عينيها حتى عندما كانت تقابل دعاباته بابتسامة رقيقة حزينة. كان أعظم كنز عندها قطعة من تقويم بالإنجليزية القديمة. من بين القصص التي حكتها لكين قصة شاب فرنسي دخل الإسلام عن قناعة. عاش في القسطنطينية والقاهرة وأماكن أخرى في الشرق. لكنَّ أصدقاءه طاردوه وحاولوا اختطافه. أخيرًا قدم إلى مكة المكرمة، حيث أقام ثمانية عشر شهرًا وتردد كثيرًا على السيدة زهرة. منذ مدة قصيرة جدًا توفي الشاب بشكل مفاجئ. ساورتها الشكوك بلعبة قذرة «ولمحت بشكل خفي فنجان قهوة». بعد هذه المقابلة التقى السيدة زهرة بشكل منتظم تحت أروقة المسجد (الحرام). لكن كان هناك خطر في مكان عام كهذا. قبل المرة الأخيرة سببت مشكلة بإظهار عواطفها، حينما أمسكت بذراعه ورددت القول: «يا صغيري! إنك لا تعرف ما تعني رؤيتي لك!» وكذلك «لن أوذيك، لن أصيبك بأذى!» لو كان نصف هذا المشهد في لندن لجلب جمهورًا من المعجبين. كان كين مضطرًا إلى أن يسرع في الابتعاد لأن عربيًا اختلس النظر واستعمل الكلمة القميئة نصراني. عند عودته إلى إنجلترا أعطى كين معلومات عن السيدة زهرة لمكتب وزارة الخارجية. فأرسلت التعليمات على الفور إلى جدة للتحقق من الأمر من خلال عميل مسلم. أُكدت القصة لكن السيدة زهرة غادرت إلى الهند. عندئذ تولى مكتب الخارجية في الهند التحقيقات. عُثر على السيدة زهرة وأجريت معها مقابلة، ومنحت فرصة الرجوع إلى إنجلترا. رفضت العرض مؤكدة للجنة المقابلة ومقنعة إياها أنها تعيش بسلام وفي ظروف ميسرة. كان هناك منظر لافت كان

(١) ديفونشير منطقة في جنوب غرب بريطانيا.

على كين أن يراه قبل مغادرته مكة: فيضان ساحة المسجد الحرم بالأمطار الجارفة. وصل الماء إلى ارتفاع ثلاثة أقدام في أروقة المسجد الغربية، وإلى ارتفاع ستة أقدام في المستوى الأوطأ حول الكعبة. تلا الأمطار تفشي الطاعون، والتيفوس، والجدري. مات الحجاج بكثرة. في يوم واحد فقط خرجت ثلاثة وستون جنازة.

سئم كين تنكره بصفته مسلمًا. اختاره الأمير دون رغبة منه لمرافقته إلى المدينة المنورة. سافروا عبر الطريق السلطاني بمحاذاة الساحل لمسافة (٥٠٠) ميل. كان عدد حجاج القافلة (٩٠٠) وعدد الجمال (٧٥٠)، في رتل طوله ثلاثة أرباع الميل. على جانبي الرتل كان يمشي أفقر الحجاج الذين كانوا معدمين جدًا ويتسولون ليأكلوا، أو الذين لم يكن لديهم المال ليوفروه للنقل. امتد الطريق عبر شعاب ضيقة صخرية أو على سهول رملية. بدأ المسير في الليل. تراءت لنا مشاهد شبحية في ضوء المشاعل «هياكل عظيمة لجمال أو جثث أو تائهين من قوافل سابقة قطع رؤوسَهم البدو». عند بلوغ مكان التوقف، بلدة رابغ على ساحل البحر الأحمر شمال جدة، كان قد سقط اثنان وخمسون حاجًا وتسعة جمال على الطريق. كان في رابغ حامية تركية، وتحدث عدة جنود إلى كين في الأسواق المفتوحة. وبما أن أفراد القافلة كانوا في معظمهم هنودًا كانت بشرته الشقراء مميزة. تساءل ضابط ما إذا كان ماليزيًا. فأجابه بالإيجاب.

عند نقطة أخرى تحلى كين بالتحفظ الشديد في التعبير عن حبه لليخنة الإيرلندية. كانت طبخة عرضية وغير شعبية، ولم يلفت النظر بتفضيله إياها. وحدث أن قُدمت بصفتها آخر وجبة في رابغ. وبما أنه وصل متأخرًا فقد حظي بحصة وافرة وانزوى في ركن منعزل ليستمتع بها. لكنه قوطع بشكل فظ فقد أنهى في الحال بدوي عملية جراحية مقرفة أجراها لبهيمته. وبعد أن مسح يديه بشعره صعد إلى الأعلى بسرعة «وغطس مخلبه» في وسط الطبق. كان عند كين طاقة هائلة للتحمل. ففي مكة تعَّود على رؤية يد سوداء « تخربش

بكل سرور في طعامه». لكن كانت هذه المرة فوق طاقته في التحمل. فرشق اليخنة الحارقة والطبق وكل شيء بعنف في وجه البدوي فأسقطته أرضًا. لقد دفع ثمنًا غاليًا من أجل فورة الغضب هذه. فبينما كان منهمكًا في جلي الأطباق بالرمل أحس بألم مفاجئ في فخذه اليسرى وعلم أنه طعن برمح. عبثًا حاول جهده أن يوقف تدفق الدم. تجمع الأصدقاء من حوله. مزقوا كل ثيابه وشدوا بها على الجرح. مع ذلك بقي الدم ينزف. بدأ يضعف رويدًا رويدًا. وبدأ الجمع من الناس ينصرفون إلى شؤونهم لأنهم غير قادرين على فعل أي شيء آخر. ورأى استعدادات لاستئناف القافلة للمسير. راودته الفكرة الجنونية باحتمال موته وحيدًا في الصحراء. وبصعوبة بالغة خربش على ورقة: «سوف يعطيكم حامل هذه الورقة مزيدًا من المعلومات. لا لوم على أحد أبدًا». جعل صديقه الأوحد يقطع وعدًا له بأن يسلمها إلى القنصل البريطاني في جدة. أرهقه هذا الجهد الذي بذله كثيرًا. لم يكن يعرف حينها أن حفرة حفرت له على عجل في الرمل ليدخل فيها جسده الذي ما زال يتنفس تجنبًا للتأخير. لكنه رأى بأم عينه قبل أن يغمض عينيه عقابين أو ثلاثة تحلق في الجو من فوقه.

بعد مضي أربع عشرة ساعة صحا، أو بالأحرى رُدت إليه روحه، كان في نقالته على جمل. وغذي على البطيخ الأخضر. هب على جناح السرعة أحد أفراد بطانة الأمير إلى قرية مجاورة حيث كان يقطن حكيم. وضع الحكيم مادة قاطعة للنزيف على الجرح في شكل سِطام من القطن الخام الذي أوقف النزيف. كما نصح بحمية من البطيخ الأخضر. بعد ستة أيام كان كين قادرًا على دخول المدينة المنورة على قدميه. كان أجر الحكيم جنيهًا إسترلينيًا واحدًا لكونها العملة الرائجة في الحجاز. دفعه الأمير متذمرًا.

بعد هذه الرحلة الشاقة، وعلى النقيض من جذب مكة المكرمة تأثر كين ورفقاؤه الحجاج «بالمدينة المشرفة» بصفتها إحدى أجمل المدن في العالم. فقد وصفها الحاج الذي أعياه السفر بقوله: «إن أسوارها الشاهقة والناصعة

البياض والمتواصلة، ومناراتها العديدة المطلية بالذهب، وشمس الصباح متلألئة من فوقها والحزام الأخضر العريض من الأراضي الزراعية المحيطة بها» جعلتها تبدو «كجوهرة براقة جديدة مطوقة بصحراء جرداء موحشة فسيحة، فسيفساء من حجر الأوبال الكريم واللؤلؤ وضعت على أطراف براقة من آنية خضراء متلألئة». كان فيها أيضًا مساكن مسورة وماء جارٍ، وكل نعمة يشتهيها الخيال الشرقي.

كانت شقة فسيحة مضيئة في انتظار بطانة الأمير. لكن ظل الجرح يؤرق كين. لم يستطع أن يزور المسجد (النبوي) سوى مرة واحدة. وقد تركت انطباعًا مؤثرًا فيه تمامًا كما أحس بيرتون. وقارن مظهره المبهرج ببساطة مكة المهيبة. وذكرت كيف سُرق جوزيف بيتس في هذا المكان. بقيت العادة (عادة السرقة) على مر الزمن: قُطع الإبزيم الفضي لحزام الأمير هذه المرة وهو يصلي.

أما القبر فقد رأى كين منه كل ما يمكن أن يُرى ونظر من الثقب إلى السور الحجري وقد علق بخمس من الستائر الحمراء. ثم أدخل ذراعه وأزاحها «فإنها قد تستحوذ باللمس جلالًا أكثر قداسة». اعترف بأنه قد خاب أمله من هذا المنظر الذي لو رآه المئات من المسلمين لقلعوا أعينهم حتى لا يروا غيره.

أمضى عشرة أيام في المدينة المنورة. ثم بدأت رحلة العودة لقطع أميال موحشة من بيداء صخرية قفراء جرداء. قطعوا مسافة في الصحراء دون أثر لحياة حيوان. لم تُر حتى بجعة أو عقاب. كما أن أسراب الذباب قد هجرت القافلة. وإذا ما استعملنا العبارة الإعجازية لكين فقد أصاب الشلل حتى حيوية «ركابها الداخليين». كان الحر شديدًا والجو جافًا إلى درجة أن لحم فطائس الجمال الساقطة قد أصبح قاسيًا كالخشب. وعثر على جثة رجل منتفخة وخفيفة إلى درجة أنها ترفع باليد الواحدة: وحين تحريكها أصدرت صوت قرقعة وقرع كصوت الجلد.

دخل كين مكة المكرمة ثانية بمشاعر الارتياح. استقبلته شوارعها المنحدرة والضيقة بهواء موطن الإنسان. بعد أربعة أيام انطلقت القافلة إلى جدة حيث قضى قدر ما استطاع من الوقت مع أوربيين. أحس بنفور من الحياة التي كان يعيشها، وكره لقب «حاج» الذي كان ينادي أصدقاؤه بعضهم بعضًا به تفاخرًا.

في أثناء وجوده في جدة يلمح كين إلى معاملة الحجاج في السفن الإنجليزية. إذ يروي بعض الأفعال البربرية الرهيبة التي اقترفها ضباط وبحارة في حق الرجال والنساء على السواء. سمع قصة تُروى كطرفة حلوة عن اثني عشر حاجًا أُلقي بهم في البحر من على متن السفينة. وكذا فُعل بممتلكات الباقي ومؤنهم، وكيف أن الربان رفض أي مساعدة لدرجة أن بعضهم همَّ بإلقاء نفسه في البحر، وهنا تكرم القبطان فأعطاهم بضع دلاء من الفول.

لم ينزع كين عنه لباس التنكر الإسلامي حتى وصل بومباي. بعد بضعة أيام قابل الأمير يمشي في الشارع فلم يشأ التعرف إليه إما من باب عدم تمييزه له أو أنه من المعارف غير المرغوب فيهم.

لم يستنفد الحج مآثر كين. فقد كان أيضًا حطاب خيزران في غابات الخيزران في كوينزلاند[1] (Queensland). في سنة ١٣٢١ هـ (عام ١٩٠٣م) عمل (٩٥) يومًا بمعدل اثنتي عشرة ساعة يوميًا ليثبت أنه يمكن لعمل شاق كهذا في جو حار كهذا أن يقوم به رجل أبيض. حتى في هذا العصر التجاري والعلمي يوجد رجال يعيشون على تجارب غريبة. أجازف في القول: إن قلة هم القادرون على خوض تجارب كتجاربه، ولكن ليس بمقدور أحد أن يفوقه في ذلك وهو الذي سمع في مكة الصرخة المرعبة «نصراني».

(١) مقاطعة في أستراليا.

كريستيان سنوك هورخرونيه (Christian Snouck Hurgronje) (١٨٨٥م) (عبدالغفار)

باديا وبوركهارت وبيرتون وهورخرونيه أربع شخصيات في قصة استكشاف مكة. كان باديا أول رجل ذي مؤهلات علمية يصل إلى المدينة المقدسة، والمعرفة التي حصل عليها صححها بوركهارت وضخمها. استقطبت شخصية بيرتون القوية أنظار العالم. أما هورخرونيه فقد أكمل بدراساته الاجتماعية عمل بوركهارت.

ولد هورخرونيه في شمال برابانت[1] (Brabant) بهولندا في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٣ هـ (٨ فبراير عام ١٨٥٧ م). تلقى تعليمه في بْريدا[2] (Breda)، ودخل بصفته طالب لاهوت في ليدنْ في سنة ١٢٩١ هـ (عام ١٨٧٤ م). بعد سنة ١٢٩٥ هـ (عام ١٨٧٨ م) رسخ نفسه في كلية للغات السامية وآدابها. حينما حصل على درجة الدكتوراه سنة ١٢٩٧ هـ (عام ١٨٨٠ م) كان موضوع رسالته عن الحج في الإسلام في ١٨٨٠ - ١٨٨١ م درس في ستراسبورغ[3] (Strasburg)، وفي سنة ١٨٨١ م عُين محاضرًا عن المؤسسات الإسلامية في كلية تدريب ليدن لموظفي جزر الهند الشرقية. في سنة ١٣٠١ - ١٣٠٢ هـ (عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ م) حصل على إجازة من دون راتب ليسافر إلى الجزيرة العربية، وأمضى ستة أشهر في مكة.

---

(١) برابانت: إحدى المقاطعات الهولندية.

(٢) بريدا: مدينة هولندية تقع في جنوب البلاد قريبًا من الحدود البلجيكية.

(٣) ستراسبورغ مدينة فرنسية عاصمة منطقة الألزاس، تقع على الحدود بين فرنسا وألمانيا.

كان هدف هورخرونيه علميًا وغير شخصي[1]، تمنى أن يدرس أثر الإسلام في الحياة السياسية والاجتماعية، في مجتمع بكر لم تطله التأثيرات الغربية. إن إدراك الخطأ في منهجية المستشرق الأوربي الذي يستقي معرفته كلها من الكتب قد جعله يقيم مؤقتًا في المركز الروحي للعالم الإسلامي. كان تأثير هذه الإقامة في دراساته اللاحقة ذات نتيجة أكثر أهمية له من نتاجه الذي جمع في كتاب عن مكة.



كريستيان سنوك هورخرونيه

وصف أحد المحررين هورخرونيه بأنه عالم فذّ من الدرجة الممتازة. صحيح أنه أسهم بعدة مقالات مثيرة للجدل لمجلات دورية متعددة، لكن نكران الذات نغمة طاغية في كتابه عن مكة. إنه بالألمانية، ويتوقع في المقدمة خطرًا على أهل بلده من الكتابة بلغة أجنبية. يقول: «كتب آباؤنا باللاتينية ليخاطبوا بذلك جمهورًا أعرض»، وكان هذا ما يرمي إليه. لم ينتحر انتحارًا أدبيًا

(١) لقد كان بجانب هذا الهدف العلمي هدف آخر سياسي وهو دراسة تأثير الحج في حركات الاستقلال الإندونيسية، وأثر مكة في تصدير الثورة ضد المستعمر الهولندي في إندونيسيا، ولذا كانت له مهمة استعمارية بتكليف من الحكومة الهولندية.

من أجل متعته، مدركًا أنه من غير الممكن الكتابة بأسلوبين جيدين متطابقين كليًا في لغتين، تمامًا كما أنه من غير الممكن تقمص شخصيتين.

كان هورخرونيه عالمًا ضليعًا بالعربية قبل ارتحاله إلى الشرق، لكنه ولكي يكتسب لهجة محلية أمضى خمسة أشهر في جدة في منزل القنصل الهولندي. في مساء ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٠٢هـ (٢١ فبراير عام ١٨٨٥م) غادر جدة برفقة جاوي وأربعة جمال، وسافر عبر طريق حدًّا إلى مكة مارًا بحدا. دخلها في ٢٢ فبراير، ومكث هناك حتى أغسطس (ذو القعدة)، في شخصية طالب قرآن[١].

لا يعرف بالضبط الحالة التي دخل بها مكة هل دخلها بصفته أوربيًا متنكرًا، أم أنه دخلها بصفته معتنقًا جديدًا للدين الإسلامي، أم دخلها بنية اعتناق للإسلام في المستقبل. أيًا ما كان حاله فقد كان الغرض من إقامته المؤقتة بمكة دراسة الشريعة المقدسة. على أية حال، نَعِمَ بعلاقة حرة تمامًا مع جيرانه. ولم يثر الشكوك حتى حدثت حادثة سأسهب في الحديث عنها. يكتب قائلًا: «تعرفت إلى المجتمع المكي الحديث من مصدره الأساس، وسمعت بأذنيَّ هاتين ما تتعلم هذه الشريحة العالمية، وكيف يتحدثون في السياسة، ويناقشون أغراض العلم الواسع».

يصف أهل مكة بصفتهم خليطًا متعدد الأجناس، لكنهم يحملون صبغة عربية أكيدة مستمدة من الأشراف والسادة، والأسر المكية العريقة الأخرى، والمهاجرين الكثر من الحجاز ومن جراء الحروب. ويعود التنوع الشديد في

---

(١) الواقع أن هورخرونيه دخل مكة بصفته معتنقًا للإسلام، فقد أشهر إسلامه في جدة أمام القاضي وشاهدين وقد علم بذلك الوالي العثماني في جدة، وقد مكث مدة بدار السفارة الهولندية بجدة. حول هذا الموضوع انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، تعريب محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، منشورات نادي مكة الثقافي الأدبي، ص ١٨ - ٢١.

الأنواع إلى الزواج بين نساء البلد والأجانب. واللهجة الرئيسة لهجة غرب الجزيرة العربية، مع أن كل أمة تركت أثرًا لها من خلال الكلمات المستعارة. أما الزي المميز للمكيين فيمكن تمييزه من الأزياء الأخرى على الرغم من الأزياء المستقاة من الهند.

هناك أسباب فرعية أخرى لنمو السكان في مكة: للعيش بقرب العلماء، وللتكفير عن الذنوب، ولتطهير ثرواتهم غير المشروعة من خلال تخصيص مبالغ ضخمة منها لأعمال خيرية، ولقضاء آخر سني العمر على أرض مقدسة. أما سكان الداخل في الجزيرة العربية فنادرًا ما يستقرون في مكة خوفًا من التأثير البدعي لمجتمعها. لكن سكان مكة لا يرون أنفسهم كذلك. الحكم التركي مطلق، ومع ذلك لا تتخالط الجنسيات المتعددة. كما أن تعدد اللغات والعادات يعلل وجود المطوفين للأغراب. من بين «جيران بيت الله» - وهم أهل مكة - يتميز المنحدرون من جزر الهند الشرقية بالورع، وأكثرهم تحررًا من الدوافع الأخرى إذ لا يوجد متسول واحد بينهم.

يجتذب طموح التجارة الرابحة الكثيرين إلى المدينة المقدسة. ويبدو أن وجود كماليات الرفاهية المستوردة في بلد شديد الجدب من المعجزات للحجاج البسطاء. كانت الصناعات الحرفية بيد الأجانب. لذا كان باديا (علي باي العباسي) محقًا في ذمه انعدام الكفاءة الميكانيكية لدى السكان المحليين، فقد كان أمرًا يدعو إلى السرور أن يدّعى نجار أو صانع الغليون بأنه من الخارج، من أراضي الإسلام الحضارية الواسعة. تبع متسولون كثر كلًا من أصحاب الحرف والحجاج الأثرياء إلى مكة. ثيابهم طويلة مرقعة بألوان كثيرة. يحملون في يد وعاء أو قرعة جوز هند، وفي اليد الأخرى عصا، وهي الأداة الخشبية بحلقات معدنية تصحب خشخشتها توسلاتهم. ولكل متسول نبرة خاصة به، تراوح بين الذل والعجرفة. يتوجه بعضهم لمزاولة أعمال قليلة الأجر وممتهنة

حراس عمارات، أو للقيام بمهام عافها الخدم. يوجد في مكة عدة أحياء يقطنها البدو الفقراء الذين يعرف عنهم الثقة والأمانة. إن مما يثير الحزن الشديد أن يعمل ابن الصحراء كحارس عمارة. وآخرون من البدو يتولون النقل بالجمال، أو يبيعون غنمًا أو حليبًا أو سمنًا أو تمرًا، أو ما شابه مما كسبوه من أقاربهم في الخيام السوداء. كما يوجد في الجهة الجنوبية لمكة مستوطنة زنوج من التكروريين الأحرار أو العبيد المحررين الذين يعملون حمالين وعمال نظافة، وصانعي فخار، وصانعي حصر ومقشات من سعف النخيل. أخيرًا، بالنسبة إلى أولئك الذين استوطنوا في مكة لأسباب دنيوية فهم النساء، كنّ يعرضن أنفسهن للزواج، وفي بعض الحالات كن يتزوجن زواجًا مشكوكًا في شرعيته (زواج متعة).

تحدث مشاحنات عصبية بين أحياء مكة المختلفة لأسباب تافهة، كالشجار بين الصبية، وعداوات عرضية دائمة. أما الأسلحة المستخدمة في هذه المناوشات فهي الحجارة والخناجر والهراوات، والرجل بينهم هو الذي تبدو آثار الضرب على جلدة رأسه المسلوخة. في أيام العيد تكثر هذه المشاحنات، لأن الناس يجتمعون بأعداد كبيرة في أماكن بعيدة. وإذا ما قتل رجل فإن مشايخ الحيين يقومون بتسوية أمر مبلغ الفدية المترتبة. يقدر أقل مبلغ للفدية بثماني مئة دولار، ينبغي على كل ساكن في حي المذنب أن يساهم فيه. ينأى بنفسه عن هذه المشاحنات الأجانب والموظفون وعلية القوم. انحسرت المشاحنات العصبية شيئًا فشيئًا. وتحسر مرة مكي ورع غير مثقف على انحطاط الزمن في حضور هورخرونيه. قال: في الماضي لم يكن أحد يتصور أن يمر عيد الفطر دونما نشوب قتال. أما الآن فقد حل «الوقار المثير للضجر» محل أفعال مفعمة بالحيوية كهذه.

إن العمل الرئيس للمكيين من الشريف إلى أفقر متسول هو استغلال الحجاج. وهكذا يرى «ضيوف» الله، الوجه غير الحقيقي لجيران الله الذين

ينخرطون في الصراع المحموم في اللهث وراء الكسب[١]. وفي محاولة للتخفيف من وطأة الأمر يقدم هورخرونيه الحجة، بأن مكة لا تملك مصدرًا آخر للدخل. في أثناء الحج يصبح المكيون أشبه بالتجار الذين يخضعون للتغيير. لكنهم في غير وقت الحج أنيسون، ومضيافون حتى الإسراف، وأذكياء، ومغرمون بالتواصل الاجتماعي، والتسلية والنزهات. من بين الأسر الطيبة رجال نبلاء وأتقياء حق التقوى. من حيث الحماس الديني لا يبلغون حماس أهل المدينة المنورة. هناك مَثَلٌ يصف المدينيين أنهم جميعًا من أهل الآخرة، والجداويين من أهل الدنيا، أما المكيون فبين هؤلاء وهؤلاء.

بالنسبة إلى بعض الأشخاص المحظيين، تعدّ الأماكن المقدسة مصدرًا مضمونًا للكسب. فأسرة بني شيبة سدنة الكعبة بالوراثة. يبيعون كسوتها القديمة قطعًا صغيرة، ويوجبون دفع رسم على الحجاج الذين يدخلونها. تحدد السلطات تاريخ فتحها. لكنهم يستثنون من ذلك كبار الزوار. «لا بد أن الكعبة قد فُتحت اليوم» قول للمكيين إذا ما رأوا وجه أحد بني شيبة متهللًا.

كان العباسيون الذين ادعى باديا أنه من سلالتهم هم السدنة السابقين لبئر زمزم. لكن زوال هذا الحق جعل ماء زمزم مشاعًا بين الناس، وهذا ما أفضى إلى تكوين مؤسسة الزمازمة. المنصب مسيل للعاب إلى درجة أن شغله يتم بأمر من الشريف. يذهب كل حاج إلى الزمزمي الذي يوصي به مطوفه ويشتري دورق زمزم بدولار. يكتب الزمزمي اسمه عليه، ويحتفظ له به مملوءًا. هناك حجاج يحصلون على زمزم من البئر مباشرة يصلهم إلى سكناهم كل صباح.

يوجد سدنة لأماكن مقدسة أخرى، يدعون بصوت عال أمام الزائر ليردد خلفهم. كما يوجد أهم مؤسسة على الإطلاق، ألا وهي مؤسسة المطوفين.

---

(١) هذا الوصف العام لجميع أهالي مكة غير دقيق من المؤلف، ولا شك أن طبيعة مكة المكرمة وخدمة الحجاج جزء من حياة أهل مكة تجعل بعض الناس يصفهم بهذا.

لكن يغتني المكي في الحج من تأجير السكن (حيث لم يكن يوجد فنادق). وهذه ممارسة عالمية: يقوم أولئك الذين يعيشون في شقق بحشر العائلة في غرفة صغيرة ويؤجرون الباقي. ذكرت آنفًا أن صاحب المنزل يجمع في أثناء الحج من المال ما يكفي لدفع أجرة منزله لسنة.

حينما تشغل عائلة منزلًا يستقبل السيد ضيوفه في الصالة. ليس هناك خطر الالتقاء بنساء في الدور الأرضي. يجب ألا يغامر غريب بالصعود إلى الدور الأول من دون أن يكون معه أحد أفراد أصحاب المنزل. وحينما يؤجر المنزل بالأدوار، يعلن الزائر إلى الأدوار الأعلى عن وجوده بالنداء باسم من أسماء الله [مثل يا الله]، من قبيل إعطاء إنذار لأي امرأة قريبة من مكان وجوده لتتوارى عن الأنظار. تقتضي العادة أن تتعاون الأسر التي تسكن في المنزل نفسه بعضها مع بعض: «فالغرف والأثاث وحتى الثياب تعار». يعد فناء الدار (الخارجة) أكثر أجزاء البيت خصوصية، لذا يقسم بين الأسر.

تتمتع النساء في مكة بحرية أكبر مما هي عليه في معظم مدن الشرق حتى إن ضيفًا قد يتحدث مع زوجة مضيفه في الغرفة المجاورة. في ظل ظروف معينة، الطلاق سهل، ومعظم النساء المكيات يتزوجن أكثر من مرة في أثناء حياتهن. وما أكثر زواجات الحب؛ إذ حتى سن الثامنة أو العاشرة حيث تتحجب الفتيات، يسمح لهن بمرافقة الصبية. وغالبًا ما ينتج من هذه المرافقة الزواج. أما تعدد الزوجات فعادة مقتصرة على الأغنياء فقط.

ينظر هورخرونيه بعين الإعجاب والتقدير إلى المواهب العقلية للنساء. فقد أقنعته بضعة أمثلة بأن نتائج عظيمة تتحقق بالتعليم. أصر الرجال على أن استثناءات كهذه ظواهر إعجازية، وأن التعليم المنظم كمن يعطي الإجَّاص لمن ليس له أضراس. نحن - الغربيين - قد شهدنا إماطة اللثام عن يافطات تنادي بحق الاقتراع للمرأة، وقرأنا نعيًا من النساء في الصحافة اليومية لرجال

تجمهروا خارج سوق العمل، لذا لا يسعنا إلا أن نستنتج استنتاجًا معينًا من هذه الكلمات. ومع ذلك، كان الزوج المكي يستشير زوجته في شؤونه، ويثق كثيرًا بخبرتها ومعرفتها بالطبيعة البشرية. كانت الآية القرآنية التالية عالميًا معروفة بين نساء مكة: «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». كان يُستشهد بها للزوج الذي كان يشتكي من الإسراف.

تعتبر النوبات الهستيرية (الزار) شائعة بين النساء، وكانت تعزى إلى المس، أو ما يُعرف بالسحر، وتطرد العجائز الأرواح الشريرة. استُغلت المناسبة مسوغًا لعزف الموسيقا، وقبل أن تخرج الروح الشريرة تشترط في الأغلب قطعة مجوهرات أو ثوبًا جديدًا كشرط أساسي لتماثل المريض. وحينما ظهرت أعراض النوبة الهستيرية على الزوجة الشابة لأحد أصدقاء هورخرونيه - وهو طبيب - عالجها بقسوة وصرامة بصفته زوجًا أنانيًا، إذ أمر بمقلاة، وحمّى حديد الكي، وتمتم في نفسه قائلًا: إن الشياطين خلقوا من نار ويمكن أن يُطردوا بالنار. تكمن الصعوبة في تحديد البقعة الجلدية بدقة، لكن يمكن أن تُحل المسألة بكي الجسم بكامله. أفاقت الزوجة المرعوبة على الفور ووعدت بألا تأتيها نوبات بعد الآن. أكمل الزوج انتصاره بمقابلة مع طاردة الأرواح المحترفة على الدرج، حيث هددها بالموت لو دخلت بيته ثانية. هذه حالة استثنائية. لكن نظر أهل العلم شزرًا إلى يحدث في طرد الأرواح بالسحر من رقص وقرع للطبول وذبح لشاة. تتوسع رقعة الحرية الفائقة للنساء في مكة لتشمل حتى الإماء.

يعلق هورخرونيه ساخرًا بقوله: إن الإماء محترمات بصفتهن زوجات أكثر من النساء. هناك تفضيل للحبشيات اللواتي يحظين بخصائص جيدة كثيرة. وهن بألوان الطيف كلها من الأصفر الفاتح إلى البني الغامق. أما الشركسيات اللواتي يؤتى ببعضهن من القسطنطينية ويُبَعن في غير السوق العامة المفتوحة بأسعار باهظة فيعتبرن أبخس قيمة؛ وذلك لولعهن الشديد بالتظاهر. هذا وإن

أولاد الأمَة متساوون مع أولاد الحرة. ولا يلحظ الغريب عن مكة فرقًا في معاملتهم. أما أولاد الإماء الشركسيات الذين يصبحون خدمًا شخصيين أو من المقربين لعلية القوم فإنهم يُعتقون حينما يكبرون، ويمتهنون عملًا. أهم من هؤلاء في عمل العبيد الأفارقة الذين يأتون في معظمهم من السودان. ويقومون بالأعمال الشاقة من بناء وتقطيع الحجارة وما شابه. ويعيشون على أربعة بنسات في اليوم، ويقضون إجازاتهم الأسبوعية في قرع الطبول والرقص، وهم متعصبون في انتمائهم إلى الإسلام. وحينما يُعتقون يعملون حمالين للماء، أو في أعمال غريبة. لكنهم يفضلون البقاء في العبودية. أما الزنجيات فلتمتعهن بقوة بدنية فائقة فإنه يوكل إليهن الطبخ وتدبير المنازل. وتعد أعباء العبيد الكثيرين في منازل الأغنياء خفيفة: حتى الرجل الذي يؤدي كل الأعمال في منزل متواضع لا يُرهق. ويعامَل كل العبيد بصفتهم أفرادًا من الأسرة. والعبد الذي يشعر بعدم الرضا بعمله لا يرى حرجًا في البوح بذلك، ولا تلبث طلباته الملحة في إرساله إلى السوق وبيعه من جديد أن يستجاب لها. كما أن التسامح مع الطبقات الأدنى يشمل الأطفال أيضًا: سمع هورخرونيه بصبي ضربه والده؛ لأنه تصرف بفظاظة مع أحد العبيد. وتبقى الرابطة الأسرية حتى بعد تحرير العبد، ويوفر له سيده الأخير سكنًا. صحيح أن سوق الرقيق في مكة أضخم سوق في العالم، إلا إن هورخرونيه يتفق في الرأي مع كل الزائرين الأوربيين للحجاز، ما عدا باديا، أن عدد العبيد معتدل، وأن الإجراءات القمعية للقوى الأوربية قد آلت إلى شر أكثر من خير.

حقق التعليم تقدمًا ثابتًا. قبل وصول هورخرونيه بقليل أطلقت السلطات التركية الصحافة المطبوعة. وجلبت الكتب من مصر، كما تنشر أعمال المؤلفين المكيين هناك أيضًا. وعلى الرغم من وجود عدة قاعات محاضرات فإن المسجد (الحرام) يعد بمنزلة الجامعة. إذ عقب الصلوات الخمس تلقى محاضرات في الأروقة في المجالات الآتية: الشريعة، والنحو،

والمنطق، والعقيدة. أما علما التاريخ والجغرافية الدنيويان فلا يحظيان بأهمية بالغة.

وعلى الرغم من أن العادة تقتضي أن يمتهن الولد مهنة أبيه فإنه يسمح للغلام الذي يظهر ميلًا للتعليم باتباع ميوله. لكن لا يُتنازل بهذه السهولة؛ وذلك للكلفة. هناك إلزام بالاحتفاظ به لسنوات، ولعل العناية الإلهية تجلب في النهاية الرفعة والشرف، مع ربح يسير. معظم صبية الطبقة المتوسطة متشوقون لكي يصبحوا مطوفين. لدراسة الشريعة الإسلامية أولوية على الدراسات الأخرى كلها؛ إذ من المستحيل على المكي أن يخصص وقتًا طويلًا للجانب الديني. فالحرفي لا يحتاج من المعرفة إلا للمبادئ الأساسية لحرفته. أما العالم وحرصًا على مصلحة المجتمع فعليه أن يتسلح بعلم فن المنطق والفلسفة ليقارع الكفر والبدعة التي استشرت في السنوات الأخيرة. ولا يكفي هذا بمفرده لتحقيق الإيمان الحق، بل يجب أن يُنتزع من خلال طريقة من طرق حياة التصوف التي تشترط القيام بممارسات دينية كثيرة مثل: كثرة الصيام وقيام الليل والتفكر المركز في جوهر الذات الإلهية. لكن لا سبيل للوصول إلى أعلى مرحلة إلا تحت إشراف الأستاذ المرشد. وتختلف الأفكار الشائعة عن تلك التي يُعلمها العلماء. كان هورخرونيه حاضرًا في محاضرة أخبر فيها المفتي طلابه أن الخمر لم يكن دائمًا محرمًا من الله، وأنه في الأيام التي سبقت انقطاع الوحي النصراني، كان حتى المتدينون من الناس يشربون كأسًا وضمائرهم مرتاحة. فسأل أحد الحاضرين والرعب يتملكه: «هل كان الدين المسيحي شرعيًا في يوم من الأيام؟ أليس الخمر بحد ذاته نتاج الشيطان؟». فشرح المفتي وهو يبتسم المقصود من ذلك، وأضاف أنه يكفيهم أن يؤمنوا بأن الإسلام هو الدين الحق، وكل ما خلاه باطل.

من الفنون المبجلة فن تلاوة القرآن (أي التجويد). يقع على الأذن التي لم تعهده كضوضاء هرج ومرج. كان هورخرونيه مقتنعًا أن تلاوة واحدة كافية

للتأثير في الأوربي. ومع التكرار الكثير يمكن لروح التناغم أن تفهم وسط الضجيج. هناك قراء قرآن مشهورون. وهناك وقت مخصص للتلاوات أسبوعيًا وهو مساء كل يوم خميس.

من خلال صديقه الطبيب، استطاع هورخرونيه الحصول على معلومات عن مهنة الطب. إنها تُعَلَّم كأي حرفة أخرى. يلقن الطبيب تعليمات عملية لابنه، أو لابن أخيه، أو لتلميذه، يمكن لحلاق أن يُخرج الدم أو يُحجّم، لكنه يعدّ دجالًا إذا ما وصف علاجًا لاضطرابات مرضية داخلية. أما الطبيب فلا يحتاج إلى أن يشغل نفسه بالدواء فقط. إذ كان صديق هورخرونيه طبيبًا طيب السمعة، ومع ذلك كان يصلح ساعات وأسلحة، ويقطر عطورًا، ويطلي مجوهرات بالذهب، ويصنع ألعابًا نارية، وتعلم كيف يسك نقودًا، وكان خبيرًا في فتح مناجم الذهب والفضة. يذكر أن أحد أصدقاء سيتزن حاز بالمثل على قدرات ومهارات متنوعة. كان هذا الطبيب صاحب آلة كهربائية صغيرة ترجع إليها شهرته في الطب. ومع ذلك، ومما يدعو إلى الغرابة، كان جاهلًا بالوظائف الفيزيولوجية للأعضاء، ومفعول أدويته. لكنه كان داهية في التعلم من الأجانب، وفي سبيل مصلحته شجع على المعارضة العامة للطرق الإفرنجية الألمانية لجراحي الجيش التركي.

يمكن أن تكون المعرفة الناقصة لعلم من العلوم الدقيقة مسؤولة عن انتشار الخرافات المتعددة كالتمائم والتعويذات وما شابهها. هناك اعتقاد بأن الرقى تسبب مرضًا أو تعاسة، وأن معظم وفيات الأطفال عائدة إلى تبخير الأطفال لحمايتهم من الحسد. أتى بكثير من هذه الخرافات ماليزيون وجاويون وإماء إفريقيات وهنديات. لكن كثيرًا منها إرث الأبناء عن الآباء والأجداد - كما كان في عبادة الأوثان سابقًا.

ينتهي هورخرونيه إلى القول: «إنه الإسلام، الدين الرسمي الذي ألف

بين هذه العناصر المتعددة في المجتمع المكي الذي ما فتئ يتطور، وتتعدد أجناسه. هذا المجتمع ساعد على صهر كثير من العادات المضطربة والخرافات والاعتقادات التي أتى بها هؤلاء من بلادهم».

وكأي زائر لمكة المكرمة يمتدح هورخرونيه بوركهارت. فقد درس كتابه دراسة شاملة، ومن دونه لم يكن ليتسنى له وضع كتابه هو. أبرز بدقة التغييرات التي حدثت منذ زمن بوركهارت. وفي نقطة مهمة يفترق الرجلان. لاحظ بوركهارت أن المكيين نادرًا ما كانوا يستعملون الألفاظ النابية. أما هورخرونيه فوجدهم نابين بشكل متواتر، بما في ذلك الأطفال في سن السادسة الذين كانوا عند أدنى إثارة يتلفظون بأقسى العبارات.

كان هناك تغيير آخر ذو طبيعة جغرافية عن أيام بوركهارت: فقد زادت سعة المنطقة التي يقع فيها المسجد (الحرام) على ما كانت عليه. بعبارة أدق، ارتفع مستوى سطح المنطقة من حوله ببقايا الأتربة التي جرفتها السيول بعد الأمطار الغزيرة من الجبال المحيطة.

انقطعت دراسات هورخرونيه الاجتماعية والطبوغرافية بشكل مفاجئ. فعن غير قصد منه أصبح متورطًا في شبكة مكايد دارت حول حجر تيماء أو ستيلا، وهذا ما عرض حياته في مكة للخطر. لكن ما قصة ستيلا الشهيرة؟ في سنة ١٢٩٥هـ (عام ١٨٧٨م) أوكلت وزارة التعليم العام مهمة استكشاف نجد في الجزيرة العربية إلى الفرنسي الإلزاسي تعيس الحظ شارل هوبر (Charles Huber). في السنة التالية كان في تيماء، وكان أول ما وقعت عيناه على حجر يحمل نقوشًا سمع به دوتي لكنه لم يره. واستخدم في بناء جدار حول بئر قديمة، وكان سطحه متضررًا إلى درجة أنه لم يستطع سبر سوى بضعة سطور. لكن لا أحد يشك في قيمتها الثمينة. في سنة ١٣٠٠هـ (عام ١٨٨٣م) عاد إلى تيماء مع يوليوس يوتينج (Julius Euting) وهو مستشرق من ستراسبورغ

(Strasburg). يُعتقَد أنهما لم يكونا صديقين حميمين. مع ذلك اشتريا الحجر معًا، علمًا أن المبلغ الأكبر أسهم به هوبر. ويشير هذا الحجر إلى وجود دين جديد في تيماء ويظهر عليه أحد الآلهة يمثُل بين يدي القسيس. ويعد واحدًا من بين أثمن ثلاثة نقوش سامية. أخذ الرحالتان بصمات الحجر، ثم أرسلاه إلى حائل بأمتعتهما الشخصية. وافترقا عند العُلا، شد يوتينج الرِّحَال إلى القدس، ووصل إليها بعد مناوشة مع البدو. أما هوبر فعاد إلى حائل، ومن هناك إلى جدة. وعلى الرغم من التحذيرات توجه مرة أخرى إلى حائل حيث اغتاله أدلاؤه. أخبر خادمه محمد بقصة موته. كان من عادة هوبر أن يقوم ببعض الالتفافات مع اثنين من أدلائه. حينما وصل محمد إلى مكان التوقف المتفق عليه رأى أن سيده كان مستلقيًا على طوله تحت عباءة عربية وكأنه نائم لكنه كان ميتًا. أُطلق عليه النار وهو نائم. كان وازع الجريمة هو السرقة[١]. فاقه الجناة قوة فانسل من بينهم هاربًا. بقيت الجثة دون دفن عدة أيام. أخيرًا، حفر بعض عابري السبيل قبرًا لها ودفنوها فيه. أرسل هوبر من جدة نسخته من بصمة الحجر إلى رينان (Renan) في باريس، بينما أرسل يوتينج نسخته إلى نولدكه (Noldekeh) في برلين وأرفقها برسالة تقول: إنه اكتشف الحجر وأرسله إلى ألمانيا.

صادف أن نائب القنصل الفرنسي في جدة فيليكس دو لوستالوت (Felix de Lastalot) كان في باريس آنذاك، وكان مساعده المترجم في عدن. قام جزائري في المنفى اسمه سي عزيز الذي كان موجودًا في مكة آنذاك، بانتهاز الفرصة لرفع القضية إلى الجهات العليا. كان ماكرًا وغير متوخٍّ للدقة،

---

(١) يروي حمد الجاسر رواية أخرى حول موت هوبر فيقول: «حدثني الأستاذ فهد المارك أن الأمير محمد ابن رشيد أوعز إلى رجل من قومه يدعى (ابن شميلان) من قرية (الحليفة) من شيوخ بني رشيد حين أوجس في نفسه أن تصرفات (هوبر) لها غايات سيئة، فأمر (ابن شميلان) إذا بلغ بلدة (العُلا) خارج حدود بلاد ابن رشيد منهيًا رحلته أن يقتله، وأن يحرق كل أوراقه، وما معه ما عدا الأشياء التي يحتاج إليها من متاع وزاد ولباس فهي لابن شميلان نفسه، فنفذ أمر سيده. (انظر: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، تعريب علي عودة شيوخ، ج١، ص ٣٥).

لكنه فاق دو لوستالوت في حسه الطيب العملي. عرض خدماته على القنصلية الهولندية التي كانت تمثل فرنسا. لكن ما لبث أن وصل دي لوستالوت إلى جدة، وكُلف من الحكومة الفرنسية بمعاقبة قتلة هوبر واسترجاع أمتعته بما في ذلك حجر تيماء. كان عليه أن يقوم بهذه المفاوضات سرًا، لأن هوبر قام برحلته خلافًا لرغبة السلطات التركية. وكان دي لوستالوت أسوأ رجل تُوكل إليه هذه المهمة. فقد كان يفتقر إلى الحذق، ولا يتحدث لا التركية ولا العربية، وجاهلًا دون سبب بآداب السلوك الشرقية. تبادل المراسلات مع والي الحجاز بألفاظ تعوزها الكياسة، وهذا ما اضطره في النهاية إلى الاعتذار.

كان أذكى تصرف للوستالوت قبوله عرض سي عزيز بتسليم حجر هوبر وأمتعته إلى القنصلية الفرنسية، في مقابل ذلك كان لسي عزيز الحق في إعطائه تعويضات السفر طبعًا. كان المبلغ الذي اشترطه (٥٠٠) فرنك. لكن أعاق ذلك نشافة نائب القنصل وبخله. فكان على سي عزيز أن يلجأ إلى الوسيلة الشرقية الشائعة بقوله: إن «آخر» قد دفع له ضعف المبلغ. أما الاسم الذي ظن أن من المناسب استعماله في هذا الصدد فسوف يعلن عنه قريبًا.

ذكرنا شيئًا عن إقامة هورخرونيه في جدة قبل مغادرته إلى مكة. لم يكن طرفًا في «قضية هوبر»، سوى أنه ترجم رسالة أو رسالتين للقنصلية الفرنسية. كما أنه أرسل رسالة إلى صديقه القديم البروفسور يوتينج يطمئنه فيها على متاعه، وأنه من المحتمل أن يصل بأمان إلى جدة. من تلك اللحظة شك دي لوستالوت بتواطئه في خطة لضمان إرسال حجر تيماء إلى ألمانيا. احتج هورخرونيه على ذلك عبثًا. وبصراحة جذابة أكد دو لوستالوت رأيه بأنه لا ذمة لشخص عاقل راشد يدعي الحق في امتلاك اكتشافات زميل له: وعرف هؤلاء الأشخاص، وكلهم يشبهون بعضهم. ولخوفه من أن شكوكًا من هذا النوع قد تعرض حياته في مكة للخطر، كتب هورخرونيه عشية مغادرته جدة رسالة إلى نائب القنصل أقسم فيها بمعتقده ما كان لديه أي نيه في امتلاك حجر

تيماء، ولا فُوض بالقيام بذلك من آخرين. قوبلت الرسالة بروح ودية. ووعد دو لوستالوت بالمقابل بعدم ذكر إقامته بالمدينة المقدسة.

تعارف هورخرونيه وسي عزيز في مكة المكرمة. كان سي عزيز يهم بالمغادرة إلى حائل لتنفيذ مهمته. وهناك اشتكى لهورخرونيه «نشافة» نائب القنصل الفرنسي، واستقرض منه مئتي فرنك فرنسي نفقات له. استرد هذا المبلغ منه لاحقًا، ولم يتقابل الرجلان مرة أخرى حتى يونيو. بحلول يونيو حقق سي عزيز الغرض من رحلته وسلم أمتعة هوبر. كان ابن رشيد أمير حائل يحتفظ بكل شرف بمتاع أصدقائه الأجانب دون أن يمسها أحد في أثناء غيابهم الطويل، ثم سلمها إلى سي عزيز بصفته ممثلًا للحكومة الفرنسية. استمع هورخرونيه إلى قصة صديقه، وطمأنه كما فعل في أكثر من مناسبة أن السلطات الرسمية سوف تعوض له نفقاته. أُرسل الحجر إلى باريس، وهو الآن في متحف اللوفر.

هذه هي صلة هورخرونيه بحجر تيماء. لم يخطر في باله حينئذ أنه سيتمخض عنها الحادثة المخزية في سيرته، وعليَّ تدوينها الآن. في أغسطس (ذي القعدة سنة ١٣٠٢هـ) استُدعي للمثول أمام القائم مقام في مكة (كان الوالي مسافرًا إلى الطائف)، وتلي عليه بالتركية أمر بمغادرة مكة على الفور. أُعطي بضع ساعات لحزم حقائبه، ثم غادر إلى جدة برفقة اثنين من الجنود. في جدة أصبح السبب واضحًا له. في الخامس من يوليو (٢٠ رمضان)، ظهر مقال مثير في صحيفة «الزمان الباريسية[١]» يصف مصير هوبر، ويتهم هورخرونيه بمحاولة سرقة حجر تيماء. زُوِّدت المعلومات للصحيفة من دو لوستالوت، وترجم المقال إلى التركية والعربية.

ذكر المقال أن هوبر اكتشف الحجر في تيماء، والموضوع في جدار أحد

---

(١) المقال نشر في جريدة الزمان الفرنسية ونشرت ترجمة له في جريدة إسطنبول التركية، وقد أخبر القنصل الهولندي في جدة هورخرونيه بتفصيلات المقال.

المنازل[1]. اشترى المنزل وأخرج القطعة الأثرية وباع المنزل ثانية. يأتي بعد ذلك وصف وقائع رحلاته المتعددة التي انتهت بقتله، وأن مصدر النبأ هو دو لوستالوت في باريس. قبل عودة دو لوستالوت إلى جدة كانت قصة الحجر قد طُبل لها وزُمر في الخارج. ولهث وراءها يوتينج من دمشق، وعالم آخر هو الدكتور سنوك الذي كان في مكة المكرمة، ويحمل اسم عبدالغفار. حين حل دو لوستالوت في جدة فوض سي عزيز ليضع يده على الحجر. حُفت كل خطوة في الرحلة بالمخاطر. وصل حائل، لكن بعد أن شد رحاله إلى المدينة المنورة هجره العرب الذين كانوا في رفقته، في المدينة فُتش وسجنته السلطات المحلية. ولم يطلق سراحه حتى قدم ضمانًا بأن متاعه أُرسل إلى بغداد. وبعد مغادرته المدينة تفادى مطارديه بمضاعفة سرعته، والتحول إلى طريق جهة الجنوب. وبهذه الطريقة نجا من الاغتيال. تفشت الإثارة إلى أقصى درجاتها بين الناس وهب البلد برمته.

يقول هورخرونيه: إن نصف هذا المقال غير صحيح. إنه رواية مزيفة لاكتشاف الحجر وشرائه، والوصف غير المعقول لرحلة سي عزيز (يختلف عن وصفه المعقول لهورخرونيه) مسوغ لهذا الحكم. مهما يكن من أمر، سواء أكان المقال كاذبًا أم لا، ومع أن هورخرونيه كان قادرًا على تبرئة نفسه عند السلطات التركية لعدم وقوع اللوم عليه فيما فعل، ولدماثته التي لم تلق إلا الثناء، فقد جعلت مواصلة إقامته بمكة مستحيلة. فقد ذكره المقال بالاسم، وما لبث أن أُثيرت زوبعة حوله بأنه لم يعتنق الإسلام، وأوكلت إليه دراسة الشريعة الإسلامية في حين أنه نصراني متنكر في زي مسلم، هدفه سرقة التحف الأثرية. دع عنك المصير الذي ينتظر إفرنجيا ألمانيًا يُكتشف أمره في مكة.

(١) يروي حمد الجاسر عن فيلبي أن هوبر أوضح في مذكراته أن الحجر وجد في حائط قصر، وهذا ما اضطره لإرضاء صاحبه، بعد إرضاء أمير تيماء عبدالعزيز بن رمان بما بذل من نقود، وقد سمى فيلبي ذلك القصر بأنه (بيت الطليحان) (انظر: سنوك هورخرونيه، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤).

حاول دو لوستالوت أن يبرئ نفسه ويسوغ فعلته. وأنكر أن المقال في الزمان الباريسية قد كانت كلها من عنده. ومن باب الاقتباس الخطأ استعمل ضد هورخرونيه عبارة في رسالته إليه. إذ وعد هورخرونيه بأنْ «لا علاقة له» بحجر تيماء. فاستبدال لوستالوت «له» بـ «لا» قد أدى إلى اختلاف كبير في المعنى. أخيرًا أدلى دو لوستالوت بشهادة سي عزيز بأن العرض المقابل للحجر وهو ألف فرنك فرنسي قد أطلقه هورخرونيه. بالفعل استعمل سي عزيز اسم هورخرونيه، لكن لم يخطر في باله قطّ أن الكذب سيضر به. وحسب المعايير العربية كانت هذه طريقة في رفع السعر مسموحًا بها. حاول الآن هورخرونيه عبثًا أن ينتزع إنكارًا رسميًا من سي عزيز الذي كان منفيًا من الجزائر بأمر من الحكومة الفرنسية التي كانت تدفع له معونة شهرية. وكان يدفعها نائب القنصل، وما كان ليجرؤ على المخاطرة بخسارته لها. يدافع عن نفسه بقوله: «منهم أتلقى قوت يومي، فكيف لي أن أشهد حقًا أو باطلًا ضد قنصل الحكومة الفرنسية؟» أقصى ما كان يستطيع فعله أن يعد بقول الحقيقة للوالي شخصيًا إذا قابله وجهًا لوجه.

كان الرجوع إلى مكة المكرمة مستحيلًا على هورخرونيه. لذا أبحر من جدة. انقطعت دراساته وكان غير قادر على الحضور في أثناء الحج. أخذ معه الهيكل العظمي لهوبر، باستثناء عظام اليدين التي لم يجد لها أي أثر. أما الجمجمة التي ثُقب صدغها الأيسر برصاصة فقد دفنت في جدة. كان مصدر تواضع دو لوستالوت في السماح بإغداق الثناء على سي عزيز توصيةً من شخصين بارزين من بلده الجزائر.

جيرفاس كورتيلمون (Gervais Courtellemont)
(١٨٩٤م)
(الحاج عبدالله)

«ما وراء الشرق» المعروف للأوربيين، في منطقة نائية جدًا في قلب الجزيرة العربية، منطويةً في أعماق الصحارى وخفاياها، تقع مكة، مدينة الإسلام المقدسة. إنها واقعة في جوف واد موحش، محصور بين سلسلتي جبال جرداء وحادة الانحدار، وكأن الطبيعة تعاونت مع الدين الإسلامي لإخفاء أسرار هذه المدينة.

بدأ هذا الإيحاء الدقيق لسر خفي أعمق احتفظ به الشرق لنفسه يراود المصور الفرنسي - الجزائري جيرفيه كورتيلمون حينما استنفد كل البلدان ذات المنافذ السهلة. إذ سافر من طنجة إلى القسطنطينية، وكانت ثمرة أسفاره خمسة مجلدات في جعبته. وتشوق أن يجعل مكة والمدينة موضوعي المجلد السادس.

بالنسبة إليه يشبه سحر الشرق غبطة رجل عجوز بذكريات طفولته. يحن آباؤنا إلى العودة إلى البلاد التي ولدوا فيها، وإلى الأشخاص الذين عاشوا معهم، وحتى المدن وما تحويه من مقابر. إن الأديان، واللغات وأنبل الأجناس البشرية، وربما الإنسانية قاطبة، كلها انبثقت من الشرق. لكن سكان بلاد الشرق حيث كان تيار الحياة يومًا ما قويًا، هم الآن رقود. إنهم يمرون في حياة أشبه بحلم. ومع ذلك لم يتغير الشرق: السماء الزرقاء الصافية،

والرمال البنية الذهبية، والجمل، والعرب الرحّل. لم يفسدهم التواصل مع الحضارة الغربية، بأثوابهم المتعددة الألوان، ومطواعية حركتهم، وملامح الكبرياء على محياهم. بما أنه تشبع بهذه الأفكار المثيرة، احتضن كورتيلمون مشروعه لسنوات. أخيرًا أتت فرصة استثنائية لتنفيذه. في عام ١٨٩٠م (سنة ١٣٠٨هـ) في الجزائر، حين ساعد على إنقاذ عربي يدعى حاج أوكلي من السجن. تفشى الطاعون في الحجاز، فمنعت الحكومة الفرنسية رعاياها الجزائريين من أداء فريضة الحج.

كان حاج أوكلي قد زار مكة المكرمة ثماني عشرة مرة من قبل. وكان من عاداته شراء مواد وأشياء من هناك، يقوم يبيعها في فرنسا، ومصر والجزائر. وبما أنه كان في دمشق فإنه انضم إلى القافلة السورية، وفي تحدٍّ للمنع المذكور تابع الرحلة إلى مكة. في إثر عودته إلى الجزائر العاصمة اعتُقل، ولولا تشفع صديقه كورتيلمون لذاق ويلات السجن من الحرمان والإذلال التي ذاق مثلها شاب آخر عمل ما عمله الحاج أوكلي. وقد روى هذا الشاب الكثير عن المآسي في السجن، وهذا ما أقنع الحاج أوكلي بأنه لم يكن لينجو من المحنة قطّ؛ لذا أجزل الشكر والعرفان لكورتيلمون. وحين سماعه بمشروع سفره إلى مكة عرض نفسه دليلًا.

لسوء الحظ حدث تأخير لمدة سنتين في الرحلة. كان أوكلي يعاني أصلًا من آلام الكبد، وتلاشت قواه شيئًا فشيئًا. في هذه الأثناء ألح أصدقاء كورتيلمون المسلمون عليه بشدة للقيام بمغامرته. كانوا يعلمون حبه الصادق لهم، والذي ستدعمه معرفة دينهم عن قرب. فقدم طلبًا إلى وزارة التعليم العام للموافقة على رحلة علمية. لكن رُفض طلبه نظرًا للطبيعة الخطيرة للرحلة. على أية حال زودته الحكومة بجواز سفر باسم عربي، وشجعته بقوة على رحلة يتمخض عنها معلومات فريدة عن الحجاز. وكسلفه روشيه أُوكلت له مهمة

خاصة من الحكومة، لم يقدر على البوح بطبيعتها[1]. بوأه إنجازها بشكل مُرْضٍ منصب فارس نبيل في فيلق الشرف.

في ٣٠ من ذي الحجة سنة ١٣١٠هـ (١٤ يوليو عام ١٨٩٣م) وصل كورتيلمون السويس. ذهب إلى هناك ليقابل الحاج أوكلي. لكن أوكلي لم يكن موجودًا. أوضحت التحقيقات أن رجلًا بمواصفاته وكأنه جثة تمشي على الأرض قد شوهد في المدينة. لذا تردد في الليل على نُزُل كان يرتاده عرب غرب إفريقية للسكن. سُمح له بالدخول إلى غرفة كبيرة واطئة، تعج بالدخان، وقميئة ومملوءة بأشكال بشرية مضطجعة بثياب رثة بالية، لكن ردَّه راعي النزل المرتاب فيه. وعندما همّ بمغادرة الغرفة صاح بأعلى صوته يا حاج أوكلي فنهضت امرأة من الأرض وسألت من ينادي على أخيها. لكن عبثًا حاول كورتيلمون استخلاص معلومات منها عن أوكلي. كان كل ما حصل عليه جملة مضللة عن قصد مضمونها أن الحاج أوكلي غادر إلى القاهرة.

أصيب كورتيلمون باكتئاب شديد. وظن أنه لم يبق له شيء إلا العودة إلى بلده «مطأطأ الرأس». لذا ركب القطار إلى الإسكندرية. وعند وصوله فوجئ إلى درجة الذهول بالوجه الموحي بالموت الحاج أوكلي وهو يحدق في النافذة. ما لبثت الأمور أن اتضحت. ظن أوكلي أنه يموت، فتمنى أن يرجع إلى الجزائر. في غضون ذلك، سمع ببحث كورتيلمون عنه وتقصيه عن تحركاته فكان ينتظر يوميًا وصول القطار من السويس.

أخذ كورتيلمون صديقه على الفور إلى الفندق الرئيس في الإسكندرية. لكن أبدى المدير والخدم ترددًا في تلبية طلباتهما، فحُوِّلا في

(١) المهمات الخاصة في الأغلب هي التعرف إلى أحوال الحجاز، وتقديم تقارير استخبارية عن أحوالها تعين المستعمرين في خططهم الاستعمارية للبقاء أطول مدة ممكنة في البلاد التي يحكمونها.

اليوم التالي إلى سكن متواضع. وأُحضر طبيب نصحهما بتأجيل الرحلة لمدة عام.

قضيا الوقت في الترحال. وفي يافا أقام كورتيلمون علاقة صداقة مع القراصنة والمهربين، وعاش حياة العربي، وتعرف بشكل عام إلى عادات العرب.

في خريف عام ١٨٩٤م أبحر الاثنان أخيرًا من مدينة الجزائر على متن سفينة تدعى «الجلوكاس» (Glaucus) المتجهة مباشرة إلى جدة. استغرقت الرحلة عشرة أيام، وأمضيا معظم الوقت على سرير من خشب. لكن الاهتمام المشغوف برفقاء السفر عوض عن انعدام الراحة في السفينة. كانت السفينة «متحفًا حقيقيًا من الأعراق البشرية». وقف ضابطان تركيان واجمين بعيدًا عن الآخرين. أما باقي الركاب من أهالي بيروت. والقاهرة، والمدينة، ودمشق، ومصر العليا، والسودان وحتى اثنين من بدو الحجاز عائدين إلى بلدهما بعد إرشاد المحمل المصري في طريق العودة قد اجتمعوا على أساس صحبة السفر. عند نهاية كل يوم كان كورتيلمون يُتخم بعدد هائل من أكواب الشاي المجانية.

تكونت جبهة عامة ضد التعنت التركي. أقضت مضجع مسامع الضابطين المتعجرفين عبارات تلطيش عن أن النبي محمدًا ﷺ عربي، وأن سلطانهم لا حول له ولا قوة، وتعليقات أخرى على فظاظتهما.

وأكثر ما أسر كورتيلمون البدويان الحجازيان وشبههما وهما يرتديان ثوبين متدليين ومتوجين بعمامتين مذهبتين بملكين مجوسيين حقيقيين. كان يقوم على خدمتهما عبد زنجي كان ينشد في هجيع الليل الأناشيد البربرية لبلده الأصل.

رافق النزول من على السفينة في جدة فوضى عارمة. كان بمقدور الحاج

أوكلي أن يتخطى كل الصعوبات لولا أن كورتلمون الذي بقي في إحدى الزوايا يحرس الأمتعة عرضت له مشكلة. أثار مظهره شكوك بعض الجنود الأتراك الذين اقتادوه إلى مركز الشرطة وحققوا معه. كان مشهدًا محرجًا حضره أوكلي بعد دقائق. بدأ الضباط يتميزون من الغيظ لعدم قدرتهم على فهم لغة كوريتلمون العربية الجزائرية. نجح أوكلي في إعطاء ردود مقنعة وبدد شكوكهم. ومع هذا لوحقوا إلى مكان إقامتهما ورُوقبا. في المرة الثانية عندما خلّوا سبيلهما، ثم استُجْوِبا في الدكاكين. هز أوكلي رأسه وقرأ نذير شؤم في الأمر. أصيب بحالة من التردد الشديد، وكانت أول أمسية كئيبة يقضيانها في جدة.

أصاب استواء جدة وجدبها كورتيلمون بالاكتئاب. بنيت على سهل رملي واطئ دون ارتفاع في الأرض. وكانت أشجار الشوك الخضرة الوحيدة فيها. «لا شيء يلطف من انطباع الموت والعدم الذي يغمرك حالما تحط قدمك في هذه المدينة التي تنتمي إلى عصر بائد، هذه الواحة الحجرية المهجورة على ساحل أجرد». ومع ذلك لاحظ وجود منازل جميلة وحركة في الشوارع والأسواق المفتوحة (البازارات). وزار المقبرة النصرانية الصغيرة والمربعة، والمسورة بسور. نام بضعة قناصل أوربيين أو رحالة تعرضوا للاغتيال مثل هوبر نومتهم الأخيرة في الرمال الحارقة فيها.

كان أوكلي يتمتع بشهرة واسعة في جدة، وله شلة أصدقاء كبيرة. لكن شهرته لم تفد كورتيلمون شيئًا. ومن العادة لا ينشد الناس إلى شخص حذر كتوم لطيف بارد المزاج. إن العرب جنس بشري مضياف، ومع ذلك لم يتلق دعوة إلى غداء أو عشاء. في النهاية استطاع أوكلي أن يقنع صديقًا له أن يدعوه إلى منزله. يا للحسرة! لم تنجح المناسبة الترفيهية كما ينبغي لأن كورتيلمون ارتكب تجاوزات كثيرة. فقد كان الرز المقلي بالسمن يتهاوى من بين أصابعه. كما أنه وجد نكهة الصلصة بالسمك حارة لاذعة، وهذا دفعه إلى طلب الماء من

العبد باستمرار، وهي عادة غير واردة. شعر أوكلي بغضب شديد من شكواه، لذا عاتبه عتابًا شديدًا عند عودتهما إلى المنزل بقوله: «أنت لست ذكيًا، إنك لا تعرف كيف تتصرف بأدب على المائدة!»، ثم تفرقا للخلود إلى الراحة وهما حزينان. في آخر الليل أزعجهما زائر غير متوقع اقتحم عليهما خلوتهما. كان مضيفها منذ بضع ساعات. رجاهم بألا يذهبوا إلى مكة. فقد أوجد الخبز والملح اللذان تناولاه معًا روابط مقدسة بينهم. وخلافًا لكل عاداته غادر منزله بعد الغروب ليوجه لهما هذا التحذير: «لا تذهبا، فلن تعودا أبدًا، فرمل الصحراء مبيض بعظام أولئك الأشخاص أمثالكم الذين أصروا على النفاذ إلى مدينتنا المقدسة». رد كورتيلمون: «لقد نطقت بالشهادتين. ومن يهاجمني يعد مسلمًا شريرًا، وسوف يعاقبه الله». فانسحب المضيف مذعورًا.

كان نداء أصدقاء كورتيلمون الجزائريين «إذهب إلى مكة. فكلما تعرفت إلى ديننا أكثر سوف تحبنا أكثر!». لقد امتثل، ولا بد أنه شعوره الآن أشبه بشعور الصبي حبيس البيت في أول يوم له في المدرسة، الحقائق التي تغايرها الصورة المثالية التي كوَّنها أصدقاء حسنو النوايا، وصحبة نفوس شابة وكريمة ومنفتحة.

كان النصراني المسلم يكتسب صيتًا سيئًا في جدة. لذلك قرر أوكلي أن ينطلق إلى مكة المكرمة في مساء اليوم التالي. اختيرت الحمير اللازمة للرحلة، وليس الجمل، وهو «الحيوان الذي خلق خصيصًى للصحراء، ولبؤس هذه البلاد الميتة والعزلة التي لا حدود لها». بعد ارتداء الإحرام غادر الرفيقان جدة مع ثلة من الأصدقاء واتخذوا طريقًا أشبه بقاع نهر جاف. تتابعت الجبال الواحد بعد الآخر على طول الطريق كبراكين خامدة. «كتل صخرية سوداء ومسفوعة بحرارة الشمس، ومنزلقات أرضية تبدو وكأنها تحجب طريقك. وأنت تتقدم يفاجئك جرف يلف الطريق عبره تتبعه، وتجد نفسك من جديد في ميدان أسود ومدور وأشبه بفخ». حل الظلام فجأة وأرسلت النجوم والمجرات ضوءًا باهتًا

حزينًا تميز فيه الأشياء الشريرة على كل جانب بشكل مبهم. الآن دلت العين الحمراء لمصباح على موقع لجندي تركي على التلال، «بخياله المنعكس». أما الآن فجابوا السهول الرملية الفسيحة. طلع القمر، وإذ يلتقيهم رتل لا ينتهي من الجمال التي تطأ الأرض بخفة ورشاقة، تقودها أشباح، فتشابكت خيالاتهم معها. مرة أخرى، أحاطت بهم أنفاق مظلمة من الصخور. فكر كورتيلمون في نفسه: « ماذا سيحل بي غدًا؟». انشغل ذهنه بذكريات عن أسفاره ووطنه وعائلته وأصدقائه. فجأة نودي بالتوقف. لف رفاقه أنفسهم ببردات من الكتان وغطوا في النوم كجثث هامدة لا حراك فيها. عند الفجر جدوا في المسير، وعند انعطاف الطريق ودون سابق إنذار دخلوا مكة.

تقدم كورتيلمون مخترقًا مكة ومر داخل المسجد (الحرام)، حيث شمخت الكعبة أمامه جليلة. أخبره مطوفه أنه كان في مركز الأرض، حيث يتوجه المسلمون قاطبة في صلواتهم، وسمقت مباشرة إلى السماء. بعد أداء الطواف وتقبيل الحجر الأسود شرب كميات ضخمة من ماء زمزم. كما أشار مرافقه بكل وضوح،كان هذا هو الامتحان النهائي، لو شرب ماء من البئر المقدسة نصرانيًا لاختنق. أُتبعت هذه الشعائر بالسعي.

سكن كورتيلمون مع مطوفه على بعد خمسين ياردة من المسجد (الحرام). وقبيل الغروب عاد إلى ساحة الحرم الواسعة. وهو يستمع إلى أصوات المؤذنين العذبة وهم يؤذنون للصلاة من المنارات، أحس بشيء أشبه بالغِشية. كان كل شيء مخضبًا بضوء وردي، وكان الحجاج يطوفون بالكعبة بصمت كأشباح بيضاء.

حُجب الأفق بالجبال التي كانت تطوق مدينة مكة. وكانت نحو الشرق قمة جبلية (جبل خندمة) شديدة الانحدار وقد انعكس عليها ضوء الشمس وهي تغيب. وارتعش توهج محمر على الصخور. وأسقط على قباب المسجد

(الحرام) وأروقته مسحة إضافية مذهبة على الأرض. كانت الأبنية المقدسة تحترق. الكعبة وحدها وهي تقف بعيدًا هناك بجلالها وبثوبها الأسود، بقيت في منأى عن الروعة المتغيرة. اجتمع عشرون ألف شخص لصلاة المغرب. أضافت حركتهم البطيئة الموزونة في السجود قوة تأثير أشد للمشهد.

أعقب التوهج الذهبي توهجًا ورديًا خبا بدوره إلى توهج مخملي قرمادي غامق مشوب بالخضرة. ثم أرخى الليل سدوله على الممارسات الصوفية، وفي الظلمة نهضت أشباح بيضاء وبدت تطوف بالكعبة بصمت.

عاد كورتيلمون إلى سكناه وقد أرهقه إعياء الرحلة وإثارة المناسك. تأمل في تجاربه الغريبة في أثناء رحلته «غير الحقيقية»، وفي المدينة ذات الأسرار الخفية والخارقة للطبيعة التي نُقل إليها بمعجزة، وحيث كان يعيش مجردًا من الإطار العادي للحياة، ومتجردًا بما يشبه السبات الصوفي.

ما لبثت صحة أوكلي أن توعكت فلازم غرفته. لكن وجد كورتيلمون صديقًا عربيًا طيبًا من غربي إفريقية اسمه عبدالواحد. استمتعا بالتنزه معًا في مشاوير طويلة. ومن خلال صحبة كورتيلمون لهذا الشخص استطاع أن يحقق الغرض من رحلته إلى مكة. إذ بعد مغادرتهما للشارع الرئيس وشقِ طريقهما في الأزقة الضيقة وبعد مغادرة المنطقة المعمورة وآخر بيت وقف شامخًا على الأرض المرتفعة، تسلقا الجانب الأجرد من جبل أبي قبيس، وهو الجبل الذي يطل على المسجد (الحرام). حمل كورتيلمون سجادة صلاة على كتفه وكان يخفي فيها آلة تصوير (كاميرا). كان الموقف حساسًا جدًا. فعلى قمة هذا الجبل مسجد يعد مقصدًا جليًا للحجاج الذين تسلقوه بغية التعبد. وإغفال هذا الأمر كفيل بإثارة شكوك الحراس. ولكي يتعبد فإن عليه أن يمد السجادة وينكشف أمر آلة التصوير. وبسرعة البرق التقط كورتيلمون خمسة مناظر لمكة، كان أحدها للمدينة بطولها الكامل على طول تعرجات الوادي. لحسن حظه كان

حراس المسجد منشغلين عنه بمكان آخر. قام الاثنان على جناح السرعة بنزول الجرف المنحدر وتاها في الأزقة المظلمة.

بدأ كورتيلمون يعلل تصرفه الغريب لصديقه. شرح له بأن إحدى عينيه كانت أبعد نظرًا من الأخرى، وكانت آلة التصوير بمنزلة عدسة استعملها لتصحيح نظره. أجاب عبدالواحد أنه سبق له أن رأى مثل هذه الآلة في طنجة، ويعلم عن طبيعتها جيدًا. وحث كورتيلمون على إخفاء آلة تصويره، وإلا لشُك بأمرهما على أنهما جاسوسان سياسيان، فيُذبحان. كان عدد سكان مكة في أيام كورتيلمون مئة ألف نسمة. بنيت المنازل من حجر متين مدعوم بالقضبان ومزخرف بالمشربيات (الرواشين) المتقنة الصنع من الخشب الهندي. وكانت الشوارع تلقى الرعاية ومضاءة. أضيئت المصابيح طوال الليل، وكانت القمامة تزال على ظهور الحمير. كانت هذه الإصلاحات عائدة إلى شركة خاصة وإلى روح الواجب المتبادل، وليس للتجارة البلدية. سيسمع صاحب منزل في لندن بوخزة حسد لعدم وجود فوائد ولا ضرائب في مكة. كانت التجارة كلها تقريبًا في أيدي الهنود والجاويين. أما السلع المستوردة فكانت في جلها إنجليزية وهولندية.

كان يُؤتى بكتب الدين، والتاريخ القديم، والطب، والسحر وغيرها من الهند سنويًا. لم يكن هناك طباعة في مكة. وكانت الصحافة الوطنية في وضع مشلول. وبينما كان كورتيلمون مارًا بمبنى المطبعة الصامت الذي كان يحتويها، فكر مليًا: «ترى هل ستستيقظ هذه الأعراق البشرية النائمة يومًا ما؟ من يعلم ماذا يمكن لهذه المطابع أن تطبع يومًا ما، وما إذا كان الجهاد سيعلن بعد اليوم!» لكن استقطب الحي البدوي جل اهتمامه. كانت هذه «الأشباح السوداء» من الماضي خارج نطاق الحضارة في مدينة عربية عظيمة. كانوا رجالًا من الصحراء التي لا نهاية لها، والعزلة الميتة والآفاق البائدة المحترقة. ولم يكف عن الانشغال بأصل اللغة العربية. وكان على قناعة بأنها من أقدم

اللغات في العالم، بل وربما أقدمها على الإطلاق. كما أن بدو الحجاز هم الذين احتضنوا السر المدفون في القبور الصخرية لأجدادهم. لمدة طويلة قادمة سوف يمنعوننا من النفاذ إلى بلد ملكة سبأ، وكشف الأسرار الخفية لتلك الحضارة العربية القديمة الرائعة، والتي ما تزال غامضة بالنسبة إلينا، على عكس الحضارتين المصرية والآشورية.

قادت إحدى جولات كورتيلمون إلى مقبرة المعلا، حيث يقال إن أم محمد (صلى الله عليه وسلم) وزوجته عائشة[1] مدفونتان فيها. ويروي قصة جذابة عن هذه المقبرة. جعل أمير هندي من مكة موطنًا له، لعله يموت فيها ويدفن في البقاع المقدسة. وبذلك يحسن من فرص دخوله الجنة. لكن أكد له أحد أصدقائه المطلعين أنه على خطأ، ونصحه على سبيل الاختبار أن يبيت عدة ساعات من الليل في المعلا. فامتثل الأمير، وعند منتصف الليل رأى المقبرة مملوءة بالأشكال الشبحية العملاقة. كانت جمالًا شبحية عائدة من أصقاع الأرض، وتحمل على ظهورها رفات المستحقي للدفن فيها، والذين ماتوا في بلاد بعيدة ليحلوا محل أولئك غير المستحقين للدفن فيها، والذين لم يقوموا بأي عمل متميز سوى أنهم ماتوا في المدينة المقدسة. وأمضت الأشباح الليل كله في تفريغ الحمولة وإعادة التحميل حتى قبيل الفجر حيث مضت القافلة الشبحية في طريقها. فرأى الأمير الهندي عين اليقين أنه لا طائل من محاولته التلاعب بقدره ويكرَّم من دون عمل متميز.

يرتبط بهذه الأسطورة ارتباطًا وثيقًا أسطورة نجل ملك مغربي، أُسر في حرب مع النصارى، وأُجبر على العمل بستانيًا. وهناك وقع في حب أميرة نصرانية بادلته الحب. حاول كل منهما إدخال الآخر في دينه، لكن كانت الغلبة في النهاية له ودخلت هي في دينه. بعد مدة انكشف أمر حبهما. فذاق الأمير

---

(١) أم الرسول ﷺ دفنت بالأبواء وليس في مكة المكرمة، والأصح أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وليست السيدة عائشة أم المؤمنين.

مزيدًا من صنوف الذل والهوان، سُجنت الأميرة. ثم مرضت وماتت. في حالة من اليأس زار العاشق قبرها. وتمنى أن ينزع من رسغها سوارًا غير مرصع من الفضة كان قد أعطاها إياه ليحتفظ به للذكرى. حينما أزال التراب عن القبر تملكه الذهول والرعب أن رأى رفات عربي عجوز بلحية بيضاء وبجانبه سبحة بديعة من اللؤلؤ. وبما أنه لم يكن يدرك ما كان يفعل تمامًا، استولى الأمير على السبحة، ورد التراب، وفر هاربًا. هامَ على وجهه في بلدان كثيرة، وأخيرًا أتى إلى مكة. وحالما دخل الشارع الرئيس اندفع شاب نحوه وهو يصرخ: «يا منتهك حرمات القبور! من أين لك هذه السبحة؟ كانت سبحة أبي، وهي فريدة من نوعها، ودفنت معه في المعلا». تجمع الناس، وأُخذ الأمير للمثول أمام القاضي لاستجوابه. روى لهم القصة الحقيقية بحذافيرها. عندئذ توجه القاضي ومن معه إلى المعلا وفتحوا القبر، ويا لهول المفاجأة! لقد فعلت الجمال الشبحية فعلتها. هناك كانت ترقد الأميرة كالعذراء نائمةً، وعلى رسغها لمع سوار الفضة.

بعد أن أنجز عمله بدأ كورتيلمون يشعر أن الحياة في مكة المكرمة مملة بعض الشيء. ما عاد عنده أسباب العناية بالمنزل لأنه سلم مبلغًا من المال لمطوفه لسداد كل النفقات. أمضى وقتًا طويلًا في الصلاة والنوم، وتلقى تحذيرًا بألا يتمشى في الشوارع مرارًا وتكرارًا، أو يظهر فضولًا لمعرفة ما حدث في مدينة مكة. كان من العادة أن يصحو في السادسة صباحًا ويتناول فطورًا خفيفًا. كانت الوجبتان الرئيستان عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، وعند الثالثة بعد الظهر[1]. وكان الطهي متواضعًا، ومثيرًا للشهية لولا أن السمن كان سمن غنم فأضفى طعمًا دهنيًا ينفر منه الذوق الأوربي. كان الشاي يُتناول في أي

(١) كانت عادات أهل مكة أن يتناولوا الفطور في وقت متأخر، ولا يتناولون وجبة الغداء إلا قبيل العصر أو بعده بقليل نظرًا لشدة الحر ما بين الساعة العاشرة صباحًا والثالثة بعد الظهر.

وقت من اليوم. وكان يعود الفضل في استبدال القهوة بالشاي إلى الهنود. وكان على زائر الحجاز الذي يرقب العادات الاجتماعية بدقة أن يمتلك قدرة على شرب الشاي كالتي امتلكها الدكتور جونسون. لم تتوافق زيارة كورتيلمون إلى مكة مع الحج. لذا كانت عنده فرص أكبر ليراقب، على الرغم من أن خطر اعتباره جاسوسًا ربما زاد، لكن جعله يتسلح بحجة مضادة هي: «لو كانت نواياه سيئة لزار الأماكن المقدسة في أثناء الحج، ولضاع في الزحام بين جموع أمم الأرض كلها دون أن يلحظ أحد وجوده».

قبل مغادرته مكة قام كورتيلمون برحلة قصيرة إلى منى مع عبدالواحد. كانت المنازل في الشارع الوحيد مهجورة إلا من عبدين حارسين أسودين. لكن لا وجود لخضرة، وربما كانت أشبه بمحطة استحمام في جبال البيرينيه. توقع أن يكون وادي منى حيث الفوضى العارمة أيام الحج مرعبًا في مظهره، وفوجئ بأن لا أثر لجثث البهائم المذبوحة. فقد تحولت بفعل الرمال إلى رماد. وعزا تفشي الكوليرا في منى لا إلى الروائح المنبعثة من فطائس الأضاحي بالدرجة الأولى، بل إلى أنها [أي مشعر منى] كانت آخر الشعائر. إذ يصل الحجاج إليها منهكين ضعفاء نتيجة انعدام الاحتياطات الصحيحة، والمناخ القاتل، والإعياء، والزحام وما شابه ذلك.

كان الشعور بالارتياح باديًا على كورتيلمون عندما ترك مكة المكرمة أخيرًا. قبل ذلك ببضعة أيام استوقفه موظف في الشارع، وكما في جدة، اقتيد إلى مركز شرطة. أقنعت ردوده المحقق، لكن على حساب المشاعر غير السارة في نفسه. فلو أن أحدًا تبعه، وفتش غرفته، واكتشف آلة تصويره، ربما كانت النتيجة مأساوية. ولو أن السلطات قررت إجراء تحقيقات لفعلوا ذلك حينما كان يهم بالرحيل. لذا كانت تجربة سارة له أن يبدل شوارع المدينة المقدسة بالصحراء المفتوحة والحرية.

تمت الرحلة إلى جدة مع توقفات وكيله عند أكواخ بيع القهوة. كانت أهم مغامرات كورتيلمون على الطريق إلى جدة سقوطه سبع مرات من على حماره. ولم يواسه إلا قليلًا كلام البدوي المرافق له: «لا تغضب يا أخي، فأنت الذي لا تعرف كيف تركب حمارًا». حينما وصلوا إلى مشارف جدة، سقط البدوي نفسه من على حماره، فتملك كورتيلمون نوبة ضحك لمدة ساعتين. ربما تضافرت أسباب أخرى لإذكاء المرح في رجل نجا بجلده في الحال من مكة، لكنه وبخه أوكلي الحانق للفضيحة التي سببها، ولذوقه السيئ.

في جدة سارع كورتيلمون في إرسال برقية إلى أمه وأصدقائه في فرنسا. ثم زار القنصلية الفرنسية. ووصف هذه الزيارة بأنها «أحلى شعور في حياته». زار في أحد الأيام القلائل التي قضاها في جدة المقبرة النصرانية والتقط صورًا لقبر هوبر. لكن عندما يمم شطر منزله اكتشف آلة التصوير ضابط تركي. صادف أن الضابط كان أنيقًا في مظهره، وإلى ذلك يعزو كورتيلمون اللين الذي تعامل به مع الأمر، وسمح له بالذهاب في طريقه بسلام.

كانت رغبة كورتيلمون أن يتوجه إلى المدينة، وصعد مع أوكلي على متن سفينة شحن نمساوية إلى ميناء ينبع. تميز المظهر العام للأفق في ينبع بسلسلة ذات قمم من الجبال التي طوقت الصحراء من خلفها. تململت السفينة بين الشعب المرجانية إلى داخل الميناء. ولكن آنئذ تم التخلي عن مشروع الذهاب إلى المدينة بسبب صحة أوكلي المتدهورة التي لا تحتمل إعياء رحلة برية كهذه. أصيب كورتيلمون بخيبة أمل مريرة: فقد أُخبر أن جانبًا كاملًا لأحد أسوار تحصينات المدينة كان مغطى بنقوش يعود تاريخها إلى الحرب بين اليهود والنصارى.

أبحر إلى السويس، ومن هناك عاد كورتيلمون إلى مرسيليا. كان

الجو باردًا وممطرًا وهو يندفع من جديد إلى خضم عالم العمل، وفي رأسه تعشعش مناظر البلاد الحارة جدًا، والصحراء، والجمال، والعرب بعماماتهم المزركشة بشكل بهيج.

بعد عودته بقليل ألقى محاضرة في مدينة بوردو[1] (Bordeaux) عن رحلته. كان من بين الحضور شخصيات مرموقة مثل ليون روشيه الذي كان لا يزال حيًا في سن متقدمة غضة ندية، لا يزال يتمتع ببنية العدّاء القوية وقده المتزن.

ملحوظة: وصلتني معلومات أنه منذ رحلته إلى مكة أصبح جيرفيه كورتيلمون مسلمًا حقًا. ففي أوغسطس من عام ١٩٠٨م زار المدينة (المنورة) بمناسبة افتتاح خط الحجاز الحديدي بصفته مراسلًا خاصًا لمجلة «إيلاستراسيون» (Illustration).

(١) إحدى المدن الفرنسية تقع في جنوب غرب البلاد.

متفرقات

في كتاب نيبور نقرأ عن ثلاثة نصرانيين مجهولين في مكة. وصل نيبور إلى اليمن قبيل نهاية عام ١٧٦٢م. قبل سنتين أبحر بحار إنجليزي إلى مكة مع قافلة صنعاء في طريقه إلى أوربا عبر تركيا. وقبل عدة سنوات أخرى وصل إنجليزي إلى اليمن من أوربا، وركب السفينة سرًا إلى الهند.

كما سمع بجراح فرنسي شد الرحال إلى مكة مرافقًا «لأمير الحج» بصفته المهنية طبيبًا. قُطع له وعد بأنه لن يتعرض لمضايقات بسبب دينه. على أية حال، وبعد مسافة معينة، أُجبر على الكفر بالنصرانية، ثم استمر في رحلته.

في عام ١٨١٥م وقع توماس كيث الجندي في الفرقة (٧٢) الهايلاند الأسكتلندية في الأسر عند روزيتّا[١] (Rozetta)، وأُجبر على إشهار إسلامه. ثم أصبح مملوكًا، وارتقى حتى غدا آغا، وعُين حاكمًا للمدينة المنورة حسب قول السيد هوجارث: «أغرب منصب وصله حتى أسكتلندي». مات في قتاله ضد السلفيين بعد بضع سنين من ذلك بعد أن أدار المدينة المقدسة حسب الوصف الحاذق لصحيفة التايمز.

لا شك أن كيث هو الشاب الأسكتلندي المسلم، عثمان الذي ذكره جيه - إس - باكينجهام. كان باكينجهام في جدة عام ١٨١٤م، حيث قابل كلًا من

(١) روزيتا: هي مدينة رشيد المصرية الواقعة على مصب فرع نهر النيل في البحر المتوسط.

بوركهارت وعثمان. ويصف عثمان أنه مواطن من بيرث[١] (Perth)، وعازف طبل في فرقة أسكتلندية خلال حملة الجنرال فريزر (Frazer) المأساوية، وهزيمته في الإسكندرية. وبما أنه عين عبدًا لزعيم مملوكي فإنه ورث أملاكه عند موته. كان فاتح العينين، ببشرةٍ شقراء، وشعر بني فاتح مائل للصفرة. وكان لا يزال محافظًا على حبه لوطنه، وحمل معه إنجيلًا صغيرًا في جيبه، لكن غالبًا ما أثارت الضحك محاولاته للتوفيق بين التعاليم الإنجيلية والقرآنية. عندما تناول بوركهارت وعثمان العشاء مع باكينجهام، انتصب على الطاولة «الخمر المحرم». شرب بوركهارت منه دون تردد، لكن رفض عثمان ذلك حتى داعبه أخوه محمد بلطف، فشاطره كأسًا. مرض فيما بعد، فعزا ذلك إلى غضب الإله عليه.

إلى الكابتن جورج فورستر سادلير (George Forster Sadlier) يعود شرف رؤية المظهر الخارجي للمدينة دون تنكر في الدين أو الجنسية. في عام ١٨١٩ ألحق إبراهيم باشا النجل الأكبر لمحمد علي باشا هزائم ثقيلة بالدولة السعودية، وأوقع بهم خسائر فادحة، وأسر زعيمهم. أُرسل سادلير من شركة الهند الشرقية في مهمة إلى إبراهيم. كان ذاهبًا لتهنئة الباشا على انتصاراته، وعرض المساعدة من السفن البريطانية والرجال في قمع القرصنة في الخليج العربي، ومعاقبة السعوديين. نزل في مسقط ليجد أن إبراهيم باشا قد رحل إلى الداخل. ثم بدأ ما سمي بسباق المطاردة من موقع إلى موقع. كان إبراهيم باشا يتقدم بسرعة، وكان سادلير في إثره مع حاشية من الفرس والهنود، والبرتغاليين، والأرمينيين. في النهاية، وفي السابع من سبتمبر حطت الطريدة على الأرض في المدينة، لم يسمح لسادلير بالاقتراب من المدينة، لكن بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من المدينة أحس برغبة جامحة في الدخول إلى المدينة أو رؤيتها بشكل جيد. عرض عليه دليله التركي أن يأخذه عبر طريق إلى قرب

(١) بيرث إحدى مقاطعات أسكتلندا وتعرف باسم بيرث شير Perth Shire.

المدينة، لكن نصحه بالعدول عن ذلك لكي لا «ينزعج» بتعليقات الملتزمين المتحمسين والمؤمنين الورعين». من الغريب القول إن لباسه الأوربي لم يلفت الانتباه، ووصل إلى بئر [بل أبيار] علي سالمًا. اختلس نظرة على أسوار المدينة ومناراتها متجلية في موقعها الموشّى بالجص الناعم والطلاء الأبيض. لم يقع كل ما سمعه عن أهل المدينة موقعًا حسنًا في نفسه. وكتب يقول: «يسهم الذين اغتنوا فظنوا أن لهم الحق في أن يكونوا متعجرفين ويعاملوا حتى المتصدقين عليهم باحتقار وازدراء. في منازلهم يقال: إنهم مبذرون، مع أنه يضرب بهم المثل في الجشع». ولو عاش توماس كيث سنتين أخريين لحصل لقاء تاريخي مثير - كما تقول صحيفة التايمز - بين العسكري السابق والصاحب الصارم الذي حمل مهمة جلالته». غادر سادلبير آبار علي إلى ينبع. كان أول أوربي يعبر الجزيرة العربية من البحر إلى البحر.

يخبرنا بيرتون أن الأوربي الوحيد الذي زار مكة دون أن يرتد عن دينه كان حسب علمه بيرتولوتشي (Bertolucci)، القنصل السويدي في القاهرة. في طريقه إلى الطائف أقنع من يقودون جماله من البدو أن يقدموه متنكرًا، اعترف أن فزعه من انكشاف أمره منعه من تدوين ملحوظاته.

يذكر فون مالتزان (Von Maltzan) في قائمته بأسماء الحجاج إنجليزيًا يدعى تينيثْ (Tenett)، ذهب إلى مكة عام ١٨٦٣م ينتحل اسم حاج عبدالواحد. ثم عاش فيما بعد في مدينة الجزائر. ليس بمقدوري اكتشاف أي سجل لوقائع رحلته.

هناك إشارات متكررة «للمدينة الرهيبة» في صفحات دوتي. تزامن انطلاقه من دمشق في أسفاره إلى الجزيرة العربية عام ١٨٧٥م مع قافلة الحج السورية إلى مكة. وحصل على إذن بالركوب منها حتى مدائن صالح حيث كان سيجمع نقوشًا. سأل حاج متحمس باستغراب: «هل هذا هو الذي سيذهب مع

الحجاج؟». ووجه أحدهم لأولئك الذين ركبوا معه السؤال المهم الآتي: «أنتم الذين ترافقونه، ما صلته بالحج والحجاج؟ «حينما نصبت خيام القافلة، أوصوه بألا يخرج من خيمته. ما خلا ذلك لم يتعرض لمضايقات. كان طريق الحج حتى معان «مجموعة من ممرات مطروقة تصلبت من جراء دوس الجمال». لكن بعد معان، حينما ارتحلوا «فوق الهضبة العلوية لجزيرة العرب»، لا وجود لأثر الطرق والممرات، واهتدوا إلى طريقهم من خلال نقاط إرشاد. آنذاك سمع «صوتًا مرعبًا أمامه بأن نصرانيًا قد اكتُشف في القافلة، وسوف «يتم التعامل مع أمره». وحينما استقصى الحقيقة، لم يلق ردًا من أحد، ولم يسمع شيئًا بعد ذلك.

في أثناء أسفاره سمع قصة نصراني ضل طريقه إلى خيبر التي تبعد ثمانين ميلًا إلى الشمال الشرقي من المدينة، وفجأة اكتشف أنه دخل المدينة المنورة. اعتقل في الشارع وسيق إلى الباشا الذي أمر بإرساله مع مرافقة من الجنود إلى ينبع. حتى إذا عبروا البوابات دعا أحد الجنود النصراني للكفر بدينه. فرفض، وعلى إثرها أرداه قتيلًا. ثم سُجن القاتل، وأحيل الأمر إلى القسطنطينية ليتخذ السلطان قرارًا بشأنه: ما نتيجة القرار؟! الله أعلم. كما سمعنا أيضًا بغريب في المدينة أسرَّ لعربي أنه نصراني. رد العربي بقوله: «إذن لا تخبرني أي شيء آخر، وانتبه لنفسك جيدًا. وسوف لن أخونك، والآن أسأل الرب أن يكون معك».

حدث مرة أن كان دوتي في محطة حجاج في وسط الطريق إلى مكة حينما وصلت قافلة دمشق في طريقها إلى المدينة المقدسة. في اليوم التالي كان يقف في المْنزَل لمراقبة رحيلها، حينما بادره حاج بقوله: «لو تحدثت بالفرنسية، هل تفهم عليَّ؟» سأفهم عليك! لكن من أي بلد أنت؟ رأى وجهًا غريبًا شاحبًا بلحية كستنائية. أجاب الرجل: «أنا إيطالي من مدينة تورينو»(١)

(١) تورينو مدينة تقع في شمال غرب إيطاليا.

(Turin). «وما الذي أتى بك في هذه الرحلة الخطيرة؟ يا إلهي! ربما يقطعون عنقك. هل أنت مسلم؟» «نعم». إذن أنت تنطق بشهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والتي لن يسمعوني أنطقها، وأسأل الإله أن يبعدهم عني!» كان اسم الإيطالي فرانسيسكو فيراري (Francesco Ferrari)، وكان في نيته نشر وقائع أسفاره في إثر عودته إلى أوربا. في تغيير جذري لطالعه يصب في مصلحته أتى دوتي إلى «سورية»، وأبلغ عن فراري في قنصليته بسورية، وعبثًا فتش عنه في إيطاليا. يقول: «فكرت في الأمر على أنه من واجبي فعله، لأن من الأشياء المرعبة جدًا انعدام الثقة والأمان الذي يخيم فوق رأس أي غريب يخاطر بنفسه في السفر إلى مكة!».

لكن أروع قصة من قصص دوتي كانت تلك التي رواها له مراقب جمارك سابق على متن السفن في جدة. رأى مرة هذا العربي - واسمه أمان - بين ركاب إحدى السفن نصرانيًا جلس «ينتحب، وينتحب دون أن ينجح أصدقاؤه في تهدئته». فسأل عن السبب. فأجاب الغريب: «أنا! سألت الرب أن أزور مدينة بيته المقدس وأصبح مسلمًا. أليست مكة في ذاك الاتجاه؟ ساعدني يا أيها المسلم الطيب، فلعلي أذهب إلى هناك وأصلي في الأماكن المقدسة - لكن يا للحسرة! هؤلاء يمنعونني». في جنح الليل، تدبر أمان إخراج الرجل من السفينة بمركب صغير إلى الشاطئ، وأركبه على حمار إلى مكة. مع بزوغ فجر اليوم التالي دخل «الإفرنجي» المدينة المقدسة. نظرت ثلة من الناس في الشوارع إليه باهتمام بالغ وسألوه: «أيها السيد، ما الذي أتى بك إلى هنا وأنت كما يبدو عليك نصراني؟» ثم انطلقوا بالأهازيج والأفراح، وأخذوه إلى منازلهم لينطق بالشهادتين. بعد سنوات، كان هذا «المرتد عن النصرانية، أو الرحالة» يعيش إما في مكة أو في المدينة. قام أصدقاؤه بجمع المال له، ثم أصبح تاجرًا. ختم دوتي بقوله: «من يفسر لنا هذه الحكاية ومثيلاتها التي غالبًا ما نسمعها تتردد بينهم؟».

جرت وقائع آخر فصل في مسرحية دوتي عن تجواله في جزيرة العرب قرب مكة عند الحد الذي كان يسمح للنصراني بالاقتراب منه. شد رحاله من القصيم مع قافلة سمن متوجهة إلى مكة. وحين بقي مرحلة واحدة للوصول إلى مكة برزت المشكلة. من سيكون دليل دوتي في الطائف وجدة؟ بمحض المصادفة التقوا بعض الجمّالين من الطائف. فبدؤوا معهم مفاوضات. عرض أحدهم دون روية أن يقود دوتي إلى الطائف عبر مكة. فاستُدْرك بهذه الكلمات التي قيلت بنبرة «غريبة متعصبة»: «هذا لا يذهب إلى مكة». عندها انسحب الجمّال. ورفض آخر مرافقته إلى جدة. فوجد نفسه على وشك أن يترك مهجورًا في مكانه. يكتب فيقول: «كان علي الآن أن ألف حول دائرة لا يسمح الشرع الإلهي بأن تكون ملاذًا للغريب (غير المسلم)، وأغلق سكانها طرق الأرض المشاع، ويعتبر الشرير منهم من أهل الله، مقارنة «بأي نصراني». وصلوا إلى «عين الزيمة» بلدة بقرب حدود الحرم. فهناك أخيرًا، وفي كوخ قهوة، وُجد دليل: «زنجي وقور» حينما تم الاتفاق نهض وأخذ بيد دوتي. لكن فات الأوان. فقد تفشت الأنباء عن نصراني في المنطقة. وصل شريف غاضب يحمل سكين جزار طويلة وهجم على دوتي متظاهرًا بقطع عنقه، وتجمع أمامه حشد من جمّالي مكة المتسكعين وهم يرتدون سترًا قطنية زرقاء حتى الركبة ليروا ما سوف يحدث. تابع أصدقاؤه من قافلة السمن طريقهم إلى مكة وتركوه يواجه مصيره. لكن ثبات دوتي أرهب الشريف. وحاول المعتدلون من المتفرجين جهدهم لامتصاص نواياه الإجرامية. فصاحوا قائلين: «تذكر أن جدة قصفت بسبب إراقة دماء بعض أشخاص من شعب هذا الغريب. انتبه لما تفعله». فقرروا أن يقتادوه إلى الطائف لينظر شريف مكة في أمره. أنزل الشريف الغاضب سكينه، ولكن كان يشهرها لأدنى سبب، أو ينفجر بالسب والشتم والكلام النابي، ويهز قبضته في وجه النصراني. «أتى أيضًا شبان من المكان نفسه ليحدقوا في النصراني، وكأنه وحش كاسر وضع في القفص». قبل بلوغهم الطائف جُرد دوتي من نقوده وأشيائه الخاصة بما فيها مسدسه، وضرب

بوحشية على رقبته بعصا قيادة البهائم. لكن حال وصوله إلى الطائف بدا مصير الإعدام الذي كان على يقين من أنه سيلاقيه، أقرب إلى الذين اعتدوا عليه. إذ استقبله شريف الطائف الطيب بكل ما أوتي من لطف واحترام. وأعيدت له ممتلكاته الخاصة، وأُطعم وكسي، وأُعطي مرافقة آمنة إلى جدة.

أما تشارلز هوبر المشهور بارتباطه بحجر تيماء، فقد دنا من مكة أكثر من دوتي. وحين عودته من حائل في يونيو عام ١٨٨٤م، ابتاع الحجر وافترق عن يوتينج. وصل إلى السيل ومر بتجربة شبيهة بتجربة دوتي. لا أحد رضي أن يرافقه «خوفًا من الله». رمقه العرب بنظرات شريرة، وفكر بإرسال خادمة إلى مكة لإرسال برقية إلى القنصل الفرنسي في جدة لإرسال مرافقة له. على أية حال، عند «قبائل عتيبة» وُجد دليل. ما لبثوا أن انطلقوا في رحلتهم حتى قام باعتقاله ومرافقته جماعة مؤلفة من ثلاثة عشر رجلًا من «الحرس المدني». إذ شكوا فيهم أنهم لصوص لم يشاؤوا أن يمروا بجوار مكة. فكان لا بد من اقتيادهم إلى مكة وتسليمهم للعدالة. عند الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا وصلوا إلى ضواحي مكة. كان المعسكر في ظلام دامس، وأرسل هوبر اثنين من رجاله إلى السلطات لتقديم توضيحات. بعد انتظار مؤرق، عاد الرجلان بخفي حنين؛ لأن الوقت كان متأخرًا جدًا في تلك الساعة. في اليوم التالي أرسل خادمه محمد برسالة إلى الشريف، يطلب مرافقة حماية إلى جدة. في هذه الأثناء راقب كل ما استطاع مراقبته. لم تقع عينه على مبنى واحد يتبع للمدينة. لكن لا عجب في هذا إذ علق كثير من الرحالة على عزلتها، وتفاجئهم بطريقة دخول شوارعها، انحصر فضوله بما يحيط بها. فقد كانت الجبال جرداء وكانت ألوان ظلالها رتيبة: مزيج من الأصفر المتسخ، والبني الباهت، والرمادي الشاحب. تسلق أحد هذه الجبال، ورأى عن بعد دليله محمدًا عائدًا مع جندي يلبس زيًا أبيض. طرد هذا الجندي مجموعات الأشخاص الفضوليين الذين قدموا من مكة

لمشاهدة النصراني. أتى محمد بالأخبار السارة أنه دحض متهميه، وأن المرافقة العسكرية المطلوبة إلى جدة على وشك الوصول.

أخيرًا، أود أن أذكر قصة رواها لي في أثناء ترحالي في الشرق دليلي العربي. لاحظت مجموعة من الحجاج بين جدة ومكة، بعد توقف، أن أحد أفرادها استأنف السير على قدمه اليمنى فحسب. العادة العربية أن تفعل ذلك لكن على القدم اليسرى. بعد التدقيق ثبت أنه نصراني. لكن بما أنه لم يدخل حدود المدينة المقدسة، حُكم عليه بعقوبة أخف وهي «الفلقة»[1] على رجليه. أعاقته قدماه المرتضتان والمتنفختان عن بذل أي مجهود، ومات في الصحراء.

ملاحظة: في عام ١٨٨٢م أدى الحج الدكتور مورسلي (Morsly)، وهو فرنسي كان يعيش في الجزائر. يستحق الذكر كأوربي رأى مكة، لكنه اعتنق الإسلام بالفعل كما ينبغي.

---

(١) الفلقة قطعة خشب مربوط طرفاها بحبل، تدخل الأرجل داخل الحبل ثم يلف الحبل حول الأرجل من خلال تحريك قطعة الخشب وفي العادة يمسك بطرفي الخشبة رجلان ويقوم ثالث بجلد المعاقب على أرجله بالسوط.

سكة حديد الحجاز

خاتمة:

في أغسطس من عام ١٩٠٨م جاءت الأنباء أن سكة حديد الحجاز قد وصلت إلى المدينة، وبعد سنتين ستصل إلى مكة. بدايتها الرسمية من دمشق. لكن عندما يكتمل الجزء الأخير من سكة حديد بغداد عبر جبال طوروس، فسوف يكون بالإمكان أخذ القطار من القسطنطينية إلى مكة. وسيكون بذلك ربط بين العواصم الروحية والسياسة لسلطان تركيا.

طرحت فكرة سكة حديد الحجاز في إبريل من عام ١٩٠٠م، ووضعت موضع التنفيذ بعد أشهر قليلة. خصص السلطان بصفته خليفة للمسلمين ٥٠٠٠٠ ليرة ذهبية عثمانية، وناشد المتحمسين للدين الإسلامي في شتى أصقاع العالم. «زُكي المشروع بحماس منقطع النظير. وتقاطرت الأموال من كل حدب وصوب. على الرغم من الفساد العثماني الذي أصبح مضرب المثل، لم يبدَّد ولا حتى قرش واحد خصص للمشروع في أي شيء آخر. وتحت إشراف المهندس الألماني مِيسنَر باشا (Meissner)، انطلق العمل قُدُمًا بسرعة فائقة. وفُرز عسكر للخط الحديدي، وعلى الرغم من صعوبات ارتقاء جروف الحجر الرملي الشاهقة، ومد أميال من السكة الحديدية في أراضي يباب جرداء، تجرفها رياح عاتية حارقة، تم تحقيق رقم قياسي في سرعة الإنشاء. انتهت مهمة ميسنر باشا عند مدائن صالح على حدود الحجاز. فُضل أن يكون متعهد الجزء الباقي مسلمًا. وتحول إنجاز العمل إلى مختار بيك. وجرى حفل افتتاح رسمي للمشروع في المدينة، حضره عدد كبير من الشخصيات الإسلامية البارزة،

وأضيء قبر النبي ﷺ بنور كهربائي أول مرة، احتفاء بهذه المناسبة. نشرت صحيفة التايمز وصفًا لوقائع الاحتفالات عن طريق مراسلها الخاص. ومن الجدير ذكره أن الرسالة أُبرقت من مركز بريد المدينة المنورة بالإنجليزية.

وما هي إلا مسألة وقت حتى نسمع شخير عربة القطار، كما عبرت عنه التايمز، داخل حدود الكعبة. حتمًا سيؤدي ربط المدن الإسلامية المقدسة بمراكز الحياة الكبرى إلى إذابة بعض خفاياها في الخضم العالمي، وهو المشروع الذي نوقش مرارًا وتكرارً في أيام هورخورنيه، فستصبح الرحلة كلها ممكنة بالباخرة أو بالقطار. وسوف تختفي القافلة. ولو أراد النصراني أن يقحم نفسه، فلن يستدعى لتكرار تجربة كتلك الرحلة الموحشة المتهورة التي قام بها بيرتون من المدينة إلى مكة.

في أثناء افتتاح سكة الحديد، جاءت أنباء التغييرات السياسية الكبيرة في تركيا. قال أحد الخطباء المصريين في الاحتفالات مستعجبًا: «إن العناية الإلهية لم تأذن بوصول سكة الحديد إلى المدينة إلى أن منح الخليفة دستورًا لشعبه».

سواء أكان هناك اضمحلال في الروابط الفردية الاستبدادية في الحكم أم لا في المستقبل، فإن سكة حديد الحجاز قاعدة إستراتيجية في المقام الأول من الأهمية لتركيا. إذ بواسطتها ستستطيع إرسال مدد متواصل من القوات العسكرية إلى الجزيرة العربية.

فحتى الآن يرسَل العتاد والرجال عن طريق البحر إلى جدة. وأدى التهديد بقطع طريق الميناء أكثر من مرة إلى إسكات صوت السلطان في المحفل الأوربي. وسيفضي التخلص من نقطة الضعف هذه إلى تسهيل استقرار الجزيرة العربية، وربما سيؤدي ذلك إلى فتح ذاك البلد إلى الأوربيين. ولعل هذا الكلام في مجلة معاصرة لأحد الكتاب متفائل جدًا: «ها هو الآن يضيء

نور الكهرباء فوق ضريح النبي، ونأمل يومًا ما أن نرى بأم أعيننا مدن المسلمين المقدسة». هيا بنا ندعو، على أية حال، أن نرى نبوءته تتحقق.

ولو حصلت هذه الأمور، وتقاطر السياح إلى مكة، وفُسح المجال للمحظورات لترطيب الجو الناشف، وشمخت الفنادق في حي أوربي، فإن المسافر، الذي لديه صورة معلقة في مقصورته لمنظر طبيعي عربي غريب، سوف يسرح بخياله بمعدن أولئك الرجال الأوائل الذين سلكوا هذه الطرق الخطيرة. وسوف يستحضر في ذاكرته العصبة الصغيرة من النصارى الذين حاولت أن أروي قصصهم، والذين أخفقت تجاربهم كلها دون استثناء في «اجتثاث شأفة الرعب». وسوف يتفق معي أن على الإنسان أن يمتلك إما مزاج فيناتي المتقلب، أو البديهة الحاضرة لكين وخفة دمه، أو أرق الحياة التي جعلت روشيه يزدري الخطر، أو مضيافًا بالأصل كبيرتون، يرفض الإذعان في صراع كهذا مع قوى الطبيعة.

يمكن أن نقسم الرحالة النصارى إلى مكة إلى ثلاث فئات. الأولى، أولئك من فارتيما إلى بيتس، الذين قارنتهم سابقًا بسحابة من المناوشين على الخفيف. أما الثانية، فالمتحمسون للعلم - باديا، وسيتزن، وبوركهارت، وهورخرونيه. أما الثالثة، فالمولعون بالمغامرات أو حب الاطلاع - فون مالتزان، وبيكنيل، وكين، وكورتيلمون. ينتمي بيرتون إلى الفئتين الأخيرتين. أما والين فللأولى، لكنه مر بأيام عصيبة. أما روشيه فمن الصعب تصنيفه.

إن مما يرهق ذكاء معظمنا أن نجد مجموعة متنافرة أخرى من الرجال يرسخون أنفسهم لموضوع واحد. إنها صرخة بعيدة من بيتس الذليل إلى باديا الكريم، ومن بوركهارت العلمي إلى كورتيلمون الشاعري، ومن هورخرونيه الناكر لذاته إلى روشيه المتحدث عن سيرته

الذاتية، ومن وايلد الغامض إلى بيرتون صاحب الشهرة العالمية. يمكن تتبع هذه المفارقات في السجلات المدونة التي ما زالت باقية: بين تكديس بوركهارت للحقائق، وقصص كين الجذلة. لكن يكفينا أن أعضاء هذه الصحبة المختارة المختلفة في الزمان، والبلد، والهدف، والسجية، متحدون بالوثاق الأوحد لمغامرة غريبة.

الكشاف العام

(ا)

آدم (عليه السلام) ٦٤، ٧٥، ٢٣٤
آسيا ٢١، ٩٢
آسيا الوسطى ٢٨، ٢٣٦
إبراهيم باشا ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ٢٧٧.
إبراهيم (عليه السلام) ٦٤، ٦٦ – ٦٧، ٧٦
إبريم ١٥٢.
ابن رشيد (أمير حائل) ٢٥٩.
أبو (مدينة فنلندية) ١٩١.
أبوبكر الصديق (رضي الله عنه) ٨٠، ٢٠٥.
أبوالعباس السفاح ١٠٥.
أبير علي ٢٧٨.
إدوارد سعيد ٤١.
أدولف ثيير (المؤرخ) ١٧٧
أرسطو ١٥.
إزمير ١٠٣.
الأزهر ٣٠.
إسبانيا ١٧، ٢٠، ٢٦، ٣٥، ٩٣، ٩٩، ١٠٢، ١٠٦، ١١٧.
أستراليا ٤٩.
إسحاق ٧٦.
الإسكندرية ٣٥، ٤٤، ٨٣، ٩٠، ١٠٠، ١٠٢ – ١٠٣، ١٠٧، ١٥٢، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٨ – ١٩٩، ٢٢١، ٢٦٤.
إسماعيل (عليه السلام) ٦٤، ٧٦.
أسوان ١٥٢.
أغسطس رالي ٨، ٤١، ٥٤.
الأغوات ١٣٤، ١٤٥، ١٨٤.
إفريقية ٢٠، ٢٢، ٢٩، ٤٩، ٩٢، ١١٦، ١٢٢.
الأقصر ١٤٨، ١٨٨.
إكسيتر (مدينة بريطانية) ٩٩، ١٠٤.
ألمانيا ٢٦، ١٠٣، ١١٩، ١٩٣، ٢٥٧ – ٢٥٨.
أمريكا ٢٠.
الأناضول ١٠١.
إنجلترا ٧٣، ٩٩، ١٠٢، ١٠٤، ١٢٧، ١٣٠، ١٤٩، ١٦٤، ١٩٧ – ١٩٨، ٢٤٠.
الأندلس ٢٠، ٢٧.
إندونيسيا ٢٠، ٣٢، ٤٠، ٥٠.
أنطاكية ١٨، ٨٣.
أوربا ١٣، ١٦ – ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢ – ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٤٢، ٤٤، ٥٠، ٥٢، ٦٢، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٣٠، ١٩٣، ٢٧٦، ٢٨٠.
أوغسطس (أميرغوتا) ١١٩.

أوغسطوس (إمبراطور روماني) ١٥
أوكسفورد ١٩٦
أوكلي ٢٦٣ - ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٤.
إيبيريا ٢١.
إيراتوستين ١٥ - ١٦.
إيران ٣٠.
إيزيدور ١٧٠، ١٧٦، ١٨٩.
إيسلي ١٩٠.
إيطاليا ٢٧، ٩٣، ١٥٠، ١٦٠، ٢١٢، ٢٢٧، ٢٨٠.
إيلبا ١٣٠.
إيليوس غالوس ١٦.

(ب)

بئر زمزم ٦٦، ١١٢، ١١٠، ٢٥٠.
باب حامد ٢٠٨.
باب السلام ٧٥، ١٠٩.
الباب العالي ١٣٠، ١٨١.
باب الكعبة (الملتزم) ١٣٨، ٢١٣.
باب المسجد الحرام ١٣١.
بابل ٩٢.
بات (مدينة) ٢١٤.
باديا ليبليخ (علي باي العباسي) ٢٣، ٢٧ -٢٨، ٣٥ - ٣٦، ٣٨، ٤٠ - ٤١، ٤٥ - ٤٦، ١٠٥ - ١١٧، ١٣١، ١٣٤، ١٩٦, ١٤٥، ٢٢٣، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٨٦.
بارودا ١٩٦.
باريس ٢٩، ١٣٠، ١٦٠، ١٩٢، ٢٢٧، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠.
باكينجهام ١٢٥.
بانكر ٢١.
باولو ١٨٩.
باووأمبوا ١٩٠.
البحر الأحمر ١٩ - ٢٠، ٢٢ - ٢٤، ٦٣، ٩٧، ١٠٨، ١٨١، ١٨٥، ٢٢١، ٢٤١.
البحر الكاريبي ٧٣.
البحر المتوسط ١٧.
البحر الميت ١٢٠.
البرازيل ٩٣.
البرتغال ٢٠ - ٢١، ٢٦ - ٢٧.
برلين ٢٥٧.
بروسا ١٩٠.
بريدا ٢٤٥.
بريطانيا ٢٦، ٣١، ٥٢.
بسل ١٤١، ١٦٢.
بشير ١٧٠.
البصرة ٧١، ١٢٤، ١٩٣.
بطرس (القديس) ١٠٠
بطرسبيرج ١٩٢
بطليموس ١٦.
بغداد ٧١، ١٨١، ١٨٦، ١٩٣، ٢٦٠.
بلقيس (ملكة سبأ)٢٧١.
بلين (مؤرخ روماني) ١٦.
البندقية ٢١ - ٢٢، ٨٣، ٨٧، ١٩٠، ١٥١.
بنزرتي ١٢٥.
بنو شيبة ٢٥٠.
بني سويف ١٥٢.
بوابة الخان ٢٠٤.
بواتييه ١٧.
بوجود ١٨٩ - ١٩٠.
بودا ٩٤.
بوردو ٢٧٥.
بوركهارت جون يوهان لودفيج (الحاج إبراهيم)

٢٣، ٢٩، ٣٥ – ٣٨، ٤١، ٤٦ – ٤٨، ٧٠، ١١٣، ١١٧ – ١١٨، ١٢٠، ١٢٥ – ١٣٤، ١٣٦ – ١٥٠، ١٥٥، ١٨٤، ١٩٦ –١٩٩، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٧، ٢٨٦ – ٢٨٧.

بوساري ١٢٩، ١٣٠.

البوكيرك ٢١.

بولونيا الفرنسية ١٩٧.

بومباي ١٩٦، ٢٢٦، ٢٤٤.

بيبان ١٧٦.

بيت المقدس ١٨، ٢٨٠.

بيتر لوتشي ٢٧٨.

بيتس (جوزيف بيتس) ٢٣، ٣٧، ٤١، ٤٤ – ٤٥، ٩٩ – ١٠٥، ١١٣، ٢٤٣، ٢٨٦.

بيرتون (ريتشارد) ٢٣، ٣١ –٣٢، ٣٥، ٣٨، ٤١، ٤٧ – ٤٩، ١٠٥، ١٢٦، ١٦٤، ١٩٢، ١٩٥ – ٢١٠، ٢١٢ – ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٩ – ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٧٨، ٢٨٥ – ٢٨٧.

بيرث ٢٧٧.

بيرسك ٩٣.

بيروت ٣٥، ٨٣، ١٩٣، ٢٦٥.

بيسكاي (مدينة) ١٠٥

بيشة ١٦١، ١٦٣.

بيكر ١٠٣.

بيكنل هرمان بيكنل (الحاج عبد الواحد) ٢٤، ٤١، ٢٢٧ – ٢٢٩، ٢٨٦.

(ت)

التتار ٧٢، ١٢٢، ٢٣٦.

تربة ١٦١، ١٦٣.

تركي بن عبدالله آل سعود (الإمام) ٣٠.

تركيا ٦٥، ١٠١، ١٣٥، ٢٧٦، ٢٨٤– ٢٨٥.

تشارلز هوبر ٢٨٢

تغرينت ١٧٥.

تفنا ١٦٧، ١٧٦.

تلمسان ١٧٠.

التنعيم ٧٧.

توبي بلخ ١٦٧

تورينو ٢٧٩.

توماس كيث ٢٧٦، ٢٧٨.

تومبوكتو ٦٧.

تونس ٧١، ٧٨، ١٧٢، ١٩٠.

التيبت ٢٢٧.

التيجاني إبراهيم ١٧٢ –١٧٤، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥ – ١٨٦.

تيرز ١٧٥.

التيرول ١٥١.

تيماء ٢٥٦ –٢٥٧.

تينيت ٢٧٨.

(ث)

ثيوفراست ١٥.

(ج)

جاكلين بيرين ١٧.

جاكويسون ١٢٠.

جامع عقبة بن نافع ١٧٩.

جامعة برقة ٢٩.

جامعة جينا ٢٢٠.

جامعة غوتينجين ١٢٦.

جامعة كمبردج ٣٦.

جامعة لايبزيغ ١٢٦.
جامعة ليدن ٥١.
جامعة هانوفر ٢٢٧.
جامعة هلسنكي ٣٠.
جامعة هيلسينجفورز ١٩٣.
جاوا ٢٢٧.
جبال الأنديز ٢٢٧.
جبال البيرينيه ٢٧٣.
جبال الجزائر ١٦٨.
جبال الطائف ٢١٢.
جبال طوروس ٢٨٤.
جبال العقبة الغربية ٩٥، ١٨٢.
جبال الهيمالايا ٢٢٧.
جبريل (عليه السلام). ٦٦، ٧٦، ١١٦.
جبل أبي قبيس ٢٦٩.
جبل أحد ٥٠.
جبل خندمة ٢٦٨.
جبل عرفات ٧٥، ٨٧، ١٢٣، ٢١٥.
جبل كاترهورن ٢٢٧.
جبل كرا (الهدا) ١٢٩، ١٨٥.
الجحفة ٩٦.
جدة ٦٣، ٢٢٨.
جدة ٣٢، ٣٥، ٤٠، ٤٤، ٧١ – ٧٣، ٨٧، ٩٢، ٩٧، ١٠٠، ١٠٨ –١٠٩، ١١٥، ١٢١ – ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧ – ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢ – ١٣٤، ١٤٦، ١٥٨ –١٥٩، ١٦٣، ١٨٠ – ١٨١، ١٩٣، ٢١٩، ٢٢١ – ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٤٠ – ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٧ – ٢٦١، ٢٦٥ – ٢٦٧، ٢٧٣ – ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١ – ٢٨٣، ٢٨٥.
جران ٩٥.
جريجوري السادس عشر (البابا) ١٨٩.
جرينوبل ١٦٥.
الجزائر ٢٩، ٤٤، ٥٤، ٩٩، ١٠٣ – ١٠٤، ١٠٦، ١٣٣، ١٦٥ – ١٦٧، ١٦٩، ١٧١ – ١٧٢، ١٧٦ – ١٨٠، ١٨٩ – ١٩٠، ٢٢٠ – ٢٢١، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٦١، ٢٦٣ – ٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٣.
الجزر الأندونيسية ٣٢.
جزر الميناء ٦٣.
جزر الهند الشرقية ٢١، ٣٢، ٥١، ١٠١، ١٢٨، ٢٤٥، ٢٤٨.
جزر الهند الغربية ٩٣.
جزيرة آلاند ١٩١.
جزيرة سقطرى ٢١.
الجزيرة العربية ١٦ – ١٩، ٢٤، ٢٦، ٢٨ – ٣٠، ٣٣- ٣٥، ٣٨، ٤٢، ٤٦، ٤٨ – ٥٠، ٥٣، ٨٩، ٩٢، ١٠٤، ١١٤، ١٢٠ – ١٢٥، ١٢١، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٨، ١٥٢ – ١٥٥، ١٥٨، ١٦٣، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦ – ١٩٧، ٢٠١، ٢١٠، ٢٢٧، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٧٨ – ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٥.
الجمرات ٧٦، ٩٧.
الجمعية الجغرافية الإفريقية ٢٧، ٢٩.
الجمعية الجغرافية لسانت بطرسبيرج ١٩٣ – ١٩٤.
الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ٢٥، ٣١، ١٩٣.
جنوب إفريقية ١٩.
جنوة ٨٧.
جواد ديلوب ٧٣
جوتينجين ١١٩.
جورج فورستر سادلبير ٢٧٧
جوزيف بونابرت ٢٨، ١٠٤، ١١٦.
الجوف ٣٠.
جولد زيهر ٥٠.
جون ثيربيرن ١٩٨.

جون فرايركين ٢٤، ٤١، ٢٣١ – ٢٣٢.
جون كليك ١٠٢
جونسون ٢٧٣
جيرار ١٧٥
جيمس سيلك باكينجهام ١٢٤.
جيه إس باكينجهام ١٣٢، ٢٧٦ – ٢٧٧.

(ح)

حائل ٣٠، ٧١، ١٩٢ – ١٩٣، ٢٥٧، ٢٥٩ – ٢٦٠، ٢٨٢.
حافظ الشيرازي ٢٢٧
حامد ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٨ –٢٠٩
الحبشة ١٩، ٨٩، ٩٧.
الحجاز ١٩، ٢٢ – ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٤٦ – ٤٧، ٦١، ٧٢، ١١٤، ١٢٩، ١٤١، ١٤٨، ١٤٩، ٢٠٠، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٦٣،٢٥٨، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٤.
الحجر الأسود ٦٦، ٧٥، ١١٢، ١٢٢، ١٣١، ١٦٠، ١٨٣، ١١٢، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٦٨.
حجر تيماء ٢٥٦، ٢٥٨–٢٥٩، ٢٦١، ٢٨٢.
حجر هوبر ٢٥٨.
الحجرة الشريفة ٨٠، ١٤٥، ٢٠٦..
حدا ٢٣٢، ٢٤٧.
حدائق قباء ٥٠.
الحديدة ١٢٤
الحرب الأفغانية ١٩٦
حرب السيخ ١٩٧.
الحرم المكي ٥١، ٦٤، ٨٠، ٨٦، ٩٧، ١٠٢، ١٠٩، ١١٦، ٢٠٥، ٢١٤، ٢٨١، ٢٢٤.
حسن إبراهيم ١٨١ –١٨٢
حضرموت ٧١.
حلب ٣٥، ٩١، ١١٠، ١١٦، ١٢٠.
حمزة ١٢٤
حواء ٧٥، ٢٣٤.
حي التجار ١٣٤
الحي التركي ٩١.
حي الحمامات ١٣٤.
حي حوانيت القمح ١٣٤.
الحي الشرقي من المدينة المنورة ٧٩، ٢٠٥.
حي المطوفين ١٣٤.

(خ)

خديجة ١٦٦ – ١٦٨، ١٧٢، ١٧٤ – ١٧٥، ١٧٨– ١٧٩.
الخلفاء الراشدون ٦٤، ١١٤.
خليج بوثينيا ٣٠، ١٩١.
الخليج العربي ١٩ – ٢٠، ٢٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٧.
خليج العقبة ١٨.
خليل الرحمن ٤٩
الخندق ١٧٥.
خيبر ٢٧٩.

(د)

دارفور ١٣٨.
دالماشيا ١٥١.
داوتي ٦٠ ٢٥٦، ٢٧٨ – ٢٨٢.
دريسدن ٢٢٠.
دمشق ١١، ١٨–١٩، ٢٨، ٣٥، ٤٣، ٧٠، ٨٣، ٨٧، ٩١، ١٠١، ١١٦ – ١١٧، ١٢٠، ١٨١،

١٨٦، ١٩٠، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٣٦، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٧.
دوس دو روفيجو ١٦٦.
دوق أورليانز ١٧٦ -١٧٧.
دون كيشوت ٢٢٩.
ديفو نشاير ٢٤٠.
ديودور الصقلي ١٥.

(ر)

رأس ترافلجار ١٠٦
رأس الرجاء الصالح ٨٩، ٢٣٨.
رأس سبارتل ١٠٦
رابغ ١٢١، ٢٤١.
الربع الخالي ٣١.
روبين ٩٢
روزيتا ٢٧٦.
روسبر ميريمي ١٨٠.
روسيا ٢٦، ٢٨.
روشيه ليون (حاج عمر) ٢٣، ٢٩ - ٣٠، ٣٣-٣٤، ٣٨، ٤١، ١٦٥ - ١٨٨، ١٩٠، ٢١٨، ٢٦٣، ٢٧٤، ٢٨٦.
روما ٣٠، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ١٨٩.
الرياض ٣٠ - ٣١.
رينان ٢٥٧.
رين غروسيه ١٨.
رينولد دي شانيون ١٨ - ١٩.

(ز)

زاخ ١٢٠.
زبيدة ٢٠٨.
زمزم ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ١٠٠، ١١٣، ١٣١، ١٣٣ - ١٣٤، ١٨٣ - ١٨٤، ٢١٣، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٦٨.

(س)

سادلير ٢٧٨.
ساوثا مبتون ١٩٧.
سبأ ٢٧١.
سترابون ١٥.
ستراسبورغ ٢٤٥
ستيلا ٢٥٦.
سعود بن محمد بن سعود (الكبير) (الإمام) ٤٦.
سقراط ١٢٦
سكة حديد بغداد ٢٨٤.
سكة حديد الحجاز ٧١، ٢٨٤ - ٢٨٥.
سكوتاري ١٥١.
سليمان باشا ١٤٠.
سمرقند ٦٧، ٩٢.
سميرنا (مدينة) ١٠٣
السند ١٩٦.
سهل عرفات ٧٥
سهول ميتيجة ١٧٦.
السودان ٧٨، ٢٥٣، ٢٦٥.
سورية ٨٧، ٩٢، ١٢٧، ١٦٤، ١٨٥، ٢٨٠.
سوفيا نجرودن ١١٩
سوق الرقيق ١٣٤، ٢٥٣.
سولة ١٦٢.
السويس ٤٤، ٥٤، ٧١، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٨، ١٢١، ١٤٦، ١٥٥ - ١٥٦، ١٦٣، ٢٠١ -٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٦٤، ٢٧٤.
سويسرا ٢٢٧.

سيبويه ١٨٠
سيتزن (أوليريخ ياسبر) ٢٣، ٢٨، ٣٨، ٤١، ٤٦، ١١٩ - ١٢٧، ٢٥٥، ٢٨٦.
سيتي الأول ١٢١.
سيفيتافيشيا ١٨٩.
السيل الكبير ٢٨٢.
سيناء ٣٠، ١٤٨.

(ش)

شاتو بريان ١٠٧، ١١٧
شارع المسعى ١٣٥، ١٤١
شارل مارتل ١٧.
شارل هوبر ٢٥٦ -٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٧٤.
الشام ١٧، ٢١.
شبه جزيرة سيناء ٧١، ٩٥، ١٢٠، ١٩٣.
شبه الجزيرة العربية ١٥ - ٢٠، ٢٤، ٦١.
شبه القارة الهندية ١٩٦.
الشرق الأوسط ٢١.
الشرق القديم ١٣.
شركة كوك ٦٠.
شركة الهند الشرقية البريطانية ٣١، ١٢٥، ١٩٦، ٢٧٧.
شرم الشيخ ١٤٨.
الشريف (شريف مكة) ٣٣- ٣٤، ٤٥، ١١٠ - ١١١، ١١٥، ١٢٨، ١٨٤،١٨٠ - ١٨٨، ٢١٥، ٢٣٦، ٢٥٠، ٢٨١-٢٨٢.
الشريف غالب ٤٧، ١٥٩.
شكسبير ٥٥.
الشوبك ١٨.

(ص)

صاليم بيك (زعيم المماليك) ١٥٣ -١٥٤.
الصحراء السورية ٣٠.
الصحراء العربية الكبرى ٦١.
صحراء نجد ١٩٢ - ١٩٣، ٢٠٨.
صحن الحرم ٢٣٢.
صحيفة التايمز ٢٢٩، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٥.
الصفا ٧٥، ١٢٢، ١٣١، ١٣٣، ٢١٧.
صلاح الدين الأيوبي ١٨ - ١٩، ١٠٧.
صنعاء ١٢٢، ٢٧٦.
الصين ٢٠،١٧.

(ط)

الطائف ٧٥، ١٢٨-١٣٠، ١٦١، ١٨٤-١٨٦، ٢٥٩، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٢.
طرابلس ٧١، ٨٣، ٩١، ١٠٧، ١٩٠.
طريق الحج الشامي ٤٧.
طريق الحج المصري ٤٧.
طريق الحج اليمني ٤٧.
طريق الهند البحري ٢٠، ٤٣.
طنجة ٥٤، ٦٧، ١٠٦، ٢٦٢، ٢٧٠.
الطور ٧٣.
طوسون ١٢٨، ١٤٣، ١٥٤ - ١٥٧ - ١٥٨، ١٦١، ١٦٤.

(ع)

عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) ٢٧١.
عبدالقادر الجزائري (الأمير) ٢٩، ١٦٧ - ١٧٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٩٠.

عبدالله السقاط ١٢١ - ١٢٢.
عبدالواحد ٢٦٩ - ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٨.
عتيبة ٢٨٢.
عدن ١٩، ٢١، ٢٦، ٧٥، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ١٢٤، ٢٥٧.
العراق ١٧.
عرفات ٤٥، ٤٩، ٧٥ - ٧٧، ٩٦، ١٠٢،١١٢ - ١١٣، ١٢٣، ١٣١، ١٣٦، ١٣٩، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٧،٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٦-٢٣٨.
العقبة ١٨، ٩٥.
عقبة بن نافع ١٧٩.
العلا ٢٥٧.
علي باي عباسي = باديا ليبليخ
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ٦٤، ٨٠، ١١٦، ٢٠٥.
عيسى (عليه السلام)٨٠.
عين الزيمة ٢٨١.
عين ماضي ١٧٢ - ١٧٥.

(غ)

غلاسكو ٢٢٦.
غليوم آدم ١٩.
غوا ٢١.
غينيا ٩٣.

(ف)

فارتيما (لودوفيكو) ٢٢ - ٢٣، ٢٦ -٢٧، ٣٦ - ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٣ - ٤٤، ٧٨، ٨٣ -٨٤، ٨٦ - ٨٨، ٩٧، ١٠٥، ١١٣، ٢٨٦.
فارس ١٧، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ١٩٣، ٢٢٧.
فاسكو دي جاما ٢١ - ٢٢، ٢٧، ٤٣.
فاطمة ١٥٨، ١٦٤.
فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسلم) ٨٠، ١٦٩، ٢٠٥.
فاطمة الجورجية ١٥١.
فالي (المارشال) ١٧٦ - ١٧٨.
فرانسيسكو فيراري ٢٨٠
فرنسا ٢٩، ٢٦، ٢٨- ٣٠، ٥٤، ٧٣، ١٠٢، ١١٦، ١٢٧، ١٥٠، ١٦٥، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٥، ١٩٠، ١٩٣، ٢٦٣، ٢٧٤، ٢٨٥.
فريزر (جنرال) ٢٧٧.
فلجينس فريسنيل ١٨٠، ١٨٤ - ١٨٥، ١٨٩.
فلسطين ١٢٠، ١٥٥، ١٦٤.
فلورنسا ٢١٤.
فنلندا ٣٠، ١٩١ - ١٩٣.
فون زاخ ١١٩.
فيانتي (القسيس) ١٥٠.
فيرارا ١٥٠.
فيروفانتي ١٨٩.
فيكتور هوجو ١١٧.
فيليكس دو لوستالون ٢٥٧- ٢٦١.
فيناتي (جيوفاني) (الحاج محمد) ٢٣، ٣٩، ١٥٠ - ١٥٥، ١٥٧ - ١٦١، ١٦٣ - ١٦٤، ١٩٦، ٢٨٦.

(ق)

قافلة الحج السورية ١١، ٧١،، ١٣٩، ١٦٠، ١٨٦، ٢٠٨، ٢٦٣، ٢٧٩.

قافلة الحج المصرية ٦٥، ٩٥، ١٠١، ١٣٩، ١٦٠، ١٨٢، ١٨٦.
قافلة الحج المغربية ٧١، ١٠١.
قافلة الحج النجدية ٧١، ١٢٣.
قافلة الحج الهندية ١٠١.
القاهرة ١٩، ٢١، ٢٨، ٣٠، ٣٥، ٤٤ - ٤٥، ٦٥، ٧١، ٨٣، ٩٠-٩١، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٢٠، ١٠٧، ١١٦، ١٢٠، ١٢٨ - ١٢٩، ١٣١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٢ - ١٥٥، ١٥٨ - ١٥٩، ١٦٣ - ١٦٤، ١٨٠ - ١٨٢، ١٨٩، ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩ - ٢٠١، ٢٢٠ - ٢٢١، ٢٢٧، ٢٤٠، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٨.
القبة الخضراء ٧٩، ٢٠٥، ٢٠٩.
قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ٤٤، ٧٩ - ٨١،٩٧، ١٠٢، ١٢٢، ١٤٣، ١٤٥ - ١٤٦، ٢٠٥، ٢٢٨، ٢٨٥-٢٨٦.
قبر هاجر ٦٧.
القدس ٣٥، ٩٠ - ٩١، ٩٧، ١١٦، ١١٧، ١٥٥، ٢٣٤، ٢٥٧.
قريش (قبيلة) ٦٠، ٦٩، ٧٩، ١٣٤.
القسطنطينية ٥٧، ٧٠، ١١٦، ١٢٠، ١٣٠، ١٣٣، ١٤٥، ١٦٧، ١٧٦، ١٩٠، ٢٤٠، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٧٩، ٢٨٤.
قصر خديجة ١٦٧.
قصر الشريف ٤٥.
القصير ١٤٧.
القصير ١٨٨، ٢٢١.
القصيم ٤٧، ٢٨١.
قلاوون (السلطان) ١٠٧.
قلعة بلقا ١١٧.
قنا ١٨٨- ١٨٩، ٢٢١.
قناة السويس ١٢١.
القنفذة ١٥-، ١٦١، ١٦٣.
القيروان ١٧٩- ١٨١.

(ك)

كابول ١٩٩
كاثرين ١١٩
كارلايل ١٢٦، ١٩٥.
كاسيس ٩١ - ٩٢.
كانديا اليوناني ٩٠.
كريستيان سنوك هورخرونيه ٢٤، ٣٢، ٣٥، ٣٨، ٤٠-٤١، ٤٧، ٥٠ -٥٢، ٢٤٥ - ٢٤٧، ٢٤٩ - ٢٦١، ٢٨٥-٢٨٦.
الكعبة المشرفة ٢١٢ ،٤٥، ٤٨ - ٤٩، ٦٤ - ٦٩، ٧١، ٧٥- ٧٩، ٨٥، ١٠٠ - ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١٣٨ - ١٣٩، ١٤١، ١٦٠، ١٨٣ -١٨٤، ١٩٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦ -٢١٧، ٢٢٢ - ٢٢٤، ٢٢٦ - ٢٢٨، ٢٣٢ -٢٣٣، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٥٠، ٢٦٨ - ٢٦٩، ٢٨٥.
كلكتا ٢٣١.
كورتيلمون (جيل جرفيه - جيرفاس) ٢٤، ٣٢ - ٣٣، ٤١، ٥٣ - ٥٤، ١٩٠، ٢٦٢ - ٢٧٥، ٢٨٦.
كولمبس ٢٧.
كولوساس رودوس ٨٥.
كومبون ٣٣.
كوينزلاند ٢٤٤.
كيث (عثمان) ١٣٢، ٢٧٦- ٢٧٧
كير جارتن ١٢٦.
كيمبرج ١٢٧.
كين (وليام) ٣٨، ٤١، ٢٣١ -٢٣٢، ٢٣٤ - ٢٤٤، ٢٨٦ - ٢٨٧.

(ل)

لكهنو ٢٣٩.
لندن ٢٧، ٣٦، ١٠٦، ١٢٧، ١٩٣، ١٩٨، ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٧٠.
لوبلانك (فينسنت) ٢٢ – ٢٣، ٣٩، ٩٠ – ٩٣.
ليبيا ٢٩.
الليث ١٦٠.
ليجهورن (مدينة) ١٠٣.
ليدن ٢٤٥.
ليزلي ستيفن ١٨١.
الليفانت ٩٠.
ليمسون ١٠٢.

(م)

مخا ١٢٤.
مؤسسة المطوفين ٢٥٠.
ماكينتوش ٢٤٠
مالتزان (إينريك فون) (عبدالرحمن السكيكوي) ٢٤، ٤١، ٢٢٠ – ٢٢٦، ٢٧٨، ٢٨٦.
مالطا ٩٣، ١٢٧، ١٨٠ – ١٨١، ٢٢١.
مبروك (البريكة) ١٥٧ – ١٥٨.
متحف اللوفر ٢٥٩.
المجر ٩٤.
محمد (صلى الله عليه وسلم) ١١، ١٣، ١٨، ٢٠، ٦٩–٧٠، ٧٦، ٧٩، ٨١ – ٨٢، ١٠٥، ١١١، ١١٦، ١٣٤، ١٩٦، ٢٠٥–٢٠٧، ٢٢٤، ٢٦٥، ٢٨٠.
محمد بن عبدالوهاب ١١١.
محمد التيجاني ١٧٢.
محمد (خادم هوبر) ٢٥٧، ٢٨٢ – ٢٨٣.
محمد علي باشا ٣٠، ٤٥، ٤٧، ١٠٧، ١٢٨ – ١٣١، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠ – ١٤١، ١٤٥، ١٥٢ – ١٥٤، ١٥٨، ١٦٠ – ١٦٤، ١٦٧، ١٨٠، ١٨١، ٢٧٧.
محمد المكي ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩– ٢١٠، ٢١٢ – ٢١٣، ٢١٦، ٢١٩.
المحيط الهندي ٢٢.
مخا ١٢٥.
مختار بك ٢٨٤.
مدائن صالح ١٢٢، ٢٧٨، ٢٨٤.
مدرسة سان بطرس ٣٠.
مدرسة سيلفستردي ساس ١٨٠.
مدرسة ماكولاي ٦٠.
مدية (مدينة جزائرية) ١٦٧، ١٧٠ –١٧٢.
المدينة المنورة ٧ – ٨، ١٢ – ١٣، ١٨ – ٢٠، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٢ – ٤٤، ٤٧ – ٥٠، ٥٣ – ٥٤، ٦٠، ٧٠، ٧٩، ٨٢ –٨٥، ١٠٢، ١١١، ١١٥ – ١١٦، ١٢٠ – ١٢٢، ١٤١ – ١٤٦، ١٥٦، ١٥٨، ١٨٢ – ١٨٤، ١٨٦، ١٩٢– ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧ – ٢٠٩، ٢١٨ – ٢١٩، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٤١ –، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٦٠، ٢٦٤ – ٢٦٥، ٢٧٤ – ٢٨٠، ٢٨٤ – ٢٨٥.
مرسيليا ٩٠ – ٩٣، ٢٢١، ٢٧٤.
المروة ٧٥، ١٢٢، ١٣١، ١٣٣، ٢١٧.
مزدلفة ٧٦، ١٢٣، ١٤٠، ٢١٥، ٢٣٨.
مزيريب ٩١.
مستشفى القديس بارثولومبو ٢٢٧.
المسجد الحرام ٤٦، ٥٠ – ٥١، ٥٩، ٦٢، ٦٤، ٦٨، ٧٥، ٩٢، ١١٠، ١١٣ – ١١٤، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٨٣– ١٨٤، ٢١٢ – ٢١٣، ٢١٧، ٢٢٣

– ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٢ – ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠ – ٢٤١، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٨، ٢٦٩.
مسجد الخليفة عمر بن الخطاب ٩٧ (رضي الله عنه)، ١١٦.
مسجد عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) ٧٧.
المسجد النبوي الشريف ٤٦، ٦٤، ٨٠ – ٨١، ١١٠، ١٢١ – ١٢٢، ١٤٢، ١٤٤ – ١٤٥، ١٨٣ – ١٨٤، ٢٠٥ – ٢٠٨، ٢٢٢، ٢٤٣.
مسعود ٢١٠، ٢١٤.
مسعودة الزنجية ١٦٦ – ١٦٧، ١٧٥.
مسقط ٣١، ٧١، ١٢٤، ١٧٠، ٢٧٧.
عيسى (عليه السلام) ١٨، ٩٢.
مصر ١٥، ١٧، ١٩، ٢١، ٢٤، ٤٦، ٧٣، ٧٨، ٩٢، ١٠٧، ١١٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٦، ١٥٢، ١٦٨، ١٨٠، ١٨١، ٢١٢، ٢٥٣، ٢٦٣.
مصطفى ٢٢١ –٢٢٢، ٢٢٥.
مضيق هرمز ١٩، ٢١، ٩٢.
معان ٢٧٩.
معبد باغودا البوذي ٢١٣.
معبد سليمان (عليه السلام) ١١٦.
المغرب ١٧، ٣٥، ٤٥، ٧٨، ١٠٦، ١٧٢، ١٧٥، ١٩٠، ٢٢٠.
مقام إبراهيم ٦٧.
مقبرة المعلا ٢٧١– ٢٧٢.
المقبرة النصرانية في جدة ٢٦٦، ٢٧٤.
مكناس ١٠٦.
ملقا ٢١.
مليانة (مدينة جزائرية) ١٦٧، ١٧٢، ١٧٥.
منى ٦١، ٧٦ –٧٧، ٨٦، ٩٧، ١١٣، ١٢٢، ١٤٠، ١٤١، ٢١٥، ٢٢٥، ٢٣٦ – ٢٣٨، ٢٧٣.
منديني ماكولي ١١٢.
مورسلي ٢٨٣.
ميسنر باشا ٢٨٤.
ميلتون (شاعر إنجليزي) ١٤٤

(ن)

نابليون ٢٤، ٢٨، ١٠٦، ١١٦، ١٣٠، ١٣٧، ١٥١.
نجد ٣٠، ٧١، ١٢٢، ١٢٣، ٢٥٦.
نهر الدانوب ٩٤، ١٢٠.
نهر الرون ١٧.
نهر اللوار ١٧.
نهر النيل ٤٤، ١٠٠، ١٥٢، ١٨٩، ٢٢١.
نوح (عليه السلام)٦٤.
نور (الحاج) ٢١٩.
نور الهدى ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٩.
نوريمبيرج (مدينة ألمانية) ٩٤، ٩٨.
نولدكه ٢٥٧.
نيبور (الرحالة) ٤٦، ١٢٣، ٢٧٦.
النيجر ١٤٨.
نيوفاوند لاند ٩٩.
نيويورك ٧٣.

(هـ)

هاجر (أم إسماعيل عليه السلام) ٦٦، ٧٥.
هارون الرشيد ٢٠٨.
هافر ٩٣.
هاملت ١٥٣.
الهند ١٧، ٢٠ –٢٣، ٢٦–٢٧، ٣١، ٣٥، ٤٣، ٤٦، ٨٩، ٩٢، ١٢٨ – ١٣٠، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٧٠، ٢٧٦.

هوجارث ١٩٦، ٢٧٦.
هولندا ٥٣، ١١٩، ٢٤٥.
هيرودوس ١٥.
هينري رو لينسون ١٩٣.
هيوم ١١٧.

(و)

وادي مكة ٦٧.
وادي نعمان ١٣١.
والي (الحاج) ١٩٩ -٢٠٠.
والين (جورج أوغسطس) ٢٣، ٣٠، ٤١، ١٩١ - ١٩٤، ١٩٧، ٢٨٦.
وايلد (يوهان) ٢٢ - ٢٣، ٤١، ٩٤ - ٩٨، ٢٨٧.
ولد بن علي ١٨٢.
وليام جون بانكس ١٦٤.
وليام فولكنر ١٠٤.
وهران ١٦٧، ١٧٠، ١٧٦ - ١٧٧.
وولتر بيجهوت ١١٨.
ويتبي (مدينة) ٢٣١.

(ي)

اليابان ٣٠، ٦٧، ١٩٠.
يافا ٢٦٥.
يحيى أفندي ١٢٨، ١٤٣.
اليمن ٢٦، ٢٩، ٧١، ٧٦، ١٢٣، ١٨٥، ٢٧٦.
ينبع ٨٢، ٩٥ - ٩٦، ١١٥، ١٢١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٦ - ١٥٨، ١٨٢ - ١٨٣، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢١، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٧٩.
يوتينج (يوليوس) ٢٥٦ - ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٨٢.
يوحنا الثالث ١٩.
اليونان ٢١٢.
يونس العجمي ٢٦.
يونس المصري ٢٦.
ييفر (مدينة) ١١٩.

إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

١ - فهارس كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد، السيد أحمد مرسي عباس، ١٣٩٥هـ.
٢ - لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ١٣٩٥هـ.
٣ - سلسلة قادة الجزيرة - قال الجد لأحفاده، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٤ - سعود الكبير - الإمام سعود بن عبدالعزيز، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٥ - عثمان بن عبدالرحمن المضايفي - عهد سعود الكبير، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٦ - الإمام القائد عبدالعزيز بن محمد بن سعود، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٧ - هذا هو كتاب سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، أمين سعيد، ١٣٩٥هـ.
٨ - المرأة: كيف عاملها الإسلام، الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ. (د. ت).
٩ - الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٦هـ.
١٠ - العرب بين الإرهاص والمعجزة، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.
١١ - بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.
١٢ - رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.
١٣ - الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز ودعوة التضامن الإسلامي، مناع القطان، ١٣٩٦هـ.
١٤ - انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية، محمد كمال جمعة، ١٣٩٧هـ.
١٥ - أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه، محمد إبراهيم رحمو، ط٢، ١٣٩٨هـ.
١٦ - تاريخ الدولة السعودية، أمين سعيد، ١٤٠١هـ.
١٧ - مكة في عصر ما قبل الإسلام، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ١٤٠١هـ.
١٨ - الأطلس التاريخي للدولة السعودية، إبراهيم جمعة، ١٣٩٩هـ.

١٩ - أمجاد الرياض في حياة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز، شعر محمد العيد الخطراوي، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٢٠ - محمد بن عثيمين شاعر الملك عبدالعزيز، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ١٣٩٩هـ.

٢١ - مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب، ١٣٩٩هـ.

٢٢ - دليل الدوريات بالمكتبة، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٣ - دليل الوثائق العربية بدارة الملك عبدالعزيز، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٤ - دليل الوثائق التركية الخاصة بالجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٥ - قائمة ببليوجرافية مختارة من مكتبة دارة الملك عبدالعزيز عن الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٦ - دليل دارة الملك عبدالعزيز، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٩هـ.

٢٧ - أعمال الحلقة الخامسة للمراكز والهيئات العلميّة المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٨ - دراسات في الجغرافية الاقتصادية «المملكة العربية السعودية والبحرين»، د. أحمد رمضان شقلية، ١٤٠٢هـ.

٢٩ - الكتاب السنوي الأول للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٣٠ - الأمثال العامية في نجد «٥ أجزاء»، محمد بن ناصر العبودي «أسهمت الدارة في طباعته»، ١٣٩٩هـ.

٣١ - حالة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز، رابح لطفي جمعة، ١٤٠٢هـ.

٣٢ - الملك فيصل والقضية الفلسطينية، د. السيد عليوة، ١٤٠٢هـ.

٣٣ - علاقة ساحل عمان ببريطانيا «دراسة وثائقية»، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ.

٣٤ - سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ.

٣٥ - عنوان المجد في تاريخ نجد (جزءان)، تأليف عثمان بن بشر، تحقيق: عبدالرحمن ابن عبداللطيف آل الشيخ، ١٤٠٢هـ.

٣٦ - المرافئ الطبيعيَّة على الساحل السعودي الغربي «دراسة مقارنة تطبيقية»، د. محمد أحمد الرويثي، ١٤٠٣هـ.

٣٧ - السكان وتنمية الموانئ السعودية على البحر الأحمر، د. محمد أحمد الرويثي، ١٤٠٢هـ.

٣٨ - كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، لمؤلف مجهول، تحقيق: أ.د. عبدالله العثيمين، ١٤٠٣هـ.

٣٩ - النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، نوال حمزة الصيرفي (سلسلة الرسائل الجامعية - ١)، ١٤٠٣هـ.

٤٠ - بلاد الحجاز منذ عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد،

د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية – ٢)، ١٤٠٣هـ.

٤١ - العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩ – ١٣٤١هـ، خالد حمود السعدون (سلسلة الرسائل الجامعية – ٣)، ١٤٠٣هـ.

٤٢ - السمات الحضارية في شعر الأعشى: دراسة لغوية وحضارية، زينب عبدالعزيز العمري (سلسلة الرسائل الجامعية – ٤)، ١٤٠٣هـ.

٤٣ - الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، عبدالقدوس الأنصاري، ١٤٠٣هـ.

٤٤ - انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية، محمد كمال جمعة، ط٢، ١٤٠١هـ.

٤٥ - الصهيونية والقضية الفلسطينية في الكونجرس الأمريكي، د. عاصم الدسوقي، ١٤٠٣هـ.

٤٦ - مكة في عصر ما قبل الإسلام، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ط٢، ١٤٠١هـ.

٤٧ - أضواء حول الإستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه، محمد إبراهيم رحمو، ط٣، ١٤٠٢هـ.

٤٨ - نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تأليف: عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، تحقيق: محمد بن أحمد العقيلي، ١٤٠٢هـ.

٤٩ - فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤١٢هـ.

٥٠ - دارة الملك عبدالعزيز: الكتيب الإعلامي الأول للدارة، ١٣٩٨هـ.

٥١ - مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة، د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية – ٥)، ١٤٠٨هـ.

٥٢ - النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ – ١٩٤٥م، د. محمد عبدالرحمن الشامخ (أسهمت الدارة في طباعته)، ١٣٩٥هـ.

٥٣ - مدينة الرياض: دراسة في جغرافية المدن، د. عبدالرحمن صادق الشريف، ١٣٩٩هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٥٤ - المنهج المثالي لكتابة تاريخنا، محمد حسين زيدان، ١٣٩٨هـ.

٥٥ - الدولة السعودية الثانية من ١٢٥٦ – ١٣٠٩هـ، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٥٦ - لوحة نسب آل سعود، تصميم الدكتور إبراهيم جمعة. (د.ت).

٥٧ - جداول تحويل السنين الهجرية إلى ما يقابلها من التواريخ الميلادية، رتبها د. إبراهيم جمعة. (د. ت).

٥٨ - الكشاف التحليلي لمجلة الدارة ١٣٩٥ – ١٤١٥هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٦هـ.

٥٩ - الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، تأليف إيجيرو ناكانو، ترجمة سارة تاكا هاشي، ط١، ١٤١٦هـ.

٦٠ - الرحلات الملكية: رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ – ١٣٤٦هـ، يوسف ياسين، ١٤١٦هـ.

٦١ - الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية

الدولة السعودية الأولى، د. مي بنت عبدالعزيز العيسى (سلسلة الرسائل الجامعية - ٦)، ١٤١٧هـ.

٦٢ - مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٧هـ.

٦٣ - يوميات رحلة في الحجاز، تأليف: غلام رسول مهر، ترجمة: د. سمير عبدالحميد إبراهيم، ١٤١٧هـ.

٦٤ - معجم التراث (السلاح)، سعد بن عبدالله الجنيدل، ١٤١٧هـ.

٦٥ - جدة خلال الفترة ١٢٨٦ - ١٣٢٦هـ: دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة، صابرة مؤمن إسماعيل (سلسلة الرسائل الجامعية - ٧)، ١٤١٨هـ.

٦٦ - بحوث ندوة الوثائق التاريخية في المملكة العربية السعودية خلال الفترة ١٣ - ١٥ رجب ١٤١٧، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ.

٦٧ - حوليات سوق حباشة، أ.د. عبدالله بن محمد أبو داهش، ١٤١٨هـ.

٦٨ - مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية المرحلة الأولى ١٤١٦ - ١٤١٧هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٦٩ - الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى (جزءان)، إسماعيل حسين أبو زعنونة، ١٤١٩هـ.

٧٠ - رحلة الربيع، فؤاد شاكر، ١٤١٩هـ.

٧١ - فجر الرياض، عبدالواحد محمد راغب، ١٤١٩هـ.

٧٢ - معجم مدينة الرياض، خالد بن أحمد السليمان، ١٤١٩هـ.

٧٣ - الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية، تأليف إيجيرو ناكانو، ترجمة: سارة تاكاهاشي، ط٢، ١٤١٩هـ.

٧٤ - رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ١٤١٩هـ.

٧٥ - الملك عبدالعزيز في مجلة الفتح (قائمة ببليوجرافية)، د. فهد بن عبدالله السماري، ود. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ.

٧٦ - الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة، د. فان درمولين، ١٤١٩هـ.

٧٧ - الرحلات الملكية: رحلات جلالة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ - ١٣٤٦هـ، يوسف ياسين. ط٢، ١٤١٩هـ.

٧٨ - خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد)، د. محمد بن عبدالله النويصر، ١٤١٩هـ.

٧٩ - مختارات من الخطب الملكية (جزءان)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٨٠ - نساء شهيرات من نجد، د. دلال بنت مخلد الحربي، ١٤١٩هـ.

٨١ - مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب. ط٢، ١٤١٩هـ.

٨٢ - إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر، تأليف شعيب بن عبدالحميد الدوسري، تحقيق عبدالرحمن بن سليمان الرويشد، محمد بن عبدالله الحميد، ١٤١٩هـ.

٨٣ - صفحات من تاريخ مكة المكرمة (جزءان)، تأليف ك. سنوك هورخرونيه

نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، ١٤١٩هـ.

٨٤ - لماذا أحببت ابن سعود، محمد أمين التميمي، ١٤١٩هـ.

٨٥ - ديوان الملاحم العربية، محمد شوقي الأيوبي، تعليق د. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ.

٨٦ - أصدقاء وذكريات. انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م، تحرير د. فهد بن عبدالله السماري، جيل أ. روبيرج، ط١، ١٤١٩هـ.

٨٧ - الطريق إلى الرياض: دراسة تاريخية وجغرافية لأحداث وتحركات الملك عبدالعزيز لاسترداد الرياض ١٣١٩هـ/ ١٩٠١ - ١٩٠٢م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٨٨ - الرواد: الملك عبدالعزيز ورجاله الأوفياء الذين دخلوا الرياض في الخامس من شهر شوال سنة ١٣١٩هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٨٩ - الزيارة الملكية: زيارة الملك عبدالعزيز التفقدية لشركة أرامكو، شركة أرامكو - لجنة المؤرخين، ترجمه وعلق عليه د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٩هـ.

٩٠ - يوميات الرياض: من مذكرات أحمد بن علي الكاظمي، أحمد بن علي الكاظمي، ١٤١٩هـ.

٩١ - الملك عبدالعزيز في الصحافة العربية، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤١٩هـ.

٩٢ - رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، فيليب ليبنز، ترجمة محمد محمد الحناش، ١٤١٩هـ.

٩٣ - جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز تجاه القضايا العربية: دراسة تحليلية من خلال أوراق نبيه العظمة، د. خيرية قاسمية، ١٤١٩هـ.

٩٤ - معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري، سعد بن جنيدل، ١٤١٩هـ.

٩٥ - الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤١٩هـ.

٩٦ - المملكة العربية السعودية في مئة عام: معلومات موجزة، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٩٧ - عبدالعزيز (الكتاب المصور)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٩٨ - أصدقاء وذكريات، انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م، تحرير د. فهد بن عبدالله السماري، جيل أ. روبيرج، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٩٩ - الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى: القسم الأول ١٣٤٣هـ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤م - ١٩٥٣م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٠هـ.

١٠٠ - الجزيرة العربية في الخرائط الأوروبية القديمة، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ.

١٠١ - بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (٢٩ بحثًا) ط١، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ.

١٠٢ - الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤٢١هـ.

١٠٣ - سلسلة وثائق المملكة العربية السعودية

التاريخية - القضية الفلسطينية - ١٣٤٨ - ١٣٧٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.

١٠٤ - الملك عبدالعزيز في الإنتاج الفكري العربي المنشور في عام ١٤١٩هـ، عبدالرحمن أحمد فراج، ١٤٢١هـ.

١٠٥ - مؤتمر فلسطين العربي البريطاني - المنعقد في مدينة لندن في ١٨ ذي الحجة ١٣٥٧هـ الموافق ٧ فبراير ١٩٣٩م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.

١٠٦ - رحلة إلى بلاد العرب، تأليف أحمد مبروك، تعليق د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤٢١هـ.

١٠٧ - محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي، د. نادية بنت وليد الدوسري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٨). ١٤٢٢هـ.

١٠٨ - مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، الشيخ حمد الجاسر، ١٤٢٢هـ.

١٠٩ - الجيش السعودي في فلسطين، صالح جمال الحريري، ١٤٢٢هـ.

١١٠ - تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج، ج.ج. لوريمر، جمع وتعليق الدكتور محمد بن سليمان الخضيري، ١٤٢٢هـ.

١١١ - اللجان الشعبية لمساعدة مجاهدي فلسطين في المملكة العربية السعودية، عبدالرحيم محمود جاموس، ١٤٢٢هـ.

١١٢ - الدولة العيونية في البحرين ٤٦٩ - ٦٣٦هـ/ ١٠٧٦ - ١٢٣٨م، د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس (سلسلة الرسائل الجامعية - ٩)، ١٤٢٢هـ.

١١٣ - المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود/ دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف، ط١، د. فهد بن عبدالله السماري، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤٢٢هـ.

١١٤ - Najd Before The Salafi Reform Movement، «نجد قبل الدعوة الإصلاحية السلفية» د. عويضة بن متيريك الجهني، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).

١١٥ - Al - Yamama in the Early Islamic Era. «اليمامة في صدر الإسلام» د. عبدالله بن إبراهيم العسكر، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).

١١٦ - التحليق إلى البيت العتيق، د. عبدالهادي التازي. (سلسلة كتاب الدارة - ١)، ١٤٢٢هـ.

١١٧ - الوثائق التاريخية لوزارة المعارف في عهد وزيرها الأول خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ١٣٧٣ - ١٣٨٠هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١١٨ - الإقناع لطالب الانتفاع (أربعة أجزاء)، أبو النجا الحجاوي المقدسي، ١٤٢٣هـ.

١١٩ - جامع العلوم والحكم (جزءان)، ابن رجب، ١٤٢٣هـ.

١٢٠ - خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: خطب وكلمات، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١٢١ - معجم ما ألف عن الحج، د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي، ١٤٢٣هـ.

١٢٢ - برنامج المحافظة على المواد التاريخية،

دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الكونغرس، ١٤٢٣هـ.

١٢٣ - مبادئ العناية بمواد المكتبة والتعامل معها، جمع وتحرير إدوارد. ب. أدكوك، ترجمة د. عبدالعزيز بن محمد المسفر، د. فؤاد حمد فرسوني، ١٤٢٣هـ.

١٢٤ - العلاقات السعودية المصرية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: بحوث ودراسات ألقيت في الندوة التي عقدتها دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع مؤسسة الأهرام، القاهرة (١/ ١٢/ ١٤٢٢هـ)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١٢٥ - علم القراءات: نشأته، أطواره، أثره في العلوم الشرعية، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٢٦ - المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود/ دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف، د. فهد بن عبدالله السماري، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٢٧ - مستخلصات بحوث مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز (جزءان)، ١٤٢٣هـ.

١٢٨ - الزيارات الخارجية لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، نايف بن علي السنيد الشراري، ١٤٢٣هـ.

١٢٩ - موقف المملكة العربية السعودية من القضية الفلسطينية (١٩٢٦ - ١٩٤٨م)، د. حسان حلاق (سلسلة كتاب الدارة - ٢) ١٤٢٣هـ.

١٣٠ - مواقف خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود تجاه قضية فلسطين، د. عبدالفتاح حسن أبو علية، ١٤٢٣هـ.

١٣١ - العلاقات السعودية اللبنانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، دارة الملك عبدالعزيز، الجامعة اللبنانية، ١٤٢٣هـ.

١٣٢ - كلمات قضت - معجم بألفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت، محمد بن ناصر العبودي (جزءان)، ١٤٢٤هـ.

١٣٣ - الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية: بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤٢٤هـ.

١٣٤ - موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية، إعداد: دارة الملك عبدالعزيز وهيئة المساحة الجيولوجية السعودية، ١٤٢٤هـ.

١٣٥ - التاريخ الشفهي، حديث عن الماضي، تأليف: د. روبرت بيركس، ترجمة د. عبدالله ابن إبراهيم العسكر، ١٤٢٤هـ.

١٣٦ - الأساليب التربوية المستمدة من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، د. عبدالرحمن بن علي العريني، (سلسلة كتاب الدارة - ٣) ١٤٢٤هـ.

١٣٧ - طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبدالعزيز، عبدالرحمن بن عبدالله الشقير، ١٤٢٤هـ.

١٣٨ - مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود لترميم وتجليد

مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.

١٣٩ - المملكة العربية السعودية وحقوق الإنسان في السلم والحرب: إشارات موجزة، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤٢٤هـ.

١٤٠ - الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة، د. معراج بن نواب مرزا، د. عبدالله بن صالح شاووش، ١٤٢٤هـ.

١٤١ - مختصر الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.

١٤٢ - المملكة العربية السعودية في مئة عام (معلومات موجزة)، إصدار خاص للمكفوفين بخط برايل، طبع الكتاب بالتعاون مع وزارة المعارف، ١٤١٩هـ.

١٤٣ - تغير الأنماط السكنية في مدينة الدرعية، د. بدر بن عادل الفقير، ١٤٢٦هـ.

١٤٤ - رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام، تأليف: سعد بن أحمد الربيعة أعده للنشر: سعود بن عبدالعزيز الربيعة، (سلسلة كتاب الدارة - ٤). (ط١) ١٤٢٤هـ، (ط٢) ١٤٢٩هـ.

١٤٥ - الصلات الحضارية بين تونس والحجاز: دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦ - ١٣٢٦هـ)، أ. نورة بنت معجب الحامد (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٠)، ١٤٢٦هـ.

١٤٦ - تجارة السلاح في الخليج العربي (١٢٩٧ - ١٣٣٣هـ)، أ. فاطمة بنت محمد الفريحي (سلسلة الرسائل الجامعية - ١١)، ١٤٢٥هـ.

١٤٧ - تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر للميلاد، د. سعيد بن عبدالله القحطاني (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٢)، ١٤٢٥هـ.

١٤٨ - الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فيها، د. أحمد بن عبدالعزيز البسام (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٣)، ١٤٢٦هـ.

١٤٩ - موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية، د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٤)، ١٤٢٦هـ.

١٥٠ - الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية (١٢٣٨ - ١٣٠٩هـ)، حصة بنت جمعان الزهراني (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٥)، ١٤٢٥هـ.

١٥١ - المجلات العلمية المحكمة في المملكة العربية السعودية (دراسة تقويمية للوضع الراهن)، أ.د. سالم بن محمد السالم، ١٤٢٥هـ.

١٥٢ - منطقة سدير في عهد الدولة السعودية الأولى، د. عبدالله بن إبراهيم التركي، (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٦)، ١٤٢٦هـ.

١٥٣ - تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي باشا على الجزيرة العربية، تأليف فيلكس مانجان، ترجمة د. محمد خير البقاعي، ١٤٢٦هـ.

١٥٤ - لمحات من الماضي (مذكرات الشيخ عبدالله خياط)، عبدالله عبدالغني خياط، ١٤٢٥هـ.

١٥٥ - موجز لتاريخ الوهابي، تأليف هارفرد جونز بريدجز، ترجمة د. عويضة بن متيريك الجهني، ١٤٢٥هـ.

١٥٦ - التذكرة في أصل الوهابيين ودولتهم، تأليف جان ريمون، ترجمة د. محمد خير البقاعي (سلسلة كتاب الدارة - ٥)، ١٤٢٦هـ.

١٥٧ - تاريخ الوهابيين منذ نشأتهم حتى عام ١٨٠٩م، تأليف لويس ألكسندر أوليفيه دوكورانسيه، ترجمة د. إبراهيم البلوي، د. محمد خير البقاعي، ١٤٢٦هـ.

١٥٨ - الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني، تأليف الحسن بن أحمد الضمدي، تحقيق أ.د. إسماعيل بن محمد البشري، ١٤٢٥هـ.

١٥٩ - دليل المجلات السعودية المحكمة، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.

١٦٠ - الرعاية الاجتماعية في المملكة العربية السعودية (النشأة - الواقع)، د. عبدالله بن ناصر السدحان، ١٤٢٥هـ.

١٦١ - رحلة استكشافية أثرية إلى الجزيرة العربية، تأليف أنطونان جوسن - رفائيل سافينياك، ترجمة د. صبا عبدالوهاب الفارس، ١٤٢٥هـ.

١٦٢ - الملك فهد قائد حركة الإسلام والعروبة في القرن الخامس عشر الهجري، أحمد بن عبدالغفور عطار، ١٤٢٥هـ.

١٦٣ - الوثائق العثمانية في الأرشيفات العربية والتركية: بحوث ندوة الأرشيف العثماني المنعقدة في الرياض في المدة من ١٩ - ٢٢ صفر ١٤٢٢هـ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.

١٦٤ - أطباء من أجل المملكة، عمل مستشفيات الإرسالية الأمريكية في المملكة العربية السعودية ١٩١٣ - ١٩٥٥م، تأليف د. بول أرميردينغ، ترجمة د. عبدالله بن ناصر السبيعي (سلسلة كتاب الدارة - ٦)، ١٤٢٦هـ.

١٦٥ - العلاقات بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي - الواقع والمستقبل، بحوث المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول المنعقد في تونس في المدة من ٢ - ٤ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ ٢ - ٤ يونيو ٢٠٠٣م بالتعاون بين دارة الملك عبدالعزيز ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.

١٦٦ - الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأخبار، تأليف/ أبي الفتح نصر بن عبدالرحمن الأسكندري ت ٥٦١هـ، أعده للنشر/ حمد الجاسر، ١٤٢٥هـ.

١٦٧ - مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية المرحلة الأولى ١٤١٦ - ١٤١٧هـ، (ط٢)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٦٨ - دبلوماسية الصداقة، إيطاليا والمملكة العربية السعودية ١٩٣٢ - ١٩٤٢م، تأليف ماتّيو بيتسيغالّو، ترجمة محمد عشماوي عثمان، ١٤٢٥هـ.

١٦٩ - ديوان كوكبة السعودية من شعر زين العابدين الكويتي (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة - ٦)، تعليق د. يعقوب يوسف الغنيم، ١٤٢٥هـ.

١٧٠ - في أرض البخور واللبان، أ.عبدالله بن محمد الشايع، ١٤٢٦هـ.

١٧١ - الجهود التربوية للجمعيات الخيرية النسائية السعودية، أ. حصة بنت محمد المنيف، (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٧) ١٤٢٦هـ.

١٧٢ - الإدارة العثمانية في متصرفية الأحساء (١٢٨٨ - ١٣٣١هـ/ ١٨٧١ - ١٩١٣م)، د. محمد بن موسى القريني، (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٨)، ١٤٢٦هـ.

١٧٣ - سياسة الملك عبدالعزيز تجاه فلسطين في حرب ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، د. عبداللطيف بن محمد الحميد، (سلسلة كتاب الدارة - ٧)، ١٤٢٦هـ.

١٧٤ - كسوة الكعبة المشرفة في عهد الملك عبدالعزيز (١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤ - ١٩٥٣م)، أ.د. ناصر بن علي الحارثي، ١٤٢٦هـ.

١٧٥ - معجم التراث (الكتاب الثاني - الخيل والإبل)، سعد بن عبدالله بن جنيدل، ١٤٢٦هـ.

١٧٦ - المقامات (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة - ٥)، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، دراسة وتحقيق د. عبدالله بن محمد المطوع، ١٤٢٦هـ.

١٧٧ - لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة- ٤) تأليف حسن بن جمال بن أحمد الريكي، درسه وحققه وعلق عليه أ.د عبدالله الصالح العثيمين، ١٤٢٦هـ.

١٧٨ - التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة (سلسلة مصادر تاريخ الجزيرة العربية المخطوطة- ٧) تأليف جمال الدين محمد بن أحمد المطري، درسه وحققه وعلق عليه أ.د سليمان الرحيلي، ١٤٢٦هـ.

١٧٩ - السجل العلمي للقاء العلمي لمسؤولي التحرير في المجلات العلمية المحكمة في المملكة العربية السعودية (١٩/ ٣/ ١٤٢٥هـ الموافق ٨/ ٥/ ٢٠٠٤م)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٨٠ - أسماء الأوعية الجلدية من خلال معجم لسان العرب لابن منظور (دراسة دلالية تأصيلية)، د. محمد بن عبدالرحمن الثنيان، (سلسلة كتاب الدارة - ٨)، ١٤٢٦هـ.

١٨١ - المختارات من صحيفة أم القرى (١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.

١٨٢ - دُومة الجندل منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية - دراسة تاريخية حضارية، نايف بن علي السنيد الشراري (سلسلة الرسائل الجامعية - ١٩)، ١٤٢٦هـ.

١٨٣ - رحلة الحج من صنعاء إلى مكة المكرمة للعلامة إسماعيل جغمان، تحقيق د. محمد بن عبدالرحمن الثنيان، (سلسلة كتاب الدارة - ٩)، ١٤٢٦هـ.

١٨٤ - صحيفة أم القرى - نبذة تاريخية موجزة، أ. محمد بن عبدالرزاق القشعمي، ١٤٢٦هـ.

١٨٥ - وثائق عصر الملك عبدالعزيز المتعلقة بالأمور الداخلية المحفوظة في دارة الملك عبدالعزيز ١٣١٩ - ١٣٧٣هـ، د. خولة بنت محمد الشويعر (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٠)، ١٤٢٦هـ.

١٨٦ - الكشاف التحليلي لصحيفة صوت الحجاز، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ.
١٨٧ - أعمال الملك عبدالعزيز المعمارية في منطقة مكة المكرمة (١٣٤٣ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤ - ١٩٥٣م)، أ.د.ناصر بن علي الحارثي، ١٤٢٧هـ.
١٨٨ - Lord Of Arabia Ibn Saud (ابن سعود سيد الجزيرة العربية)، Armstrong (تأليف أرمسترنج)، ١٤٢٦هـ، (باللغة الإنجليزية).
١٨٩ - إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر (القسم الثاني من الجزء الأول)، تأليف شعيب بن عبدالحميد الدوسري، تعليق عبدالرحمن بن سليمان الرويشد ومحمد بن عبدالله الحميِّد وفائز بن موسى البدراني الحربي، ١٤٢٧هـ.
١٩٠ - الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ)، محمد محمود خلف العناقرة (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢١)، ١٤٢٧هـ.
١٩١ - التنظيمات الداخلية في مكة المكرمة بعد دخول الملك عبدالعزيز آل سعود (١٣٤٣ - ١٣٥١هـ)، منى بنت قائد آل ثابتة القحطاني (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٢)، ١٤٢٧هـ.
١٩٢ - المملكة العربية السعودية وفلسطين، بحوث ودراسات، بحوث ندوة المملكة العربية السعودية وفلسطين التي نظمتها دارة الملك عبدالعزيز ٢٧ - ٢٩ محرم ١٤٢٢هـ/ ٢١ - ٢٣ إبريل ٢٠٠١م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٧هـ.
١٩٣ - النشاط العلمي في مكة والمدينة خلال مواسم الحج في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠م)، د. إبراهيم بن عبدالعزيز الجميح، (سلسلة كتاب الدارة - ١٠)، ١٤٢٧هـ.
١٩٤ - قراءة في بعض المذكرات والرسائل الشخصية للشيخ المؤرخ والنسابة إبراهيم بن عيسى، د. أحمد بن عبدالعزيز البسام، ١٤٢٧هـ.
١٩٥ - التطور التاريخي للأسرة في الحجاز في القرنين الأول والثاني الهجريين، هدى بنت فهد بن محمد الزويد (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٣)، ١٤٢٧هـ.
١٩٦ - مملكة كندة في وسط شبه الجزيرة العربية: دراسة تاريخية آثارية، د. عبدالعزيز بن سعود الغزي، (سلسلة كتاب الدارة - ١١)، ١٤٢٧هـ.
١٩٧ - النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. عبدالله بن محمد السيف، (سلسلة كتاب الدارة - ١٢)، ١٤٢٧هـ.
١٩٨ - زيارة جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل فيصل آل سعود للولايات المتحدة بدعوة من الرئيس دوايت د. إيزنهاور ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م (أعادت الدارة طباعته بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).
١٩٩ - مجموعة رسوم تذكارية لزيارة صاحب السمو الملكي الأمير سعود آل سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية إلى الظهران خلال شهر يناير ١٩٥٠م (أعادت الدارة طباعته

بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

٢٠٠ - الكعبة المشرفة عمارة وكسوة في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود «دراسة تاريخية حضارية معمارية»، محمد بن حسين الموجان، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

٢٠١ - التعليم في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود (١٣٧٣ - ١٣٨٤هـ/ ١٩٥٣ - ١٩٦٤م) دراسة تاريخية وثائقية، د. حصة بنت جمعان الهلالي الزهراني (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٤)، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م).

٢٠٢ - مكتبة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود الخاصة، د. فهد بن عبدالله السماري، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م)، ١٤٢٧هـ.

٢٠٣ - معجم التراث (الكتاب الثالث - بيت السكن)، سعد بن عبدالله بن جنيدل، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٤ - منطقة الوشم في عهد الدولة السعودية الأولى، د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٥)، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٥ - بحوث ندوة أسماء الأماكن الجغرافية في المملكة العربية السعودية: بحوث الندوة التي عقدتها الدارة في المدة من ١٠ - ١١/ ٣/ ١٤٢٤هـ الموافق ١١ - ١٢/ ٥/ ٢٠٠٣م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٦ - دراسة تحليلية مقارنة لنقوش ثمودية من منطقة «رم» بين ثليثوات وقيعان الصنيع جنوب غرب تيماء، د. خالد بن محمد أسكوبي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٦)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠٧ - موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك، د. خالد محمد سالم العمايرة (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٧)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠٨ - العلاقات السعودية الأمريكية: نشأتها وتطورها، د. سميرة أحمد سنبل (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٨)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٠٩ - عشرة آلاف ميل عبر الجزيرة العربية، تأليف: أرنست وايز، ترجمة: أ. د عمر بن عبدالله باقبص (سلسلة كتاب الدارة - ١٣)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٠ - كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلية نقدية مقارنة، د. عواطف بنت محمد يوسف نواب (سلسلة الرسائل الجامعية - ٢٩)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١١ - البحث عن الحصان العربي، مأمورية إلى الشرق: تركيا - سوريا - العراق - فلسطين، تأليف ل. أثبيتيا دي مورس، ترجمة د. عبدالله بن إبراهيم العمير، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٢ - معجم التراث (الكتاب الرابع - الأطعمة وآنيتها)، سعد بن عبدالله بن جنيدل، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

٢١٣ - الترويح في المجتمع السعودي في عهد الملك عبدالعزيز ١٣١٩ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٥٣م، د. عبدالله بن ناصر السدحان (سلسلة كتاب الدارة - ١٤)، ١٤٢٨هـ.

٢١٤ - خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود: خطب وكلمات، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٥ - مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، تأليف إلدون رترّ، ترجمة د. عبدالله نصيف، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٦ - العلاقات السعودية البحرينية في عهد الملك عبدالعزيز ١٣١٩ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٥٣م، أ. طلال بن خالد الطريفي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣٠)، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٧ - رحالة إسباني في الجزيرة العربية: رحلة (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧م، تأليف دومنجو باديا، ترجمة د. صالح بن محمد السنيدي، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٨ - معجم ما ألف عن مكة المكرمة عبر العصور، د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢١٩ - التواصل التاريخي والعلمي بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي، بحوث المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الثاني المنعقد في الرياض في المدة من ٢٦ - ٢٧ محرم ١٤٢٧هـ/ ٢٥ - ٢٦ فبراير ٢٠٠٦م بالتعاون بين دارة الملك عبدالعزيز ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٢٠ - المملكة العربية السعودية في مائة عام: بحوث ودراسات، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مائة عام المنعقد في الرياض خلال المدة ٧ - ١١ شوال ١٤١٩هـ الموافق ٢٤ - ٢٨ يناير ١٩٩٩م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٢١ - Prominent Women From Central Arabia «نساء شهيرات من نجد»، تأليف دلال بنت مخلد الحربي، ترجمة د.محمد أباحسين، د. محمد الفريح، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م. (باللغة الإنجليزية).

٢٢٢ - مكتبة الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود الخاصة، د. فهد بن عبدالله السماري، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، مايو ٢٠٠٨م).

٢٢٣ - تاريخ التعليم في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، د. بصيرة بنت إبراهيم الداود (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣١)، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، مايو ٢٠٠٨م).

٢٢٤ - سياسة الملك فيصل الدعوية، د. ابراهيم بن عبدالله السماري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣٢)، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك

فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، مايو ٢٠٠٨م).

٢٢٥ - الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود: رؤى وذكريات، د. فهد بن عبدالله السماري، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، مايو ٢٠٠٨م).

٢٢٦ - الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود: بحوث ودراسات، بحوث الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود التي عقدتها دارة الملك عبدالعزيز في المدة ٥ - ٧ ذو القعدة ١٤٢٧هـ الموافق ٢٦ - ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٦م، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٢٢٧ - كسوة الكعبة المشرفة في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود: دراسة تاريخية حضارية، أ. محمد بن حسين الموجان، (طبع بمناسبة انعقاد الندوة العلمية لتاريخ الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ، مايو ٢٠٠٨م).

٢٢٨ - Kings and Camels: An American in Saudi Arabia «ملوك وجمال: أمريكي في المملكة العربية السعودية»، تأليف: Grant C. Butler، ٢٠٠٨م. (باللغة الإنجليزية).

٢٢٩ - المجامر القديمة في تيماء : دراسة آثارية مقارنه، أ. محمد بن معاضة بن معيوف، (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣٣) ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م .

٢٣٠ - التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية، في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي ، أ.د. أحمد حسين العقبي، (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣٤) ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

٢٣١ - مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة - دراسة تحليلية لعوامل انتقالها واندثارها بعد سقوط الدرعية، أ. حمد بن عبدالله العنقري، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٣٢ - يوميات حسين عبدالله باسلامه ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، إعداد : أ.د. عبدالله بن حسين باسلامه، (سلسلة كتاب الدارة - ١٦)، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٣٣ - دول الخليج والمغرب العربيين والمتغيرات الدولية: الواقع والآفاق، بحوث المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الثالث المنعقد في مدينة فاس بالمملكة المغربية خلال المدة ١٧ - ١٩ شوال ١٤٢٨هـ الموافق ٢٩ - ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧م، بالتعاون بين دارة الملك عبدالعزيز ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات وجامعة سيدي محمد بن عبدالله بالمملكة المغربية، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٣٤ - في أرض الشحر والأحقاف، أ. عبدالله بن محمد الشايع، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٣٥ - مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى، تأليف: أغسطس رالي، تحقيق: د. معراج نواب مرزا، أ.د. محمد محمود السرياني، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.